سلسلة التراث الإنجيلي

أبطال الإيمان

ضيقات وانتصارات

تأليف

ريتشارد م. هانيولا

ترجمة

إيريني مكرم صموئيل

مراجعة

د. فيكتور صموئيل بدروس

اسم الكتاب : أبطال الإيمان
المؤلف : ريتشارد م. هانيولا
الجمع : الرابطة الإنجيلية في الشرق الأوسط
الناشر : الرابطة الإنجيلية في الشرق الأوسط

جميع حقوق النشر محفوظة للرابطة الإنجيلية في الشرق الأوسط فلا يجوز أن يستخدم اقتباس أو إعادة نشر أو طبع بالرينو أو بأي صورة أُخرى للكتاب أو أي جزء منه إذن الناشر وللناشر وحده حق إعادة الطبع.

تقديم

عنوان هذا الكتاب مستوحًى من مفهوم الوحي الشريف عن مسار وتقديم رسالة الإنجيل بين جميع الأمم. ملكوت الإنسانية الجديدة بدستور عطاء النفس الذي تجسد في ملك الملوك ورب الأرباب، هذا الملكوت يتقدم بخطىً ثابتة بنفس أسلوب المحبة الواهبة للذات؛ لأن المشيئة الإلهية الحكيمة هي: "أنه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله" (أع ١٤:٢٢). فكما انتصر الملك بتحمِّله الإهانة والألم حتى الموت، هكذا ينتصر أعضاء ملكوته المبارك.

القس/ فيكتور عطالله

المدير العام/ المؤسس

الرابطة الإنجيلية في الشرق الأوسط (ميرف)

المقدمة

بالنسبة للمسيحيين يروي هذا الكتاب تاريخ عائلتهم، فقد فضَّلت أختنا بلاندينا أن تواجه وحوش البرية عن إنكار المسيح، ووزع أخونا أمبروس ثروته الطائلة على الفقراء وبشَّر الأباطرة والفقراء بالإنجيل، وعاش ويليام تيندال، أبونا في الإيمان، حياته متعجلا ومات شنقًا وحرقًا، حتى يقدم الكتاب المقدس باللغة الإنجليزية، فإن معرفتنا بأسلافنا المسيحيين تلهمنا وتشجعنا لنحمد الله على نعمته وعظمة عمله في حياتهم.

يدعونا كاتب المزمور أن نسبح الله "وأن نعدَّ أعماله بترنم". إن أعظم أعمال الله ليست خلق الجبال والبحار، ولكن أعمال محبته المخلِّصة التي تحوِّل الخطاة إلى أولادٍ لله. إن القصص المذكورة في هذا الكتاب، لم تُكتب لتمجيد حياة هؤلاء المسيحيين العظماء، ولكنها كُتبت لتمجد الله الذي جعل حياتهم عظيمة.

إن سفر أعمال الرسل يروي قصة نمو الكنيسة بقيادة الرسل، فمن خلال المعارك التي خاضوها، نشروا الإنجيل في كافة أنحاء العالم الروماني. وتروي القصص المدوَّنة في هذا الكتاب، حياة الأشخاص الذين خدموا الله في السنوات التي تَلَتْ انتقال الرسل من عالمنا. وفي الصفحات التالية، ستتقابل مع مسيحيين من أماكن وأوقات ومحطات مختلفة–من عبيد يعملون مقيَّدين، إلى ملوك يحكمون إمبراطوريات واسعة. فهذه القصص ليست مستوحاة من الخيال، ولكنها قصص تاريخية تروي سيرتهم الذاتية، فالأحداث الخلفية، وأعمال هؤلاء الأشخاص، مستمدة من مصادر موثوق بها، وكل الاقتباسات مأخوذة مباشرة من أحاديث أو كتابات هؤلاء الأشخاص.

لقد كُتبت هذه الروايات خصيصًا للأولاد الصغار، ولكن إذا ألهمت هذه القصص، التي تروي تاريخ الكنيسة، بعض القراء بطريقة ما، ستغمرني السعادة وسأشعر بالامتنان.

فهرس المحتويات

مقدمة ٥

الكنيسة الأولى: مواجهة الاضطهاد ومحاربة الهرطقات

١-بوليكاربوس

شهد للمسيح في حلبة المصارعة (٦٩- ١٥٥ م) ١٣

٢-بلاندينا

شهيدة ليون (١٥٥-١٧٧ م) ١٦

٣-قسطنطين

مدافع عن الكنيسة (٢٧٢-٣٣٧ م) ١٩

٤-أثناسيوس

ضد العالم (٢٩٦-٣٧٣ م) ٢٥

٥-أمبروس

أسقف ميلان (٣٣٩-٣٩٧ م) ٢٩

٦-مونيكا وأغسطينوس

أم مسيحية وابنها (٣٥٤-٤٣٠ م) ٣٣

٧-باتريك

مبشر أيرلندا (٣٨٩-٤٦١ م) ٣٨

٨–البابا غرغوريوس الأول
خادم خدام الرب (٥٤٠–٦٠٤ م) ٤٦
٩–بونيفاس
مُرسل للألمان (٦٨٠–٧٥٤ م) ٥٢
١٠–شارلمان
حامي الكنيسة (٧٤٢–٨١٤ م) ٥٦
١١–ألفريد العظيم
ملك مسيحي (٨٤٧–٨٩٩ م) ٦٢
١٢–أنسيلم
لاهوتي وراهب ورئيس أساقفة (١٠٣٣–١١٠٩ م) ٦٨
١٣–برنارد الذي من كليرفو
حبيب المسيح (١٠٩٠–١١٥٣ م) ٧٤
١٤–بيتر والدو والوالدنسيون
الأمين للكلمة (١١٣٠–١٢١٧ م) ٧٩
١٥–فرانسيس الأسيزي
الأخ الأصغر (١١٨١–١٢٢٦ م) ٨٤
١٦–إليزابيث التي من المجر
خادمة الفقراء (١٢٠٧–١٢٣١ م) ٨٩
١٧–جون ويكليف
كوكب الصبح لعصر الإصلاح (١٣٣٠–١٣٨٤ م) ٩٥

١٨–جون هاسّ
رائد الإصلاح (١٣٦٩–١٤١٥ م) ١٠٠

عصر الإصلاح: توضيح رسالة الإنجيل

١٩–مارتن لوثر
أبو عصر الإصلاح (١٤٨٣–١٥٤٦ م) ١٠٦
٢٠–ويليام تيندال
مترجم الكتاب المقدس إلى الإنجيليزية (١٤٨٥–١٥٣٦ م) ١١٢
٢١–جون كالفن
لاهوتي الإصلاح (١٥٠٩–١٥٦٣ م) ١١٦
٢٢–آن أسكيو
شاهدة الرب الجسورة (١٥٢١–١٥٤٦ م) ١٢١
٢٣–لاتيمير وريدلي وكرانمار
الأساقفة الشهداء (١٤٨٥–١٥٥٦ م) ١٢٥
٢٤–جون نوكس
المصلح الأسكتلندي (١٥١٤–١٥٧٢ م) ١٣٠
٢٥–جان دالبريه Jeanne d'Albret
ملكة مُصلحة (١٥٢٨–١٥٧٢ م) ١٣٤
٢٦–رينيه
دوقة فيرارا (١٥١٠–١٥٧٥ م) ١٣٩

عصر ما بعد الإصلاح: شجاعة باسلة ونهضة رائعة

٢٧–جوستافوس أدولفاس

الملك المحارب (١٥٩٤–١٦٣٢ م) ١٤٦

٢٨–ريتشارد كاميرون

أسد العهد (١٦٤٤–١٦٨٠ م) ١٥١

٢٩–المارجاريتان

شهيدتا سولواى (١٦٢٢–١٦٨٥ م) ١٥٥

٣٠–جون بانيان

السائح السعيد (١٦٢٨–١٦٨٨ م) ١٥٩

٣١–جوناثان إدواردز

لاهوتي النهضة العظيمة (١٧٠٣–١٧٥٨ م) ١٦٤

٣٢–جورج هوايتفيلد

واعظ النهضة العظيمة (١٧١٤–١٧٧٠ م) ١٧٠

٣٣–جون ويسلي

العالم كله أبرشيته (١٧٠٣–١٧٩١ م) ١٧٥

٣٤–جون نيوتن

تاجر عبيد خلصته النعمة (١٧٢٥–١٨٠٧ م) ١٨٠

الإرساليات الحديثة: البشارة إلى أقصى الأرض

٣٥–ديفيد برينيرد
مبشر هنود أمريكا الشمالية (١٧١٨–١٧٤٧ م) ١٨٦

٣٦–وليام كاري
أبو الإرساليات الحديثة (١٧٦١–١٨٣٤ م) ١٩١
٣٧–ديفيد لينفنجستون
مرسل مكتشف (١٨١٣–١٨٧٣ م) ١٩٨
٣٨–جون باتون
شاهد آكلي لحوم البشر (١٨٢٤–١٩٠٧ م) ٢٠٤
٣٩–هادسون تيلور
مؤسس إرسالية الصين الداخلية (١٨٣٢–١٩٠٥ م) ٢٠٩
٤٠–إمي كيرمايكل
أم الأطفال المنبوذين (١٨٦٧–١٩٥١ م) ٢١٦

العصر الحديث: تأييد المسيح

٤١–تشارلز سبرجين
أمير الوعاظ (١٨٣٤–١٨٩٢ م) ٢٢٣
٤٢–مسيحيو الصين
في ثورة الملاكمين (١٩٠٠–١٩٠١ م) ٢٢٩
٤٣–إبراهام كويبر
لاهوتي ورجل دولة (١٨٣٧–١٩٢٠ م) ٢٣٥

٤٤–جيه جريشام ماكين
جسور من أجل الحق (١٨٨١–١٩٣٧ م) ٢٤٠
٤٥–سي إس لويس
مؤلف نارنيا (١٨٩٨–١٩٦٣ م) ٢٤٥
٤٦–ريتشارد ورمبراند
عُذِّب من أجل المسيح (١٩٠٨–٢٠٠١ م) ٢٥١

الكنيسة الأولى

مواجهة الاضطهاد ومحاربة الهرطقات

واجهت الكنيسة الأولى الكثير من الاضطهادات، من الخارج ومن الداخل من معلمين كذبة، ولكن في كل محاكمة، كان الله دائما ما يبرهن على صلاحه بمباركة الكنيسة وحفظها. وترسم لنا أول قصتيْن، صورة تصف استشهاد كاهن مسيحي، وفتاة مسيحية كانت تحت ظل العبودية. وقد يبدو غريبًا، في كتاب لتشجيع الشباب المسيحي، البدء بسرد قصص لمؤمنين واجهوا ميتات بشعة. لقد سعت الوثنية لمحو المسيحية من خلال عمليات القتل الوحشية للمسيحيين، ولكن الله ساند أولاده، حتى يقفوا بصلابة في مواجهة الموت. وقد ألهم إيمان الشهداء وشجاعتهم، الكثير من أتباع المسيح. "عزيز في عيني الرب موت أتقيائه" (مزمور ١١٦:١٥).

*بوليكاربوس
شهد للمسيح في حلبة المصارعة.

*بلانديا
شهيدة ليون.

*قسطنطين
مدافع عن الكنيسة.

*أثناسيوس
ضد العالم.

*أمبروس
أسقف ميلان.

*مونيكا وأُغسطينوس
أم مسيحية وابنها.

*باتريك
مبشر أيرلندا.

بوليكاربوس

شهد للمسيح في حلبة المصارعة

بوليكاربوس ٦٩ م – ١٥٥ م

قال يسوع: "أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها". وقد بناها بقوة ومجد، فيسوع صعد من القبر مظهرًا نفسه حيًّا، وأرسل الروح القدس على شكل ألسنة من النار، فتحوَّل تلاميذه الجبناء والمضطربين، إلى جنود بواسل للصليب، فشفوا المرضى وأقاموا الموتى ونادوا بالإنجيل بجسارة، فانضم الآلاف إلى ملكوت الله، ولم يحدث شيء مشابه لهذا من قبل.

وبالرغم من جَلْد القادة اليهود للتلاميذ، وتحذيرهم بعدم التحدث عن يسوع مرة أخرى، إلا أن التلاميذ أجابوهم قائلين: "إن كان حقا أمام الله أن نسمع لكم أكثر من الله فاحكموا، لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا".

وقد أعلن الأباطرة الرومان أن اتِّباع المسيح جريمة عقوبتها الموت، وذلك خوفا من ازدياد عدد المسيحيين، وكرههم لهم لامتناعهم عن السجود للأصنام. وبدأوا في إلقاء اللوم على المسيحيين في كل كارثة واجهتهم. وقد تنهد أحد المسيحيين قائلاً: "إذا فاض النهر أو حدث جفاف أو مجاعة أو انتشر وباء، يصرخ عبدة الأصنام قائلين: "ألقوا بالمسيحيين إلى الأسود".

وقد قتل الرومان الكثير من الرسل، فقطعوا رأس بولس وصلبوا بطرس وأحرقوا آخرين، وقطعوا رؤوسهم بالسيف، وألقوهم للوحوش. وقد مات هؤلاء القديسون، بينما كانت كلمات المسيح ترن في آذانهم: "إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم".

وقد نمت الكنيسة بشكل أقوى في مواجهة الاضطهاد، وامتدت إلى أقاصي روما، بل إلى أبعد من ذلك. وظهر جيل جديد من المسيحيين ليأخذوا مكان الرسل والتلاميذ، من أوائل هؤلاء كان بوليكاربوس، وإليكم جزءًا من قصته.

كان أسد يدور حول ذلك الشاب، الذي كان يقف في وسط حلبة المصارعة، بأقدامه المغروسة في الرمال، ورأسه المتأهبة للانقضاض عليه. وظل الجمهور

يشـاهد في صـمت، بينما كان الحاكم ينظر بغضـب إلى الشـاب من مقصـورة الإمبراطور في المدرج. وكان الحكام يطلقون على المسـيحيين لقب كفرة، وذلك لرفضهم السجود لآلهة الرومان، وتقديم البخور للأباطرة. وفي سميرنا، أمر الحاكم بإعدام أي مسيحي يرفض إنكار الإيمان. وهكذا وقف هذا الشاب في ثبات يدور حوله الأسد.

وصـاح الحاكم: "هلم الآن، أنت شـاب وتنتظرك الحياة بأكملها. لم يفت الأوان بعد، فلقد حلف بعض أصدقائك الآن بالقسم لقيصر. سأخرجك من أمام الأسود إذا أطعت". فهز الشاب رأسه رافضًا، ووقف ثابتًا بينما كان الأسدُ يقترب إليه. وقف الأسـد ثم انقض عليه، وفي لحظة اشـتبكا وأخذ الأسـد في تمزيق الشاب، وأغلق الأسد فكه الرهيب وترنح الشاب، وهتف الجمهور وصرخ بعضهم: "الموت للكفرة".

وقام أحد القادة الرومان مناديا: "لم يكن هذا الشـاب سـوى تابع"، وصـاح آخر: "نريد بوليكاربوس، قائدهم. الموت للكفرة!، الموت لبوليكاربوس!" وأطلق الحاكم مرسـومًا، فخرجت مجموعة من الجنود لإلقاء القبض على بوليكاربوس أسقف سميرنا.

كان بوليكاربوس قد تلقى التعاليم في شبابه، على يد يوحنا الرسول، وقد قاد الكثيرين للإيمان بيسـوع المسـيح. وعندما وجد الجنود بوليكاربوس، دفعوه إلى الحلبة وجرُّوه حتى وقف أمام الحاكم الروماني للإقليم، وثار الشـعب عند رؤية بوليكاربوس، وهتفوا: "الموت للكفرة! الموت لبوليكاربوس!"

وقف الحاكم في ثوبه الأرجواني المطرز في مقصـورة الإمبراطور، ونظر إلى بوليكاربوس في ثوبه المغبر بغضب، وأشاح بيده وهدأ الجموع.

وسأل: "هل أنت بوليكاربوس معلم المسيحيين؟"

فأجاب بوليكاربوس: "نعم". فقال الحاكم: "إرحم شـيخوختك واحلف لقيصـر وانقذ نفسـك، وأشـر إلى السـجناء المسـيحيين هناك وقل: "أَبعِدوا الكفرة". فأدار بوليكاربوس وجهه بعيدًا عن السجناء وأشار إلى عبدة الأصنام ورفع صوته إلى

السماء وقال: "أَبعِدوا الكفرة". فغضب الشعب وصروا على أسنانهم عند سماعهم لهذه الإهانة وصـــرخوا: "كيف يجرؤ على نعتنا بالكفرة؟" وحاول الحاكم إغراء بوليكاربوس مرة أخرى قائلا: "احلف القســم لقيصــر، وســأطلق ســراحك. أنكر المسيح!" فانتصب الأسقف واقفًا وأجاب بصوت واضح: "لقد كنت خادمًا له لستٍ وثمانين عامًا ولم يسـئ إليَّ، فكيف أجدف على ملكي الذي خلصـني؟" فصـاح الحاكم: "احلف بقيصـر!" فأجابه: "إن محاولاتك لجعلي أحلف بقيصـر سـتذهب سـدًى. اسـتمع إليَّ جيدًا: أنا مسـيحي". فقال الحاكم: "لديَّ هنا وحوش مفترسـة وســألقي بك إليهم إذا لم تغير رأيك". فأجاب بوليكاربوس: "أحضـــرهم". فأجاب الحاكم: "إذا لم تكن خائفًا من الوحوش، ســأحرقك حيًّا". فقال بوليكاربوس: "أنت تهددني بالنار التي تحرق لوقت قليل، ولكنك تجهل نار العقاب الأبدي المُعَدة لغير المسيحيين. لماذا تنتظر؟ هلم افعل بي ما تشاء".

فصـاح أحدهم: "هذا هو معلم آسيا، أبو المسيحيين، الذي يعلِّم الكثيرين ألا يعبدوا آلهتنا، أحرقوه!" فقيدوه إلى ســارية، وأحاطوه بقش ومادة ملتهبة منقوعة في الزيت وأخشـاب. وصـلى بوليكاربوس بصـوت مرتفع: "ربّي وإلهي كلي القدرة، أبو ابنك المحبوب يســوع المســيح، والذي عرفناك من خلاله. أباركك لأنك منحتني شرف هذا اليوم وهذه الساعة، التي سأُعَدُّ فيها ضمن شهدائك، أنت الإله الأمين والحقيقي، لك المجد الآن وإلى دهر الدهور. آمين".

وأضـــرموا النيران في مشـــعل طويل، وأخذت ألســـنة اللهب في الإرتفاع. وشجعت جسارة بوليكاربوس في مواجهة الموت، المسيحيين المضطهَدين في كل أنحاء الإمبراطورية، ليثبُتوا في إيمانهم بالمسيح.

...

بلاندينا

شهيدة ليون

بلاندينا ١٥٥ م – ١٧٧ م

لهثت الأمَةُ الشابة بلاندينا للحصول على بعض الهواء، بينما كانت ملقاة على الأرض الحجرية الرطبة. وقد شُنِقَ الكثير من السجناء المسيحيين في تلك الليلة، وأغلقت بلاندينا عينيها، حتى لا ترى الوجوه الشاحبة الميّتة. وفجأة فُتح باب الزنزانة مُصدرًا صريرًا مزعجًا، وصرخ أحد الجنود الرومان قائلا: "إنهضوا أيها الكفرة! وتعالوا معي".

ثم أُخرجت بلاندينا مع بعض السجناء الآخرين من زنزاناتهم إلى الحلبة. وبينما كان الرجال والنساء والأطفال المسيحيون، يحاولون حماية أعينهم من أشعة الشمس الساطعة، تم جمعهم معًا في وسط الحلبة، ولعنهم المشاهدون. ومن على منبر مرتفع عنهم، وقف حاكم الغال بإكليل من الزهور يتوّج رأسه وقال لهم: "أنصتوا لي أيها الكفرة. لقد أهنتم آلهتنا وجلبتم غضبهم علينا، ولكن إذا حلفتم بقيصر سأطلق سراحكم". فخيَّم الصمت على الحلبة، وارتعشت بلاندينا واعتصرت أيدي اثنتين من صديقاتها وصلَّت حتى يمنحها الله القوة. ثم خرج القليل من المسيحيين خارج الحشد، وبوجه عابس حلفوا القسم لقيصر، وسمح لهم الإمبراطور بترك الحلبة، ولكن الأغلبية وقفوا ثابتين. فقال الحاكم: "إذًا فأنتم تختارون الوحوش والنار وقطع رؤوسكم بالسيوف". وعندئذ جذبَ الجنود العديد من المسيحيين من وسط الجماعة، وضربوهم بالسياط وجرَّحوهم بالسيوف، وهتف الشعب تعبيرًا عن الموافقة.

ثم خرج من بين السجناء شاب اسمه فيتيوس، وتوجَّه إلى منصة الحاكم قائلاً: "فخامة الحاكم، إني بكل اتضاعٍ أطلب منك السماح حتى أتحدث دفاعًا عن المسيحيين، فبإمكاني أن أثبت لكَ أنه لا يوجد بنا شيء كافرٌ أو شرير". فصرخ به عبدة الأصنام متجاهلين طلبه، وسأله الحاكم بازدراء: "هل أنت مسيحي؟" فأجاب بصوت مرتفع وهو منتصب أمام الحاكم: "نعم".

وأشـار الحاكم بيده إلى الجنود، الذين سـحبوا سـيوفهم وأطاحوا برأس فيتيوس، ثم دعا الحاكم شماسًا بالكنيسة اسمه سانتكوس، من بين الحشد الموجودين بالحلبة وسأله: "ما اسمك؟" فأجابه سانتكوس: "أنا مسيحي". فسأله: "أين وُلِدت؟" فأجابه: "أنا مسـيحي". فسـأله: "هل أنت عبد أم حر؟" فأجابه: "أنا مسـيحي"، فبدأ الجنود في جلده وضربه ولكن ظلت إجابته على كل الأسئلة: "أنا مسيحي"؛ فأمر الحاكم الغاضـب بسـحق جسمه بين صـفائح نحاسية ساخنة، ومات سـانتكوس ثابتًا في إيمانه.

ورجعت بلانديـنا وبعض السـجناء الآخرين إلى السـجن، وظل السـجانون يعذبون بلانديـنا الواهنة، من الصـباح إلى المسـاء، فطعنوا جسـدها بالسـكاكين، وسـحقوا أطرافها فوق المخلعة، وسـخروا منها قائلين: "العني المسـيح وقولي عن كل الأعمال الشـريرة التي يقوم بها الكفرة". فأجابتهم بلانديـنا: "أنا مسـيحية ونحن لا نفعل شيئًا نخجل منه".

وفي نهاية اليوم لم يكن الجنود مصـدقين أنها لا زالت تتنفس، فجسـدها كله كان قد تهشـم. وتسـاءل السـجانون فيما بينهم: "من هم هؤلاء المسـيحيون، فهم يرحبون بالموت، بل ويبتهجون به؟" وفي اليوم التالي أحضـر الجنود بلانديـنا مرة أخرى مع بعض السـجناء المسـيحيين إلى الحلبة، وعلقوها على عمود خشـبي، حتى تكون وجبة للحيوانات المفترسة. فرفعت بلانديـنا عينيها إلى السماء وصلَّت بصوت مرتفع: "أيها الآب، اسندنا في معاناتنا من أجل مجد المسيح".

لقد شجع إيمانها الآخرين، ومات المؤمنون الواحد تلو الآخر ممزَّقين بأنياب الوحوش، ولكن لدهشة الحشد لم تمس الوحوش بلانديـنا، فجرَّها الحراس مرة أخرى إلى السجن. وبعد بضـعة أيام أعادوها مرة أخرى إلى الحلبة، مع صـبي مسـيحي يبلغ من العمر خمسـة عشـر عامًا يدعى بونتيكاس. وشـجعته بلانديـنا قائلة: "تشـجع أيها العزيز بونتيكاس". وضـربوهما مرة أخرى بالسـياط، وهاجمتهما الوحوش وسـرعان ما لقي بونتيكاس مصـرعه. أما بلانديـنا، فنجت من الموت بجسـدها الدامي والمهشـم، وكان وجهها مشـرقًا بسـلام المسـيح. وقال أحد شـهود

العيان: "بدت كما لو كانت مدعوة إلى حفل زفاف، وليس إلى الإلقاء إلى الوحوش".

بعد ذلك لفها مضطهدوها، المُحبَطون والغاضبون، في شبكة وألقوا بها إلى ثور أخذ يقذف بها في الحلبة. وأخيرًا نزل أحد الجنود وقطع رأسها. وشهد الوثنيون أنهم لم يروا قبلاً امرأة عانت كل هذا، ولفترة طويلة كهذه. وأُلقي جسد بلاندينا، وبعض المسيحيين الآخرين في شوارع ليون، ووقف الحراس حتى يمنعوا أصدقاءهم من دفنهم بشكل لائق.

وسُئل الحراس: "لما لا تسمحوا لهم بدفن موتاهم؟" فأجابوهم: "حتى لا يأملوا في القيامة، فهذا هو الأمل الذي يعطيهم الشجاعة". وبعد ستة أيام، أُحرقت تلك الأجساد، وأُلقيت في نهر الرون. وقال الحراس: "والآن، لنرى إذا كان باستطاعتهم القيام مرة أخرى".

ونجا بعض المسيحيين من الاضطهاد في ليون، وكتبوا رواية عن الشهداء المؤمنين، وأرسلوها إلى جميع الكنائس في الإمبراطورية الرومانية، مشجعين إخوتهم في الإيمان على الثبات في الإيمان.

...

قسطنطين

مدافع عن الكنيسة

قسطنطين العظيم ٢٧٢ م – ٣٣٧ م

لقد أمر الإمبراطور دقلديانوس، وتحديدًا في عام ٢٩٩ م، بالاضطهاد العظيم، الذي حطَّم فترة طويلة من السلام، عاشتها كنيسة المسيح. ولاعتقاده بأن المسيحيين قد جلبوا غضب الآلهة عليهم، سعى دقلديانوس إلى محو المسيحية مرة وإلى الأبد؛ فأمر كل من يعيش في الإمبراطورية، أن يقدم الذبائح للآلهة الوثنية وإلا سيخسر ممتلكاته، ويوضع بالسجن أو يُساق إلى الموت. ودمر رجال الإمبراطور كل الكنائس، وصادروا كل الكتب المقدسة وأحرقوها في وسط الميادين العامة، وسجنوا القادة المسيحيين وجلدوهم، ومطُّوا أجسادهم بالمخلعة، وعذبوهم بكل أشكال العذاب، وقطعوا رؤوس الكثيرين بالسيوف وأغرقوا آخرين في البحر، وافترست الحيوانات المتوحشة بعضًا آخر، وأُلقي آخرون في النيران.

وعندما ترك دقلديانوس العرش عام ٣٠٥ م، هدأ الاضطهاد ولكنه لم ينتهِ. وظل الرجال البارزون في الدولة، يحاربون لسنوات من أجل الحصول على السلطة، وانتهى الأمر في الغرب إلى قائدَيْن، يدعى الأول ماكسنتيوس والثاني قسطنطين. أما ماكسنتيوس، فهو رجل وثني ذو لحية سوداء، لا يثق في المسيحيين، وهو الذي حكم روما وإيطاليا. أما قسطنطين، وهو رجل طويل عريض الكتفين، مؤيّد للمسيحية. وعبر قسطنطين جبال الألب مع جيشه عام ٣١٢ م، وبدأ حملة غزو. ولأنه منع رجاله من نهب المدن التي وقعت في أسره، حصل على تأييد الإيطاليين.

وفي أحد الأيام، وبينما كان الجيش يتجه جنوبًا في المساء أثناء الغروب، رأى قسطنطين صليبًا من نور في السماء، وتحته عبارة "بهذا تنتصر". واعتقد قسطنطين أنه رأى علامة من الله، وظل قسطنطين إلى نهاية اليوم يفكر في معنى هذه العلامة، وذهب إلى فراشه مرتبكًا. وبينما كان نائمًا، ظهر له يسوع

في حلم ومعه نفس الصليب الذي كان قد رآه في السماء، وأمره يسوع بصناعة نموذج له واستخدامه كرمز حماية في الحرب.

واستيقظ قسطنطين فجرًا وأخبر رجاله بالحلم، وجمع صائغي الذهب ووصف لهم العلامة، وأعطاهم التعليمات حتى يصنعوها من الذهب والجواهر. فقام الصناع بتغطية رمح طويل بالذهب، ورمح آخر قرب قمة الرمح الأول ليشكل صليبًا. وثبتوا من فوق إكليلاً من الذهب المرصع بالجواهر الثمينة. وداخل الإكليل وضعوا علامة "تشي رهو ☧ " وهي مونوجرام مكوَّن من أول حرفين من اسم المسيح باليونانية. وأصبحت هذه العلامة الراية العسكرية، التي تتقدم قوات قسطنطين في معاركها.

وعندما عرض قسطنطين الراية على جيشه ووصف لهم حلمه، ابتهج الجنود، واستمدوا ثقتهم من الثقة التي غمرت قلب قائدهم، وآمنوا بأنهم لن يُهزموا. وأمر رجاله برسم الصلبان على دروعهم وخرجوا لمحاربة العدو.

وعندما سمع ماكسنتيوس بتقدم قسطنطين وقواته، ذهب لأخذ مشورة كهنة الأوثان، لمعرفة ما إذا كانت الآلهة تؤيدهم، وقاموا بذبح الماعز، واستخدموا أحشاءها ليروا الفأل. وتنبأ لهم كتاب عِرافة، أنه في يوم المعركة "سيهلك عدو الرومان". واستنادًا إلى هذه العلامات الحسنة، اتخذ ماكسنتيوس موقعًا له ولجيشه، يبعد تسعة أميال عن روما. كان الموقع على أرض مستوية ومنخفضة على نهر التيبر. وحتى يحول دون دخول قسطنطين إلى روما، دمَّر ماكسنتيوس جسر ميلفيان، وهو جسر حجري قديم، مصنوع على شكل عدة أقواس، وبنى بدلاً منه جسرًا من القوارب الخشبية، المتصلة ببعضها بسلاسل حديدية يسهل كسرها إذا حاول العدو عبور النهر.

وارتدى ماكسنتيوس درعا منقوشا مزخرفا، ونظم جيشه بحيث وضع الفرسان على كلى الجانبين، وحشد المشاة في وسط الساحة. أما قسطنطين، ذو الشعر الطويل الغامق الذي كان يتطاير على كتفيه، فتقدم فرسانه وهاجم فرسان الجيش المضاد دون تردد، ودفعهم بقوة فتراجعوا مُشتَّتين. وحارب قسطنطين وجنوده

بضـــراوة ودفعوا جيش ماكســـنتيوس إلى ضـــفة النهر. فما كان من ماكســـنتيوس وجنوده الهاربين، إلا أن اندفعوا عبر الجســـر المصـــنوع من القوارب، الذي انهار تحت ثقلهم، وغرق الكثيرون، حيث أنهم لم يســـتطيعوا أن يطفوا على الســـطح بمعداتهم الثقيلة. وجذب درع ماكسنتيوس الفاخر صاحبه إلى القاع مثل الصخرة. عندئذ فتح شـــعب روما أبواب المدينة لقســـطنطين، ورحبوا بمنقذهم، وهتفوا له وتوّجوه إمبراطورًا على روما.

وخالف قســـطنطين عادات روما، عندما رفض أن يقدم الذبائح لجوبيتر. وكان أحد أول أعماله، أنه حرر المسيحيين من الاضطهاد الروماني. وصرح في مرسوم أطلق عليه فيما بعد مرسوم ميلانو، بالقول: "نحن نمنح الحرية للمسيحيين بل للجميع حتى يتبعوا أية ديانة يريدونها، ونعلن أنه قد تم إلغاء كل القرارات السابقة، التي كانت قد صدرت ضد المسيحيين، وإذا أراد أحد أن يكون مسيحيًا فلا يتردد، بل ليفعل ذلك دون قلق ودون تدخل". ودعا المرســـوم إلى عودة كل الممتلكات التي صودرت من المسيحيين أثناء الاضطهاد العظيم، وإلى إعادة بناء كل الكنائس التي كانت قد دُمّرت، وذلك على نفقة الدولة. وأقر قســـطنطين بالحقوق القانونية للمسيحيين، بما في ذلك الحق في حوذة الممتلكات.

بعد ذلك أصـــدر قســـطنطين تصـــريحا يفيد بأن يوم الأحد عطلة رســـمية، وأصبح من الممكن للمسيحيين أن يتعبدوا في يوم الرب، وأعفى ممتلكات الكنائس والأجور من الضرائب. وسعيًا وراء إضافة صبغة روحية على الإمبراطورية، عيَّن المســـيحيين في مناصـــب عليا، وتنفس المســـيحيون رياح الحرية في كل أنحاء الإمبراطورية، فلأول مرة يعتلي العرش إمبراطور يكون صديقًا للمسيحيين ومدافعًا عنهم.

وفي أحد تصريحاته قال قسطنطين: "إني أسعى حتى أجذب انتباه البشرية، لطاعة القوانين الإلهية المقدســـة، ويزدهر إيماننا المقدس في ظل قيادة يده القديرة". وتبرع قسطنطين للكنيسة بأراضٍ كثيرة وأموال طائلة، وبدأ برنامجًا هائلاً لبناء الكنائس. وحتى يمجد الله ويجذب عبدة الأوثان لعبادة الإله الحق، بنى

كنائس مزخرفة بأعمدة رخامية ضـــخمة، ونوافذ بزجاج ملون، وحوائط مطلية بجميع ألوان قوس قزح. وأُسدل النجف المصنوع من الذهب والفضة من الأسقف المنقوشــة، وزُيّنت الأرض بفسـيفســاء ملونة. وكثيرا ما كان يسـدي قسـطنطين النصــائح للمعماريين والمهندسـين والمصــممين، الذين كانوا يشـتكون في بعض الأوقات من قلة عددهم في الإمبراطورية لسد احتياجات مشروعاته البنائية.

وعندما مُدح قســـطنطين لما أنجزه قال: "الفضـــل يرجع لله في كل ما قد حققته، فالله يعمل الأفضل والإنسان ينفذ ما يأمره به الإله". لقد عاش قسطنطين حياة ملكية عظيمة، وكان يرتدي ثيابًا أرجوانية مطرزة بالذهب والجواهر الثمينة. وأراد أن يتمتع الأســاقفة المســيحيون بهذا البهاء أيضًــا، فأعطاهم ثيابًا مطرزة بالجواهر ومنازل فخمة.

وفوق كل ما عمله قسطنطين، كان سعيه لإعلاء راية السلام والوحدة في الكنيسـة؛ فعندما نشـب النزاع في الإسـكندرية، ضـد تعاليم أريوس الذي قال: "إن المســيح مخلوق من الآب وأنه أقل من الآب"، دعا قســطنطين مجمعا كنســيًّا للاجتماع ليبتُّوا في هذا الأمر، ويوضـحوا تعاليم الكنيسـة. قبل هذا الوقت ببضـع ســنوات، عُقد اجتماعان كنســيَّان منفصــلان، وتوصــلا إلى نتائج مختلفة فيما يختص بتعاليم أريوس، فاجتمع ثلاث مائة أسقف وبضـع مئات آخرين من رجال الكنيسة، لحضور مجمع نيقية على البحر الأسود، وتحمَّل قسطنطين نفقات إقامة هذا المجمع.

في أول اجتماع عام للمجمع، وقف كل رجال الكنيســـة، عندما حضـــر قسطنطين في ثوبه المرصـع بالذهب والأحجار الكريمة وتاج من اللآلىء. فأشار بيده مبتسمًا وقال لهم: "أصـدقائي الأحباء، لقد كان من آمالي العزيزة أن أستمتع في يوم من الأيام برؤية هذا المجمع، فأشـــكر الله حاكم الكل، الذي قد منحني أعظم البركات، بأن أراكم مجتمعين معًا متحدين في أذهانكم".

وظل الرجال يتناقشـون لمدة شـهرين، حول مكانة يسـوع في الثالوث، وحول تعاليم أخرى هامة. وعادة ما كان ينضـم قسـطنطين لهذه الجلسـات ليشـترك في

النقاش. وقرر المجمع في نهايته، أن تعاليم الكتاب المقدس تقول: "إن يسوع ليس بأقل من الآب ولكنه مساوٍ للآب وللروح القدس في القوة والمجد". وكتبوا قانونًا ليلخِّص أساس المسيحية. وساند قسطنطين هذا القانون بحماس، مؤمنًا بحقيقة ذلك في الكتاب المقدس، مكرمًا للمسيح ومدعِّمًا لوحدة الكنيسة.

مع ذلك لم يكن تأثير قسطنطين على الكنيسة إيجابيا في جميع الأحوال، فلقد اتخذ سلطة تعيين الأساقفة وعزلهم من الخدمة، وعزل كل من يخالف تعليماته، بمن فيهم أثناسيوس، أعظم مدافع عن الإيمان.

وكان قسطنطين يدعو لمجالس كنسية بحسب سلطته الخاصة. وأدت يده القوية في إدارة شئون الكنيسة، إلى أن يستشيره الكثير من المسيحيين بدلاً من قادة الكنائس. وأفسدت الثروة، التي منحها للكنيسة، الكثير من خدام الكنيسة الذين أحبوا المال أكثر من المسيح. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى كانت المناصب الكنسيَّة تُباع وتُشترى لمن له القوة والثروة.

ومع تدهور حالته الصحية عام ٣٣٧ م، في عمر يناهز الخامسة والستين، طلب قسطنطين أن يعتمد، فخلع زيه الإمبراطوري واعترف بإيمانه بالمسيح، عندما أجاب على أسئلة المعمودية: "هل تؤمن بالآب القدير ويسوع المسيح ابن الله، الذي وُلد بالروح القدس من العذراء مريم، والذي صُلب على عهد بيلاطس البنطي، ومات وقام من الأموات في اليوم الثالث، وصعد إلى السموات وجلس عن يمين الآب وسيأتي ليدين الأحياء والأموات؟" وبعد أن عمده الكاهن بالماء، ارتدى ثوبًا أبيض، وسافر إلى منزل فخم في مدينته، ووافته المنيَّة بعد عدة أيام.

لقد أثّر اعتناق قسطنطين المسيحية على الكنيسة بشكل كبير، فالحماية التي منحها إياها، والثراء الذي أسرفه عليها ببذخ، جلب العديد من التغيرات غير المتوقعة على الحياة والعبادة المسيحية. غير أن أصالة إيمان قسطنطين ظل موضع تساؤل البعض لعدة قرون؛ فقال البعض إنه استغل المسيحية ليدعم حكمه في الإمبراطورية، وحاولوا إثبات كلامهم بالإشارة إلى بضعة حِيَل كان قسطنطين قد استخدمها، وبعض الأعمال القاسية التي قام بها. ويقول البعض الآخر إن

قسـطنطين قد وضـع ثقته في السـيد المسـيح لغفران خطاياه، رغم كل الضـعفات التي ارتكبها. أما الحقيقة، فلن نعرفها في هذه الحياة، ولعل قسطنطين نفسه قالها بشكل أفضل: "أنا أنتظر حكم المسيح".

...

أثناسيوس

ضد العالم

أثناسيوس ٢٩٦ م – ٣٧٣ م

في أحد الأيام المشـــمســـة عام ٣٠٦ م، كانت هناك مجموعة من الأولاد يلعبون لعبة الكنيســـة ويمثلون المعمودية على شـــاطىء البحر. وكان أحدهم، ويدعى أثناســيوس، يمثل دور القســيس، وتلى على ولد آخر مراســم المعمودية قائلاً: "أنا أعمدك باســـم الآب والابن والروح القدس". ولم يعرف هؤلاء الأولاد أن الإسكندر أسقف الإسكندرية الطيِّب يشاهدهم. وفوجئ الإسكندر بمدى دقته في أداء هذه المراسم، فناداه ليطرح عليه بعض الأسئلة عن إيمانه، فأعطاه أثناسيوس إجابات عميقة أثرت فيه كثيرًا.

وبتشـجيع من الإسكندر وافق والدا أثناسـيوس على رعاية الأسـقف له، ليبدأ في دورة دقيقة لدراسة الكتاب المقدس، وكتابات آباء الكنيسة الأولى وكلاسيكيات الأدب الروماني واليوناني. وهكذا أصـبح أثناسـيوس الطالب المجتهد، الذي يمتلئ قلبه بمحبة الرب، المساعد الرئيسي للإسكندر، أسقف الإسكندرية.

في هذا الوقت شـــهدت الكنيســـة تغيرات عميقة، وذلك باعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية، وتصريحه بقانونية عبادة المسيحيين، وإعلانه أن يوم الأحد عطلة أُسبوعية، ومنحه للكنيسة الكثير من الهدايا والأراضي والأموال.

وبالرغم من تحرر الكنيسـة من الاضـطهاد، فإنها واجهت مخاطر جمة من الداخل، حيث بدأ المعلمون الكذبة في مهاجمة رسالة الكتاب المقدس، فيما يتعلق بـالله الآب ويســـوع المســـيح والروح القدس. بـدأت إحدى هذه الهجمـات في الإسكندرية، فبينما كان الأسـقف الإسكندر، يحاضـر بعض رجال الكنيسـة حول الثالوث المقدس، وقف قس يدعى أريوس لمقاطعة الأســـقف قائلاً لـه: "أنت مخطئ، فالآب والابن والروح القدس ليسـوا متسـاوين في المجد، فيسـوع المسـيح ليس إلها مثل الآب". فصُـعِق الجميع عند سـماعهم هذا التعليق، وخيَّم الصـمت على الغرفة، والتفتت أعين الجميع إلى الأسقف انتظارا لإجابته.

ففزع الأســـقف عند انفجار أريوس بهذه الكلمات ونظر في عينيه وقال له: "يا أخي إن الكتاب المقدس يعلّمنا بوضوح أن يسوع المسيح هو الله".

فصـــــاح أريوس قائلاً: "لا، إن الابن مخلوق من الآب، إذًا فهو أقل منه، فهناك زمان لم يكن فيه للابن وجود".

فدعا الأسـقف لانعقاد اجتماع يضـم قادة الكنيسـة لفحص تعاليم أريوس، وأدانوا هذه التعاليم ومنعوه من تعليمها للآخرين. ولكن أريوس رفض أن يطيعهم وسـافر هنا وهناك، ليعظ ويكتب وينشـر تعاليمه في جميع كنائس الإمبراطورية. ولم يمضِ وقت طويل حتى قَبِل معظم المسـيحيين قول أريوس بأن: "هناك زمان لم يكن فيه للابن وجود".

وانقسمت كنيسة المسيح بسبب هذه البدعة. أما أثناسيوس فكان يعمل مع الأســـقف في هذا الوقت، وينمو ليصـــبح رئيس المتحدثين الرســـميين عن حق المسيح. وتفجرت في بعض الأماكن النزاعات والمشادات، وأثيرالشغب وتشاجر المســيحيون حول ما إذا كان يســوع هو الله أم لا. فدعا الإمبراطور قســطنطين لانعقاد اجتماع يضم قادة الكنيسة حتى يحل السلام بها؛ فاجتمع أكثر من ثلاث مائة أســـقف وكاهن من جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، لحضـــور مجمع نيقية.

وأقام الملك قسطنطين مأدبة ترحيب فاخرة، محيّيًا رجال الكنيسة الذين كانوا يرتدون الأثواب الأرجوانية المرصـعة بالذهب والجواهر الثمينة. كانت هذه المأدبة اختبارًا غريبًا على الكثيرين من المســـيحيين، لأنها المرة الأولى التي يقفون فيها أمام الإمبراطور، ليكرَّموا بدلا من أن يدانوا. ليس ذلك فقط، فقد عانق الملك قسـطنطين رجال الكنيســة الذين فقدوا أطرافًا أو عانوا من عذابات أخرى بسـبب إيمانهم بيسوع المسيح، وقبَّل تجويف عين أحدهم كانت قد اقتلعت منه.

لقد افتتح قســـطنطين المجمع قائلاً: "يســـعدني رؤيتكم هنا، ولكن ما يزيد فرحتي، رؤيتي الوحدة بينكم والمحبة سـائدة عليكم؛ لذلك أطلب منكم يا رجال الله الأحباء، أن تتخلوا عن كل أسباب النزاع بينكم وأن تسعوا لتحقيق السلام". ومرت

عدة أسابيع مليئة بالانفعالات، والمناقشات الحادة أحيانًا، وفي النهاية اتفق رجال المجمع مع الإسكندر وأثناسيوس، وكتبوا قانون الإيمان النيقوي والذي شرح ما يجب أن يؤمن به المسيحيون عن الله. غير أن أريوس وأتباعه رفضوا التوقيع على هذا القانون، فطُرِدوا من الكنيسة، ولكنهم لم يرحلوا بهدوء بل عاد كل منهم إلى موطنه واستمروا في نشر تعاليمهم الكاذبة، متحدِّين بذلك قرار المجمع.

ومر وقت تطلع بعده أريوس وبعض من أتباعه إلى العودة لمناصبهم القيادية في الكنيسة، فسعوا للحصول على دعم الإمبراطور قسطنطين واعترفوا له بأنهم كانوا على خطأ، مع أنهم في الحقيقة لم يغيِّروا معتقداتهم؛ فوافق قسطنطين على إعادتهم دون أن يستشير الأساقفة، وكتب خطاب تهديد لأثناسيوس، الذي أصبح الأسقف بعد وفاة الإسكندر، يأمره بأن يعيد أريوس وأتباعه إلى الكنيسة قائلا: "أنت تعلم أنني أرغب دون شروط، قبول كل من يرغب في الانضمام إلى الكنيسة، فإذا سمعتُ أنك منعت أحدًا، سأرسل فورًا من يقيلك من منصبك ويرسلك إلى المنفى".

وعندما رفض أثناسيوس أن يرضخ لتهديده، أمره قسطنطين بمواجهة بعض التهم الغريبة، التي لفقها له الأريوسيون؛ فاتهموه بتحطيم بعض الأثاث المقدس، وبقطع يد أحد الأريوسيين، وبتعذيب آخرين، وبأنه حاول أن يعرِّض الرجال الذين كانوا قد أتوا من القسطنطينية للجوع. فجرَّد قسطنطين أثناسيوس من منصبه ونفاه. وبعد سنتين مات الإمبراطور وعاد أثناسيوس إلى منصبه أسقفًا للإسكندرية.

في هذه الأثناء ربح الأريوسيون الآلاف إلى جانبهم، بمن فيهم الإمبراطور الجديد قسطنطيوس ابن قسطنطين، وأقنعه الأريوسيون بنفي أثناسيوس مرة أخرى مع بعض قادة الكنيسة الآخرين، الذين تمسكوا بقانون الإيمان النيقوي. ولم يقبل شعب الإسكندرية بأسقف من الأريوسيين ليحل محل أثناسيوس، إلى أن أجبرهم الجنود الرومانيون على ذلك.

وتحمل أثناسيوس النفي من كنيسته خمس مرات، خلال سنوات كفاحه ضد الأريوســـيين. وفي إحدى تلك المرات عَلِم أنه قد دُفعت بعض النقود لاثنين من القتلة حتى يقتلوه، فاختبأ أثناسيوس لعدة سنوات في الصحراء مع بعض الرهبان. ونجا مرة أخرى من الموت عندما اختبأ في قبر أبيه لمدة أربعة أشهر. وفي إحدى المرات، عندما عَلِم بخبر عزله مرة أخرى، تمســك به أعضـــاء كنيســته وبكوا، فعزاهم أثناسيوس قائلاً: "ابتهجوا، فهذه ليست سوى سحابة وستمر سريعًا".

وبرغم أن المســـتقبل بدا أكثر ظلامًا، حيث ربح الأريوســـيون المزيد من النفوس إلى جانبهم، وبالرغم من أنه بدا كما لو كانت كل الكنيسة ستقبل تعاليمهم الخاطئة، إلا أن أثناســيوس لم يفقد الأمل وظل يعظ ويكتب أن يســوع إله كامل وإنسان كامل. وعُرف فيما بعد بـــ "أثناسيوس ضد العالم". فلو تحوَّل العالم كله عن الحق الكتابي سيتمسك به أثناسيوس إلى النهاية.

ورحل أثناســيوس عن عالمنا عن عمر يناهز الخامســة والســبعين. وبعد رحيله بفترة وجيزة، انهزم الأريوســيون أخيرًا. واليوم يؤمن المســيحيون في جميع أنحاء العالم بتعاليم الكتاب المقدس التي تنص على ألوهية المسيح. والشكر يعود لله الذي أقام شخصًا مثل أثناسيوس ليحفظ الإيمان.

نؤمن بإله واحد الآب ضابط الكل خالق السماء والأرض ما يُرى وما لا يُرى. نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد. المولود من الآب قبل كل الدهور نور من نور. إله حق من إله حق مولود غير مخلوق مساوٍ للآب في الجوهر...
(قانون الإيمان النيقوي).

...

أمبروس

أسقف ميلان

أمبروس ٣٣٩ م – ٣٩٧ م

تفشـــت فتنة عظيمة عام ٣٧٤ م، في كاتدرائية ميلان، وامتلأت الكاتدرائية بالرجال والنساء والأطفال، وتشابك الرجال الغاضبون بالأيدي مع جيرانهم، ورن صـــدى الصـــيحات في كافة الأنحاء، وانقســـم الناس حول من يجب أن يكون الأســـقف. وكان من بين المتصـــارعين جماعة من الأريوســـيين–هؤلاء الذين لم يعترفوا بألوهية يسوع المسيح–يريدون تنصيب أسقف أريوسي، وكان الآخرون يريدون أسقفًا متمسكًا بحقيقة الثالوث المقدس. وتحوَّلت الصراعات إلى تهديدات ودفعات واشتباكات، وبدا من المستحيل أن يتفق الجانبان على من يكون الأسقف الجديد.

وخوفا من اندلاع شـــغب في ذلك الوقت، وقف أمبروس الحاكم الروماني للمدينة ليتحدث، وســـرعان ما هدأ الناس احترامًا له؛ فبرغم انحدار أمبروس من إحدى الأسـر الأكثر ثراءً وقوة في الإمبراطورية الرومانية، إلا إنه لم يتسـيَّد على الشـــعب، فقد تميز حكمه بالعدل واللطف، حتى أنهم كانوا يعتبرونه أبا وليس حاكما وقاضيا.

فطلب منهم أمبروس أن يتبعوا النظام، ووبخهم على عدم المحبة، وحثهم أن يختاروا أسـقفًا جديدًا بهدوء وسـلام. فخيَّم الصـمت على المكان وتبادل الكثيرون نظرات ارتباك، وصُـعِق أغلبهم ولم يجرؤوا على رفع أعينهم. ولم يتحدث أي منهم حتى كسر الصمت صوت صبي صغير قائلاً: "ليكن أمبروس أسقفًا". وبعدها صاح البعض الآخر: "ليكن أمبروس أسقفًا"، ووافق الجميع وسرعان ما هتف كل الجمع بصوت واحد: "ليكن أمبروس أسقفًا".

فرفع أمبروس يده في محاولة منه لتهدئتهم، ولكن بلا جدوى، وقال لهم: "أيها الإخوة لن أستطيع أن أكون أسقفًا لكم، فأنا غير مدرب للخدمة كما إنني لم أعتمد بعد". ولكن الناس كانوا قد وصلوا إلى قناعة بأنه هو من يستطيع أن يتولَّى

هذا المنصب، وانتخبوه أسقفًا لميلان بالإجماع. بذل أمبروس كل ما بوسعه حتى يهرب من هذا الواجب، فاختبأ في منزل أحد أصـــدقائه، وبعث برســـالة إلى الإمبراطور الروماني يطلب منه أن يعفيه من هذا المنصـــب، ولكن الإمبراطور كان سعيدًا بهذا الاختيار، وحثَّه على أن يتولى هذا المنصب، إيمانًا منه أن هذه هي مشيئة الله، فاعتمد أمبروس وبعد ثمانية أيام رُسم أسقفًا.

ومنذ ذلك اليوم عاش أمبروس ليخدم الرب، فحفظ في قلبه وصية المسيح للشـــاب الغني: "اذهب وبع كل مالك واعط الفقراء فيكون لك كنز في الســـماء وتعال اتبعني". فباع أمبروس كل ممتلكاته وكل كنوزه الأرضـية وأعطاها للفقراء. وكان يرحب بأي شـخص يريد أن يراه في أي وقت، وغالبًا ما كان يقضـي الليل في الصلاة مع نفس مضطربة، أو في تلبية احتياجات الفقراء.

وانكب أمبروس على دراسة الكتاب المقدس، واكتشف رسالة الكتاب المقدس الواضحة بأن الآب والابن والروح القدس هم إله واحد، متساوون في المجد والقوة. ومن خلال عظاته اليومية وكتاباته المستفيضة، دافع عن عقيدة الثالوث المقدس، وأُلوهية المسيح، حاميًا الكنيسة من التعاليم الأريوسة الكاذبة. كما أنه عرف أهمية الموسـيقى في التسـبيح وكتب بنفسـه الكثير من الترانيم مثل: "أيها الثالوث، أيها النور المبارك"، والذي يشيد بوحدة الآب والابن والروح القدس:

كل الحمد لله الآب
كل الحمد للابن الأزلي
والذي نعبده مع الروح
للأبد والأبد.

وأظهرت روحه الدافئة والمرحة حقيقة الإنجيل، مثلما أوضـــحت عظاته تماما. وجاء أوغســـطينوس إلى ميلان، ولم يكن مؤمنًا في ذلك الوقت، ولكن جذبته عظات أمبروس ومحبته. وبأسلوبه اللطيف استطاع أن يجذب أغسطينوس لأن يثق في الرب ثقة حيَّة، فقال أوغســـطينوس: "لقد رحب بي هذا الرجل كما

يرحب الأب بابنه. في بادىء الأمر لم أحبه كمعلم للحق، ولكنني أحببته لطيبته وكرمه معي".

وبحسب اكتشاف الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس صديق أمبروس، فإنه بالرغم من محبة أمبروس ولطفه، فقد كان في بعض المواقف صارما وجريئًا، فغالبًا ما كان يمكث ثيودوسيوس في ميلان، ويتعبد في كنيسة أمبروس. وبرغم من كون ثيودوسيوس مسيحيا جادا، إلا إنه كان حاد الطباع، ففي بعض الأحيان كان غضبه يقوده لإصدار أحكام متهورة وظالمة. وهاجمته نوبة غيظ في إحدى المرات، عندما سمع بالشغب الذي حدث في تسالونيكي، فأمر جنوده بأن يثأروا بعنف، وقتل حينها في تلك المدينة سبعة آلاف رجل وامرأة وطفل دون تفرقة بين مذنب وبريء. فغضب أمبروس من هذا القاتل، وكتب له خطابًا في غاية الجرأة فاضحًا فعله الشرير، آمرًا إياه بأن يتوب. وفي الأحد التالي ذهب الإمبراطور إلى الكنيسة متوقعًا أن يتناول من الفريضة المقدسة، وبينما كان يصعد درجات سلم الكاتدرائية، وجد أمبروس واقفًا على الباب معترضا طريقه وقائلا له: "كيف ستصلي وترفع يدك التي ما زال دم القتلى يقطر منها؟ كيف يمكن لمثل هاتين اليدين أن تأخذ جسد ودم الرب؟ اذهب من هنا، حتى لا تضيف جريمة على جريمة".

فتصلب ثيودوسيوس في مكانه، وكشف عن دهشته ومفاجأته بكلمات أمبروس القاسية، ورد الإمبراطور عليه قائلاً: "ولكن الملك داود ارتكب جريمة قتل ورغم ذلك حصل على غفران الله"، فأجابه أمبروس: "إذًا فأنت تمثلت بداود في خطيته، فتمثَّل أيضًا به في توبته". فعاد الإمبراطور إلى قصره في خجل، ولكنه تاب واعترف بخطيته أمام كل الكنيسة ووعد بأن يفحص غضبه، بإعطاء نفسه ٣٠ يومًا ليهدأ، قبل أن يأمر بقتل أي شخص. لقد حزن ثيودوسيوس على خطيته باقي أيام حياته وقال: "لقد كان أمبروس الرجل الأول الذي قال لي الحق"، وأضاف قائلاً: "إنه الرجل الوحيد الذي عرفته الذي استحق أن يُرسم

أســـقفًا". وعندما رقد ثيودوســـيوس على فراش الموت، دعا أمبروس ورحل عن عالمنا بين ذراعيه.

ومرة تحدى أمبروس إمبراطورًا آخر، فأمره الإمبراطور فالانتينيان بأن يسـلم الكنيســة للأريوســيين، وعندما رفض، هجم الجنود عليه ليأخذوا الكنيســة بالقوة، فتحصـن أمبروس وأبرشيته داخل الكنيسـة لأكثر من أُسبوع، مستغلين الوقت في الترنيم والصـــلاة، فأمر الإمبراطور بانســحاب الجنود خشــية أن يؤذي أمبروس وأتباعه. وصرح أمبروس قائلاً: "إن الإمبراطور في الكنيسة وليس فوقها".

وعندما رقد أمبروس في فراش المرض، سيطر الخوف على المسيحيين في ميلان، خشـــية عودة النزاعات والانقســـامات بعد موت أمبروس، فذهب شـــيوخ المدينة لزيارته، وصـــلوا معه ليمنحه الله الشـــفاء والعمر المديد، فحثهم أمبروس على الثقة في الله وقال لهم: "أنا لا أخاف الموت لأن لنا إله صـــــالح". ورقد أمبروس بعد هذه الزيارة ببضـــــعة أيام في مســـــاء يوم الجمعة العظيمة، ودفنه أعضاء كنيسته صباح يوم عيد القيامة في الكنيسة، حتى يكونوا دومًا بالقرب من أسقفهم المحبوب.

أيها الثالوث أيها النور المبارك
يا وحدة القوة القديرة
والآن وقد غابت الشمس المتقدة
فارسل أشعتك إلى داخل قلوبنا

...

مونيكا وأغسطينوس

أم مسيحية وابنها

أغسطينوس ٣٥٤ م – ٤٣٠ م

في عام ٣٥٤ م، وضعت مونيكا ابنًا، وأطلقت عليه اسم أغسطينوس. كان هذا الطفل موضع فخرها وفرحها المستقبلي، وأصبح حِجرُها مركز تعليمه وعبادته للرب. وكان اسم الرب يتردد كثيرًا على شفتيها، وشرحت له قصة الخلاص، كما كانت تنشد له الترنيمات التي تسبح يسوع المسيح مخلص روحها. ولم يكن زوج مونيكا الوثني باتريسيوس يساعدها في توجيه ابنهما إلى الله، لذا ظلت وحدها تعلمه أن يحب الرب ويخدمه. لقد تمسكت بوعود الرب: "ربِّ الولد في طريقه فمتى شاخ أيضا لا يحيد عنه". (أمثال٢٢:٦)

وعندما كبر أغسطينوس، أدرك والده أن ابنه يتمتع بعقل متميز فقال: "بلدتنا الصغيرة ليست بالمكان المناسب لتعليم صبي يمتلك مثل هذه المواهب، فلا بد من تعليمه جيدًا حتى يقوم بأعمال عظيمة"؛ لذا أرسله والده وهو في عمر السادسة عشرة ليدرس على أيدي أفضل المعلمين في قرطاجة، أكبر مدينة في شمال أفريقيا في ذلك الوقت. أما والدته فقد ترجَّته أن يتمسك بالمسيح ويعيش حياة مقدسة، ولكن بمجرد ابتعاده عن المنزل وسفره إلى بلدة رومانية مليئة بجميع أشكال الإثارة، غلبته الخطية. وبالرغم من محبته لوالدته، إلا إنه سار في الطرق الشريرة التي كان يتبعها أصدقاؤه الجدد. واعترف أغسطينوس فيما بعد قائلاً: "لقد ازدريت بنصيحة أمي واندفعت متهورًا في حياتي".

وتعلم أغسطينوس السرقة، وأسرف في شرب الخمور، وانغمس في الملاهي الشريرة، واعترف في إحدى المرات قائلاً: "لقد تظاهرت أحيانًا بأنني فعلت خطية لم أفعلها، فقط ليعجب بي أصدقائي". ورفض أغسطينوس المسيحية واعتنق بدلاً منها الفلسفات الشعبية المعاصرة. وكبر أغسطينوس وكبر معه غروره وكان يقول: "سأصنع لنفسي اسمًا عظيمًا".

وعند سماع أمه لهذه الأنباء، تملكها الخوف وحذَّرته قائلة: "يا بني أخشى من الطريق المعوج الذي تسير فيه، فهذا الطريق لا يسلكه إلا من أداروا ظهورهم ليسوع وليس وجوههم". وذهبت مونيكا لتحصل على مساعدة من الأسقف، وطلبت منه أن يتحدث مع أغسطينوس، ويُظهر له شر هذا الطريق ويعلمه ما هو صالح". فهز الأسقف رأسه رافضًا، فقد كان يعرف توجه قلب أغسطينوس في ذلك الوقت، وقال لها: "أغسطينوس ليس مستعدًّا الآن ليتعلم عن يسوع، فهو شديد الإعجاب بذاته، وتملأ البدع الجديدة أفكاره. اتركيه بمفرده لفترة، وصلِّ من أجله، وسيعرف خطأه وشناعة خطاياه بنفسه من خلال قراءاته". ولم تقبل مونيكا هذه الإجابة، فبكت وقبضت على يد الأسقف متوسلةً أن يكلم ابنها؛ فقال لها بصرامة: "لا، اذهبي الآن واتركيني، فمن المستحيل أن يهلك ابن هذه الدموع". وبدت لها هذه الكلمات كما لو كانت آتية إليها من السماء. وبكت مونيكا وصلَّت من أجل ابنها، ولم تفقد الأمل في أن الله سينقذ روحه. وكانت غالبًا ما تقول له: "أغسطينوس ابن هذه الدموع لن يهلك".

مضت السنوات وأصبح أغسطينوس معلما مرموقا، ولكنه استمر في رفضه للرب، وعندما بلغ الثلاثين، انتقل من شمال أفريقيا إلى مدينة ميلان الإيطالية، ليصبح واحدًا من أكبر معلمي هذه المدينة، وأخذ معه والدته الأرملة. في ذلك الوقت كان أمبروس الواعظ العظيم، هو أسقف مدينة ميلان. وذهب أغسطينوس ليستمع إلى عظاته، ليس رغبةً في معرفة يسوع ولكن ليستمع إلى بلاغة كلماته. وأخبر أغسطينوس أمبروس أنه لا يؤمن بيسوع المسيح، ولدهشته قبله أمبروس وأحبه، فقال عنه أغسطينوس: "لقد رحب بي هذا الرجل كما يرحب الأب بابنه، وفي بادىء الأمر لم أحبه كمعلم للحق، ولكنني أحببته لطيبته وكرمه معي".

وبدأ أغسطينوس يستمع للحق الإلهي بالتدريج في عظات أمبروس، وبدأ في قراءة الكتاب المقدس، وأهداه أحد الأصدقاء كتابًا عن حياة القديس أنطونيوس، ورأى فيه أغسطينوس مدى قدرة النعمة الإلهية على تغيير الحياة. ولم تكف أمه عن الصلاة من أجل خلاصه، وحثَّته أن يثق في المسيح. وبدأت شكوك

أغسطينوس حول المسيحية تخبو، وحل الخوف مكانها؛ الخوف من عدم غفران خطاياه الكثيرة. وفي أحد الأيام امتلأ أغسطينوس بالشعور بالذنب وذهب إلى الحديقة ليسكب قلبه أمام الله، وجاء معه صديقه أليبيوس. وفجأة التهب قلب أغسطينوس، وانهمرت الدموع من عينيه، ولخجله جرى إلى نهاية الحديقة حتى يبقى بمفرده، وألقى بنفسه أسفل شجرة تين وصرخ للرب قائلاً: "إلى متى يا رب ستبقى غاضبًا مني؟ هل ستبقى غاضبا مِنِّي للأبد؟ يا إلهي لا تعُد لتذكر خطاياي".

وبينما كان أغسطينوس يصلي ويبكي، سمع طفلا ينشد ترنيمة كانت كلماتها تقول: "خذ واقرأ، خذ واقرأ"، ولم يكن قد استمع من قبل إلى ترنيمة أطفال تقول هذه الكلمات، ولكنه أخذ تلك الكلمات كرسالة من الله ليقرأ الكتاب المقدس؛ فأمسك بالكتاب وفتحه عشوائيًا، وقرأ أول آية وقعت عليها عيناه: "بل البسوا الرب يسوع المسيح ولا تصنعوا تدبيرًا للجسد لأجل الشهوات". (رومية ١٣:١٤) وفي الحال فتح الله عيني أغسطينوس، ليرى أنه لا يوجد غير صلاح المسيح الذي يستطيع أن يغطي خطاياه. ولم يكمل قراءاته، فلم يكن بحاجة إلى المزيد، فقد غيَّر الله قلبه ومجَّد الله على غفران خطاياه وعلى منحه هبة الإيمان.

ودعا أليبيوس وقال له: "عندما قرأت الآية، شعرت وكأن قلبي قد امتلأ بنور الثقة في المسيح، ومُحِيَت من داخلي كل ظلال الشك"؛ فقال له أليبيوس: "دعني أرى الفقرة، التي قرأتها"، فأراه أغسطينوس الفقرة، ولكن عيني أليبيوس وقعت على الآية التي تليها: "ومن هو ضعيف في الايمان فاقبلوه لا لمحاكمة الأفكار"؛ فقال أليبيوس: "هذه الآيات موجهة إليَّ، فإيماني ضعيف، ولكن يسوع يستطيع أن يقويني".

وجثا أليبيوس على ركبتيه، ووضع ثقته هو الآخر في المسيح، وهرع الصديقان إلى الداخل ليخبرا مونيكا التي غمرتها الفرحة، واحتضنت ابنها قائلة: "هذا ما كنت أصلي من أجله طوال هذه السنوات". وبعيون تملؤها الدموع، رفعت

يديها للسماء وصلت قائلة: "المجد لك يا رب، لأنك تستطيع أن تفعل أكثر مما نتخيل، فلقد حولت نَوْحي إلى فرح".

ومنذ ذلك اليوم، امتلأت نفس أغسطينوس بالجوع لمعرفة الكتاب المقدس والعبادة بلا انقطاع، ويقول: "لست أجد ما يكفيني من حلاوة التأمل في عمق كلمتك. أي دموع أذرف في ترنيماتك، وكم حرَّكتني حلاوة تسبيح كنيستك".

واعتمد أغسطينوس على يد أمبروس، وهو مرتديًا ثوبًا أبيض على ضوء الشموع، في خدمة عيد القيامة مع الآخرين الذين قبلوا الإيمان. واستقال أغسطينوس من وظيفته كمعلم في ميلان، وكان توجُّه قلبه أن يعود إلى شمال أفريقيا ليخدم الرب هناك. وفي إحدى الليالي، بينما كان يستعد للرحيل، دار حديث طويل بينه وبين أمه فقالت له بابتسامة واسعة: "إن أعظم مسرات هذا العالم، لا تقارَن بأفراح السماء".

وكتب أغسطينوس فيما بعد هذه الكلمات: "عندما نتحدث عن الله وعن الحياة الأبدية مع القديسين، تمتلئ قلوبنا بالعطش للشرب من الجداول السماوية، ويبدو هذا الشعور كما لو كنا قد لمسنا أول ثمار الروح في السماء".

وفي إحدى المرات قالت مونيكا لابنها وهي تنظر لعينيه: "يا بني، لا أعرف لماذا أظل هنا على الأرض، فالسبب الوحيد الذي كنت أريد أن أبقى من أجله، هو أن أراك مسيحيًا قبل أن أموت، وقد أراني الله أكثر مما طلبت، فلقد رأيتك وقد احتقرتَ مباهج العالم وأصبحتَ خادمًا للمسيح".

وبعد بضعة أيام رقدت مونيكا، وقد أهلكها الإعياء وقالت له وللساهرين معه: "يمكنك أن تدفن جسدي في أي مكان". فسألها أحد الساهرين: "ألا تخافين أن تموتي وتُدفني بعيدًا عن وطنك؟" فرفعت رأسها وأجابته بصوت ضعيف: "لا يوجد مكان بعيد عن الله". وجثا أغسطينوس بجانب سريرها، وقد ملأه الحزن وأمسك بيدها وصلى حتى انطلقت روحها لتكون مع الله. وقال أغسطينوس: "لقد أغلقت عينيها وشعرتُ بطوفان من الحزن يجتاح قلبي".

وبعد أن دفن أغسطينوس والدته، عاد أخيرًا إلى شمال أفريقيا، وأصبح أهم قائد للكنائس في المنطقة. وباستخدام سيف كلمة الله، خاض الكثير من المعارك ضد المعلمين الكذبة في الكنيسة. وجاءت أكبر التحديات التي واجهته من بيلاجيوس وأتباعه. كان تعليم البيلاجينية، أن خطية آدم لم تؤثر على جميع البشرية، ولهذا من الممكن أن يعيش الإنسان حياة تخلو من الخطية وفقًا لإرادته الحرة. وآمنوا أن الخلاص ليس هبة من الله، لكنه من استحقاق الناس. وأدرك أغسطينوس أن هذه التعاليم تعارض أساس تعاليم الكتاب، وأن رحمة الله وحدها هي التي خلصت الإنسان، فوفقًا لرسالة بولس إلى أهل أفسس: "بالنعمة أنتم مخلصون وذلك ليس منكم، هو عطية الله. ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد". ووجَّه أغسطينوس كل طاقاته لمحاربة البيلاجينيين وإعلاء نعمة الله؛ فكتب خطابات، ودعا لانعقاد مجامع كنسية، وسافر مسافات بعيدة للتحدث إلى الكنائس، ووعظهم قائلاً: "لقد فسد الإنسان بإرادته الحرة، ولكن إنسان الله يسوع المسيح جاء بنعمته المحرِّرة، فبإمكاننا الآن أن نرى نعمة الله المحرِّرة من خلال يسوع المسيح". وبعد سنوات من الكفاح، انتصرت رسالة أغسطينوس عن نعمة الله ورحمته.

وقضى أغسطينوس السنوات الأربعين الأخيرة من عمره، يعظ وينظم صدقات للفقراء ويكتب كتبًا دفاعية عن المسيحية. وفي كتابه "الاعتراف" روى قصة حياته ومحبة الله المخلِّصة. هذا الكتاب ما هو إلا صلاة إلى الله، موضحًا فيه أنه يدين بخلاصه لنعمة الله ورحمته فقط. وكتب هذه الكلمات: "إلهي، لقد صنعتنا لذاتك، ولن تجد قلوبنا راحتها إلا فيك".

ولم يكُفَّ أغسطينوس عن إرشاد الناس إلى طريق الله طوال حياته، وظل يشكر الله من أجل والدته قائلاً: "إلهي وحبيب قلبي، أشكرك من أجل كل الأعمال الصالحة التي قامت بها والدتي، فهي كانت هبتك لي لتخلصني وترشدني".

...

باتريك

مبشر أيرلندا

باتريك ٣٨٩ م – ٤٦١ م

كانت كلمة قراصنة، كلمة تُلقي الرعب في قلب باتريك الذي قفز من فراشه ونزل في سترته ونعليه هربا إلى الخارج. في ذلك الوقت كان كلا والديه قد ذهبا إلى المدينة، تاركين ابنهما البالغ من العمر ستة عشر عامًا بمفرده، لمتابعة الخدم وممتلكاتهم بالبلدة. وجاء رجال ذوي لحى حُمر من كل جانب، ملوِّحين بسيوفهم وبهراواهم، وأسروا باتريك والخدم وربطوا أيديهم. وبعد أسر الآلاف من الناس من جميع أنحاء البلدة، أخذهم القراصنة إلى البحر، فقد خطفوا بضعة آلاف من القرية والقرى المحيطة، وحشدوهم على حافة المياه وجمعوهم وربطوهم في مخازن السفن.

كان القراصنة يتحدثون لغة غريبة لم يفهمها باتريك، ولكنه كان يعرفهم، فكل من كان يعيش في الضفة الغربية من بريطانيا كان يعرف اللصوص الأيرلنديين، فمنذ أن تركت الجيوش الرومانية بريطانيا، تزايد عدد اللصوص من العبيد الأيرلنديين. وكان باتريك يرتعش في غضب ويأس وهو في السفينة بجانب الرجال والسيدات والأطفال، فلقد اعتقد أنه قد أُخذ ليعيش ما تبقى من حياته كعبد في أيرلندا، ولن يرى عائلته أو يعود لوطنه مرة أخرى.

بعد أسبوع كان باتريك يقف فوق التلال الصخرية في شمال أيرلندا، يرعى الغنم لرئيس إحدى العشائر. كان يلبس ثيابًا بالية وتغذيته سيئة، وكانت مفاصله تؤلمه من الثلج والرياح. وكان شعوره بالحنين إلى وطنه يؤلم معدته، فلقد كره الأيرلنديين، وهذا ما أشعل رغبته في الحياة، فقد أقسم يوما أن يرد على الأيرلنديين ما أظهروه من قساوة، وحلف بينه وبين نفسه أنه سيجعلهم في يوم من الأيام يدفعون ثمن قسوتهم.

مرت سنة وراء الأخرى، ولمس باتريك تغييرًا غريبًا يحدث له. بدأ هذا بشعور بالذنب على خطاياه وعدم إيمانه. ولكن عندما وصل به ضميره

المضطرب إلى اليأس، شعر بروح الله يقترب منه فقال باتريك: "توجهت بكل قلبي إلى الرب إلهي، فلقد حرســـني قبل أن أعرفه، وعزَّاني كما يعزي الأب ابنه". وبعدما أدرك أن الله معه، بدأت تتلاشى المرارة والشعور بالوحدة اللتان كان يشعر بهما، وحاول أن يتذكر العظات التي كان يستمع إليها في كنيسته، والقصص الكتابية التي كان قد تعلمها من الكتاب المقدس. ووبخ نفســـه على حياته في صـــباه، لعدم اهتمامه بالأمور الروحية؛ فبالرغم من حضـــور عائلته لكنيســـة مسيحية، ومعرفته بالمسيح ووصـــاياه، إلا إنه لم يكن يكترث بهذه الأمور. وقد حذره أحد القســـاوســـة قبلاً قائلاً: "ارحم نفســـك"، إلا أنه تجاهل هذه النصـــيحة ومضى في طريقه.

ولكن الآن وهو عبد في أرض بعيدة، استطاع أن يتذكر القليل الذي كان قد تعلمه في صباه، فلم يكن لديه كتاب مقدس حتى يستطيع قراءة كلمة الله، ولكنه كان يستطيع أن يصلي. فكان يستيقظ قبل بزوغ نور الصباح ليصلي، وكان يرفع صوته مئات المرات في اليوم إلى الله، وإذا استيقظ في الليل كان يصلي قبل أن يعود إلى النوم مرة أخرى. وكان يقول: "لقد زادت مخافة الله ومحبته داخلي، ولقد تقوَّى إيماني".

وبينما كانت محبته لله تزداد، مات كرهه للأيرلنديين وتعلَّم لغتهم وفهم طرقهم، فلم يكن الأيرلنديين يســـرقون الأراضـــي الأخرى فقط ولكنهم كانوا يتشاجرون بعضهم مع بعض باستمرار، وكانت الخرافات والشعائر الغريبة تسود عليهم. فلقد كان كهنتهم الوثنيون (الدرويد) يعتقدون بأنهم يمتلكون قوى ســـحرية، وبهذا كانوا يسيطرون على الشعب. وتزيَّن الدرويد بجلود وريش الطيور، وكانوا يقدمون ذبائح حيوانية ويتنبأون بالمستقبل، وكانت من تعاليمهم أن الأرواح سكنت الأشـــجار، وأن أرواح البشـــر عادت بعد الموت وعاشـــت في أجســـاد أخرى؛ فلم يكونوا قد سمعوا قبلاً بالأخبار السارة عن يسوع المسيح، فبدأ باتريك يصلي من أجل خلاص من أسروه.

وفي إحدى الليالي، في السنة السادسة من أَسْرِه، رأى حلمًا وجاءه صوت في الحلم يقول: "ستعود قريبًا إلى وطنك، فسفينتك قد أُعِدت". وعندما استيقظ باتريك من النوم، اتخذ هذا الحلم رسالة من الله، فرسم خطة سريعة للهرب. وفي الصباح الباكر لليوم التالي، فرّ هاربًا مع علمه بأن الأسرى الفارّين يواجهون العذاب بل والموت، لذلك سافر باتريك على الطرق الخلفية ليلاً وسار مسافة مئتي ميلٍ إلى أن وصل إلى ميناء بحري، فوجد سفينة على وشك الإبحار، فقال باتريك للقبطان: "أريد أن أبحر معكم". ولكن عندما رأى القبطان أنه عبدٌ، أجابه بقسوة قائلاً: "لا فائدة من طلبك للذهاب معنا. إرحل عن هنا". وتحوَّل باتريك لكي يرحل، وصلى إلى الله ليرشده، وقبل أن ينتهي من صلاته قال له أحد البحارة من على ظهر السفينة: "تعال أسرع ينبغي علينا أن نأخذك معنا"، فصعد باتريك إلى السفينة وسرعان ما أصبح في طريقه إلى الحرية. وأخذ باتريك في مساعدة طاقم العمل في فك الحبال للإبحار وتفريغ الحمولة، وأخبرهم بجسارة عن قدرة الله وصلاحه. وبعد فترة وجيزة، رست السفينة في مكان مهجور، وظلوا يبحثون عن طعام لعدة أيام، وشعر كل من كان على سطح السفينة بالوهن والجوع، فثبَّت القبطان عينيه المنهكتيْن على باتريك وقال له: "قل لي أيها المسيحي، أنت تقول إن الله عظيم وكلي القدرة، لماذا إذن لا تصلي من أجلنا؟ نحن نعاني الجوع، ومن غير المحتمل أن نرى إنسانًا مرة أخرى؟" فابتسم باتريك وقال له: "آمن بالرب إلهي من كل قلبك، لأنه لا يستحيل عليه شيء، فقد يرسل لك اليوم طعامًا حتى تشبع، لأن له الغنى في كل مكان". وبدا هذا المكان الصحراوي أكثر كآبة، وبعد مرور بضع دقائق، مر قطيع من الخنازير أمامهم، وأخذوا يتغذون على لحم الخنازير لعدة أيام.

وأخيرًا استأنف باتريك رحلته ووصل إلى وطنه بريطانيا. وابتهجت عائلته وأصدقاؤه لرؤيته، واستقبلوه كما لو كان عائدًا من الموت، وسرد عليهم باتريك قصة عبوديته وإيمانه الجديد بيسوع المسيح وهروبه؛ فقالوا له: "لقد عانيت الكثير، امكث هنا معنا في سلام ولا تتركنا مرة أخرى". فطلب منهم ألا يحزنوا

على معاناته وقال لهم: "لقد انتزعني الله من بلدي ومن عائلتي، حتى أعرفه وأحبه".

وحاول باتريك أن يستعيد حياته القديمة، ولكنه لم يستطع إخراج شعب أيرلندا من تفكيره. وفي إحدى الليالي، وبينما كان نائمًا، رأى في رؤيا شخصًا من أيرلندا وسمع أصواتًا كثيرة تتحدث إليه في صوت واحد. وعرف باتريك أنها أصوات الأيرلنديين، فلقد صرخوا إليه بلغتهم: "نطلب منك أيها الفتى أن تعبر إلينا مرة أخرى". وفي ليلة أخرى رأى حلمًا آخر، وسمع صوت الأيرلنديين ينادونه. وجاءه صوت الرب قائلاً: "من وضع حياته من أجلك هو الذي يتحدث إليك"، واستيقظ باتريك من نومه تملأُه السعادة وقد عقد العزم أن ينادي بإنجيل يسوع المسيح في أيرلندا.

وعندما أخبر باتريك أسرته وأصدقاءه بنواياه، صُدموا وتوسلوا إليه قائلين: "لا تفعل هذا، فإذا سافرت إلى هناك ستؤسر مرة أخرى، وربما تُقتل. فبالتأكيد لن يطلب الله ذلك من شخص قد عانى الكثير بالفعل". وحاول شيوخ المجتمع أن يمنعوه قائلين له: "إن هذا الفعل ما هو إلا ضرب من الحماقة". وقدمت له أسرته وأصدقاؤه الهدايا، متضرِّعين إليه بدموع أن يبقى في المنزل، فقال لهم: "أنا مستعد وبكل سرور، أن أبذل حياتي دون تردد من أجل اسم المسيح، فإذا منحني الله هذه الفرصة، أنا أريد أن أخدم في أيرلندا إلى أن أموت".

وبعد عدة سنوات من الإعداد في الأديرة بفرنسا، رُسم باتريك مرسلاً لأيرلندا، وببعض المساعدة أبحر في أحد فرعي أيرلندا، على الشاطئ الشرقي للجزيرة، وقال لزملائه: "لنصطد جيدًا، لأن الله دعانا لكي نصبح صيادي الناس، ولنكرز بالإنجيل للخليقة كلها".

وعلى الفور رحب بهم ديتشو الحاكم المحلي، وقَبِل تعاليم باتريك، واعتمد وتبعه الكثيرون من عشيرته، ومنح ديتشو باتريك قطعة أرض بها حظيرة كبيرة، فحوَّلها باتريك إلى أول كنيسة أيرلندية، وقال باتريك: "نشكر الله، فهؤلاء الذين كانوا يعبدون الأصنام ولم يعرفوا الله، أصبحوا يُدْعَوْن الآن أولاد الله".

وقد كانت عائلته وأصدقاؤه محقِّين بشأن الخطر الذي سيواجهه، فسرعان ما واجهته مقاومة شديدة؛ فلقد كرهه الدرويد، لإبعاده الناس عن عبادة الأصنام، لذا قام معارضوه بخطفه وضربه وسجنه وتعذيبه. وفي إحدى المرات أُسِر كعبد مرة أخرى، وكاد ينجح أعداؤه في قتله اثنتي عشـــرة مرة، ولكن في كل مرة كان الله ينقذه. وكتب باتريك في إحدى المرات: "في كل يوم كنت أتوقع القتل أو الخداع أو الأسـر، ولكني لا أخشـى شـيئًا، فلقد ألقيت بنفسـي بين يدي الله القدير، ذاك الذي بيده كل شيء، كما يقول النبي: ألقِ على الرب همك فهو يعولك".

إن أكبر المعـارك التي واجهـت بـاتريـك، لم تكن موجهـة إليـه شـخصـيًّا، فقد كان مسـتعدًّا دائمًا للموت من أجل إيمانه، ولكنها كانت موجهة للمؤمنين الجدد. وأكبر حادث مأســـاوي كان في اليوم التالي لمعموديتهم، فلقد عكف باتريك على تعليم مجموعة من أهالي القرى المجتمعين معًا، وقَبِل الكثيرون منهم المسـيح، وبعد عدة أشـهر من تعليمهم عن الإيمان المسـيحي، اسـتعدوا للمعمودية، وفي يوم المعمودية جاء جميعهم في ثياب بيض، وبدأ باتريك في مراسم المعمودية بفرح قائلاً: "أعمدكم باسم الآب والابن والروح القدس". وتبع هذه المراسـم احتفال جماعي رائع بالحياة الجديدة في المسـيح، ولكن في اليوم التالي حلت النكبة؛ فبينما كانت الشمس تلقي بضوئها في الصباح الباكر، هجم جنود كوروتيكاس (رئيس قبيلة لتجارة العبيد) على القرية، وقطعوا رؤوس بعض الذين اعتمدوا بالسـيف، وقتلوا الأطفال الذين صـادفوهم في الطريق، وباعوا النسـاء كإماء. وتدخَّل باتريك سريعًا لإنقاذ النساء، ولكن كوروتيكاس ورجاله قابلوا جهود باتريك باسـتهزاء. ودون خوف على حياته، أدان باتريك القتلة علنًا وقال لهم: "يا أولاد إبليس، يا من تقطر أيديهم دمًا، سـتهلكون في يوم الدينونة بكل الآثام التي ارتكبتموها، فأنا أشـهد أمام الله وملائكته، أن مصـيركم لن يتغير ما لم تتوبوا عن هذا الفعل الشائن وتحرروا الأسرى".

ولا نعرف ما إذا كان كوروتيكاس قد أطلق ســـراح الأســـرى أم لا، ولكن استمرار باتريك في إدانة العبودية زلزل أساس تجارة العبيد في أيرلندا.

لقد عمل باتريك بين شعب أيرلندا لمدة أربعين عامًا، وآمن الآلاف بالمسيح وتبع الكثيرون مثال باتريك، فذهبوا للتبشير حتى وصلت المسيحية أبعد من حدود أيرلندا. وفي أواخر أيام حياته، سـأله البعض إذا ما كان الأمر اسـتحق كل هذا العناء، فأجابهم باتريك: "إن أعظم هبة حصـلت عليها، هي معرفتي بالله ومحبتي له، أما خدمته فكانت أعظم فرحي".

درع القديس باتريك:

أنا أربط على نفسي اليوم
اسم الثالوث القوي
بتضرع لنفس الاسم
الثلاثة في واحد والواحد في ثلاثة.

...

العصور الوسطى

إشراق نور من الظلمة

لقد صارع المسيحيون بقوة من عام ٥٠٠ م إلى ١٥٠٠ م، في السعي حتى يشرق الإنجيل بنوره في الظلام السحيق والموحش للشعوب الوثنية، وقد كان ذلك الوقت وقت نجاحات عظيمة للكنيسة، ولكنه لم يكن وقت نضوج روحي، فبالرغم من دور الكنيســـة في تقدم ملكوت الله في العديد من الأنحاء، إلا أن الجراحات التي أصابتها جراء حربها ضد الوثنية، تركت آثارها في صورة عادات وممارسات تعسفية.

* البابا غرغوريوس الأول
خادم خدام الرب
* بونيفاس
مُرسلٌ للألمان
* شارلمان
حامي الكنيسة
* ألفريد العظيم
ملك مسيحي
* "أنسيلم"
لاهوتي وراهب ورئيس أساقفة
* برنارد الذي من كليرفو
حبيب المسيح
* بيتر والدو والوالدِنسيون
الأمين للكلمة
* فرانسيس الأسيزي
الأخ الأصغر

* إليزابيث التي من المجر

خادمة الفقراء

* جون ويكليف

كوكب الصبح لعصر الإصلاح

* جون هاس

رائد الإصلاح

....

البابا غرغوريوس الأول

خادم خدام الرب

البابا غرغوريوس الأول ٥٤٠ م – ٦٠٤ م

في أواخر القرن السادس، أسرع إلى سوق روما المكشوف، راهب أصلع ذو عينين براقتين وأنف منحنية قليلا. ودون أن ينظر للتجار أو يبدي اهتمامًا بنداءات الباعة، أسرع هذا الراهب الذي يدعى غرغوريوس إلى سوق العبيد، يملؤه الشغف ليرى العبيد الذين قد وصلوا مؤخرًا؛ فشق طريقه بين الحشود، ورأى بعض الصبية ذوي بشرة صافية وشعر فاتح يتَّسمون بالوسامة.

وسأل غرغوريوس تاجر العبيد قائلا: "من أي بقعة في العالم جاء هؤلاء العبيد؟" فأجابه: "لقد جاءوا من جزيرة يُطلق عليها إنجلترا، حيث يبدو كل الشعب هكذا". فسأله: "هل سكان هذه الجزيرة وثنيون أم مسيحيون؟" فأجابه التاجر: "وثنيون".

فأنَّ غرغوريوس: "وا حسرتاه"، وتنهد بعمق قائلاً: "كم هو محزن أن يظل هذا الشعب ذو الوجوه البراقة، تحت سلطان الظلمة، وقد حُجبت أذهانهم وأُخفيَ عنها نعمة الله".

ونظر غرغوريوس لمدة طويلة في عيون هؤلاء الصبية وسأل: "ما هو العرق الذي ينتمون له؟" فأجابه التاجر: "إنهم يدعون إنجليز". فقال غرغوريوس بابتسامة: "بل ملائكة وليسوا إنجليزًا، فهُم يمتلكون وجوهًا ملائكية، وأرى إنه من الصواب أن يشارك هذا الشعب الملائكة في الملكوت". وعاد غرغوريوس ليسأل: "وما هو اسم ملكهم؟" فقيل له "أللي".

ورفع غرغوريوس ذراعه نحو السماء وصاح: "هللويا، لا بد وأن يُسمع مجد الله في تلك الأرض!" وشعر غرغوريوس بالشفقة تجاه أرواح البريطانيين الضالين، وطلب من الله أن يرسله إلى الإنجليز، وتوسل إلى البابا بندكت حتى يسمح له بالخروج في الحال. ولكن بندكت تردد، لأن غرغوريوس لم يكن راهبًا عاديا، بل كان شخصًا كنسيًّا مهما، وكان مسئولا عن التبرعات التي تُقدم لفقراء روما، ولقد

كان ينحدر من إحدى أغنى العائلات التي كانت تتمتع بالقوة، وكان معروفا في كافة أنحاء روما. وقبل أن يُرسم غرغوريوس راهبًا، كان واليًا على المدينة. وكوالٍ، كان يرتدي ملابس حريرية تتلألأ بالجواهر، وكان حكمه لروما يتميز بالحكمة. ولكن عندما كان في قمة مجده وثرائه، استقال من منصبه وباع أراضيه وبيوته، وأعطى المال للفقراء وللكنيسة، وقال: "أيها الرجال الصالحون، إن الغنى الفاحش في هذا العالم يسبب المشقة". ثم بنى غرغوريوس ديرًا ودخله، ليس كرئيسٍ له، ولكن كراهب بسيط.

فيما بعد دعاه البابا ليخرج من الدير حتى يدبر أمور شعب روما، ولكن غرغوريوس شعر بدعوة قوية تدعوه إلى شعب بريطانيا؛ فذهب وضغط على البابا ليسمح له بالذهاب وقال له: "إنه لأمر تعيس أن تمتلىء جهنم بهذا الشعب اللطيف". وعندما رأى بندكت غيرته، سمح له بالذهاب. وبدأ غرغوريوس رحلته في عجلة، ولكن عندما سمع شعب روما بذلك، شعروا بالحزن لفكرة ترك غرغوريوس لروما، فاحتشدوا واصطفوا على جانبي الطريق الذي يتخذه البابا ليذهب إلى كنيسة القديس بطرس، وبينما كان يمر صاحوا به قائلين: "لقد دمرت كنيسة روما بإرسالك غرغوريوس بعيدًا". وعندما سمع البابا هذه الصرخات المتكررة، أرسل الفرسان ليعيدوا غرغوريوس إلى الوطن. فعاد غرغوريوس إلى واجباته، ولكنه استمر في الصلاة من أجل خلاص الإنجليز.

وواجهت روما في ذلك الوقت مشاكل صعبة، مثل اصطدامها بهجمة وراء الأخرى من قِبَل البربر. وتُركت روما خربة، وتوجه الناس إلى الكنيسة سعيًا وراء السلام وعودة النظام. ووقع على عاتق أسقف روما، أي البابا، أن يسعى للدفاع عن المدينة، وأن يزوِّد الفقراء بالمعونة، وأن يبرم المعاهدات مع ممالك البربر. وبدا المشهد في خريف ٥٨٩ م أكثر ظلامًا، عندما ضربت الأمطار الغزيرة شمال إيطاليا لأسابيع، لتملأ نهر التيبر حتى فاضت ضفافه لتتسبب في غرق المئات من الناس، وأيضًا مخازن الحبوب. وتبع هذا الفيضان وباءٌ اجتاح المدينة، فلقي الآلاف مصرعهم، وفاحت رائحة الموت من المدينة حيث كانت

الجثث ملقاة في الشوارع، والبابا نفسه لقي حتفه في الوباء؛ فاجتمع ممثلو الكنيسة والشعب، وانتخبوا غرغوريوس بالإجماع ليُرسم بابا، ولكنه رفض، مفضلاً أن يعود إلى الدير. وكتب خطابًا للإمبراطور في القسطنطينية طالبًا منه أن يرفض هذا الانتخاب، ورسم الكثير من الخطط للاختباء، ولكن الناس حاصروه وحملوه إلى كنيسة القديس بطرس، ورسموه بابا في الثالث من سبتمبر ٥٩٠ م.

وبعدها كتب لصديق له قائلاً: " لقد أصابني القنوط لأنني فقدت فرح سكينتي، وعندما أبدو خارجيا أني قد علَوْت، أشعر داخليًا بأنني أنهار". وبعد بضعة أشهر كتب مرة أخرى قائلاً: "عندما أدركت أن هذه كانت إرادة الله، استعدت صفاء ذهني". لكن الاحتفاظ بسكينة الروح في وسط هذا الوباء الرهيب والتهديدات المتكررة من البربر، لم يكن سهلاً.

خلال هذا الوقت، قام اللمبارديون بذبح رجال الكنيسة وحرق المنازل والأديرة والكنائس، وقال غرغوريوس في إحدى عظاته: "عندما ننظر لأي مكان لا نرى غير البلية، فالمدن خُرِّبت والقرى هُجِرَت، والحصون دُمرت والحقول اقتُلعت والأراضي دُمرت، ويتفاخر عبدة الأصنام بإراقتهم لدماء المؤمنين يوميًّا. وإلى الآن لم تُقدَّم توبة عن الخطايا تحت كل هذه البلايا". فقاد غرغوريوس المدينة في اجتماعات صلاة لمدة ثلاثة أيام، وأخذوا يرنمون التراتيل ويعترفون بخطاياهم ملتمسين رحمة الله.

وبالرغم من وحشية اللُّمبارديين، لم يُكِنّ غرغوريوس لهم الكراهية، ولكنه بذل أقصى جهده ليقودهم للمسيح. وفي إحدى المرات قال لأساقفة إيطاليا: "بكل قدرتكم وبكل قوى الإقناع التي تتمتعون بها، فلتسرعوا للمبارديين ليأتوا للإيمان الصحيح. عظوهم بملكوت الله بلا هوادة". ونظم غرغوريوس جيشًا ليدافع عن روما، ودعم الأسوار للحصار، وأرسل برسائل سلام لأريولف رئيس اللمبارديين. ولكن الغزاة سحقوا القوات الرومانية وتقدموا حتى وصلوا إلى بوابات المدينة، وشاهد غرغوريوس الأسرى الرومان مقيدين، والحبال تحيط برقابهم مثل الكلاب يساقون كالعبيد؛ فخرج خارج الأسوار وقابل أريولف. كان أريولف ذا رأس محلوقة

من الخلف، وشعره الطويل مصفف من المنتصف، وقد أُسدل على جانبي وجهه. وتناقش معه غرغوريوس بعقلانية، وعرض عليه هدنة وبعض الأموال إذا ترك المدينة في سلام؛ فتأثر أريولف بفصاحة غرغوريوس وشخصيته، ووعده بعدم مهاجمة روما مرة أخرى طوال فترة اعتلاء غرغوريوس الكرسي البابوي لروما.

وبرغم كل أعباء الحكم على روما عمل غرغوريوس دون كلل، فكان يعظ ويكتب تفاسير للكتاب المقدس، وينظم أمور الكنيسة، وينشر كلمة الله لأراضٍ بعيدة؛ فأرسل عددًا من الرهبان الأتقياء بقيادة رئيس الدير أغسطينوس (ليس أغسطينوس ابن مونيكا) ليخبر الإنجليز والساكسونيين القاطنين في بريطانيا عن الأخبار السارة عن يسوع. وبينما كان الرهبان يرتحلون في فرنسا، في طريقهم إلى إنجلترا، سمعوا هناك أنباء مخيفة عن الإنجليز وبأنهم "برابرة شرسون يثرثرون بلغة غريبة"؛ فقرر الرهبان أن يتوقفوا، ثم أرسلوا أغسطينوس إلى غرغوريوس، فعاد أغسطينوس وتوسل إلى غرغوريوس أن يلغي هذه المهمة الخطرة. لكن غرغوريوس أرسله مرة أخرى بحزم ولطف وكتب لهم يقول: "يا أبنائي المحبوبين، من الأفضل ألا تأخذوا مسئولية إتمام عمل عظيم، ثم تتركوه فور بدايته، لذا بمعونة الله عليكم أن تقوموا بهذه المهمة المقدسة التي قد بدأتموها، ولا يعوقكم في ذلك مشقات الرحلة ولا ما يقوله لكم الآخرون، وليحمكم الله القدير بنعمته، وليمنحني بركة رؤية نتيجة تعبكم في بيتنا السماوي". فاستعاد الرهبان شجاعتهم وأبحروا إلى بريطانيا وبشروا الإنجليز بكلمة الله. وبسرعة قبلوها وأصبحوا مسيحيين. وعندما وصلت هذه الأنباء إلى غرغوريوس، مجَّد الله وكتب لأغسطينوس يقول له: "المجد لله في الأعالي، من يستطيع أن يعبِّر عن فرحة كل القلوب المخلَّصة! فمن خلال نعمة الله وعملكم، أشرق نور الإيمان المقدس في قلوب الإنجليز".

كما وقف غرغوريوس أمام الهرطقات مدافعًا عن لاهوت المسيح والثالوث المقدس وقيامة المسيح بالجسد من بين الأموات. وكتب المئات من الرسائل والعديد من الكتب بما في ذلك دليلاً للرعاة، يستحثهم فيها على تعليم الكتاب

المقدس للأغنياء والفقراء، وللمتعلمين والجهال؛ فكتب يقول: "إن كلمة الله تعضد فهم الحكيم وتغذي الرجل البسيط". وكان غرغوريوس يعرف أن قادة الكنيسة الخطاة، اللذين لهم علاقة سطحية بكلمة الله، قد يُضللوا الرعية؛ فطالب أن يكون قادة الكنائس أتقياء ولهم القدرة على التعليم، وأمناء في كل شيء. فكان يقول: "إن أعمال الواعظ تتحدث بصوت أعلى من كلماته، فحياته الصالحة ترسم الخطوات التي يتبعها الشعب". وعلاوة على كل شيء استحث غرغوريوس رجال الكنيسة أن ينزعوا عنهم الكبرياء وأن يخدموا بتواضع؛ فقال غرغوريوس لأحد الأساقفة: "أحبِبْ التواضع من كل قلبك، فالتواضع يجلب الانسجام والوحدة للكنيسة كلها".

وعندما طلب أسقف القسطنطينية بأن يلقب بـ "البابا العالمي"، وحاول أن يرفع نفسه فوق باقي قادة الكنائس، قاومه غرغوريوس بكل قوته، وكتب يستحث قادة الكنائس وحكام الولايات، بأن يرفضوا طلب أسقف القسطنطينية بالقول: "بتكبر وضع الأسقف اسمه فوق أسماء الباقين". ولم يعتقد غرغوريوس بأن أحد قادة الكنائس يمكن أن يكون في رتبة أعلى من الباقين، كما علَّم بعد ذلك أساقفة روما اللاحقين. لقد رفض اللقب المتكبر والفاني: "الأسقف العالمي"، وفضَّل أن يسمي نفسه "خادم خدام الرب".

كما عارض غرغوريوس بقوة، شراء أو بيع الألقاب والمناصب الكهنوتية، ومنع رجال الكنيسة من قبول أجر لقاء خدمتهم. وكان غرغوريوس يكتب الترانيم والشعر ويؤلف الموسيقى، وأسس مدرسة للمرنمين لكي ترتقي بالتسبيح في الكنيسة. وإحدى أكثر التسبيحات التي دامت في الكنيسة، أُطلق عليها اسمه، وتسمى "الترنيمة الغرغورية".

لكن للأسف قَبِل غرغوريوس، بل ونشر، بعض التعاليم التي تتعارض مع الكتاب المقدس، مثل المطهر وتمجيد القديسين ورفاتهم. وأخذت هذه المعتقدات الخاطئة ألف سنة حتى استطاعت جماعة من المسيحيين رفضها.

وعلى فراش الموت، علم غرغوريوس بـأن ملكـة اللمبـارديين، وهي امرأة مســـيحية، أقنعت ملك اللمبارديين بالســـماح لها بتعميد ابنهما، فكتب لها قائلاً: "نحن نشـــاركك فرحتك، فبنعمة الله وُهب ابنك الإيمان المســـيحي، فربِّي ملك المســتقبل في مخافة الله". وفي أواخر لحظات حياته أراد أن يكرم الله، فقال لأحد أصدقائه: "صلِّ من أجلي، أخشى أن تستنفد معاناتي صبري، وأخشى أن تزداد خطاياي بســـبب شـــكواي". ومات غرغريوس في ١٢ مارس ٦٠٤ م، ودُفن في كنيسة القديس بطرس.

...

بونيفاس

مُرسلٌ للألمان

بونيفاس ٦٨٠ م – ٧٥٤ م

بينما كانت رأسه المحلوقة تعكس أشعة الشمس، تحدى بونيفاس جماعة الهسيّين الألمانية، أن يتركوا الآلهة الوثنية، ويكفوا عن عبادة شجرة البلوط المقدسة، وأن يرجعوا للمسيح؛ فهز الهسيُّون، ذوي الشعور الطويلة، رؤوسهم وتذمروا عند سماع كلماته وغضبوا من سخريته من آلهتهم. كانت شجرة البلوط التي تحدث عنها بونيفاس، شجرة عملاقة تقع في أعلى قمة جبل جُدنبرج، حيث يتجمع عبدة الأصنام لإقامة المآدب، ولتأدية عبادتهم الوثنية، وتقديم الذبائح الحيوانية، وكان الهسيُّون يؤمنون بقداستها معتقدين أنها مقدسة للإله ثور، إله البرق والرعد. وكانوا يعتقدون أن ثور، إله شرس، أحمر الشعر، يمتطي السحاب حاملاً مطرقة عملاقة. فواعدهم بونيفاس أن يرجعوا بعد بضعة أيام ويحكموا من هو الأقوى، ثور أم الرب الإله؛ فقال له أحد الرؤساء: "إن ثور سيضربك حتى الموت أيها الغبي".

بعد بضعة أيام عاد الهسيون واعتراهم الغضب، وتجمعوا عند قمة الجبل حول الشجرة المقدسة، وانتظروا وصول بونيفاس، وازداد غضبهم قائلين: "من يظن في نفسه هذا الثرثار؟ فعندما يستخدم ثور مطرقته الجبارة، سيشعر ببرق غضبه!" ووقف أحد رؤساء العشائر وقال: "أين هذا المسيحي المتبجح؟ لعله خائف من المجيء إلى هنا". وفي هذه اللحظة خرج بونيفاس من الغابة حاملاً فأسًا على كتفه مع بعض الإخوة المسيحيين، ووقف أمام الشجرة، فانصرف الجمهور عنه بعناد، وهمهموا ببعض اللعنات. ووقف بونيفاس أمام الشجرة العملاقة وفأسه في يده، فصرخ أحد الرجال قائلاً: "كيف تجرؤ على تحدي قوة ثور؟" فقبض بونيفاس على الفأس بقوة واستعد ليضرب الشجرة؛ فبدأ الناس يحذرون بعضهم البعض، خوفًا من أن يُضرَبوا بلطخات برق "ثور". ورفع بونيفاس فأسه وضرب الشجرة بكل قوته، ونظروا بترقب إلى السماء، ولكن لم تكن هناك أية لطخات من البرق لتضربهم. ورجع بونيفاس ليضرب الشجرة بالفأس مرة أخرى،

وسـرعان ما تصـدعت شـجرة البلوط العملاقة ومالت، وتفرّق رجال القبيلة عند سـقوطها على الأرض، محدثة صـــوت انفجار عالٍ. وتفتَّتَتْ الشـــجرة إلى قطع غليظة، ونظر بونيفاس إلى وجوههم دون أن يتفوه بكلمة.

حينئذ تقدم أحد القادة ورفع ذقنه وتحدث بصـــوت مرتعش قائلاً: "آباؤنا وأجدادنا جاؤوا إلى هنا ليحصـــلوا على رضـــا الآلهة، وهكذا فعلنا نحن، ولكن إذا كانت آلهتنا لا تقوى على حماية أماكنها المقدسـة، فهم إذًا لا شـيء". ثم وقف وأشـار إلى بونيفاس وقال له: "أخبرنا أيها الرجل التقي عن إلهك". فأشار بونيفاس بيده إلى الناس ليقتربوا منه وقال لهم: "نحن نتحدث إليكم كرسل من الله، الذي لا تشبعه التقدمات أو الهدايا المالية، لكنكم ترتبطون به بالدم الذي سـفكه من أجلكم". وحاول قلة من الناس أن ينحنوا أمامه، ولكنه منعهم قـائلاً: "أيهـا الأحبـاء، نحن أنـاس خطـاة مثلكم، لكننـا نؤمن أن ابن الله رفع عنـا خطايانا على جســده، عندما مات من أجلنا على الصـــليب، فلكي تخلصـــوا، لابد وأن تؤمنوا به وتتبعوه وحده".

وشـعر بونيفاس بانفتاحهم لقبول يسـوع المسـيح، فلقد أصـغوا إلى كل ما قاله لهم. وانتهز بونيفاس الفرصـة، وأمر ببناء كنيسـة باسـتخدام خشـب الشـجرة المحطمة. وعندما انفتح الهسيُّون أكثر على المسيحية، كتب رسالة إلى مسيحيي إنجلترا وطنه، يحثهم على الانضـمام إليه في عمله. واستجاب المئات لطلبه وقال لهم: "دعونا نهب حياتنا من أجل كلمـة الله، فلا نكون مثل الرعـاة المـأجورين الـذين يفرون من الـذئـاب، ولكن لنكن رعـاة أمناء، يقظين على قطيع المسـيح. دعونا نعظ بكل النصـائح الإلهية للشـرفاء والأدنياء، للفقراء والأغنياء، لكل المســـتويات والأعمار بقدر ما يمدنا الله من قوة". ومن خلال جهودهم انضم إلى كنيسة المسيح المئات بل الآلاف من الهسيِّين.

وأوضـــح بونيفاس للمؤمنين الجدد، أنهم قد وهبوا حياتهم للرب قائلاً: "انصـــتوا لي أيها الإخوة، وانتبهوا جيدا لما قد جحدتموه في المعمودية، فلقد جحدتم الشـــيطان وكل أعماله، وأعمال الشـيطان هي: الكبرياء وعبادة الأصـنام والحسـد والقتل والكذب والسـرقة والزنى والإجهاض والإيمان بأعمال الســـحر، وغير ذلك من تلك الأعمال الشـــريرة. لقد

تعهدتم بأن تؤمنوا بالله الآب والابن والروح القدس الإله الواحد القدير في الثالوث المقدس، وتعهدتم بطاعة كل وصاياه".

واستطاع بونيفاس نتيجة لعمله المقرب مع بابا روما، أن ينظم الكنائس في كل أنحاء ألمانيا، وأن يؤسس أديرة لتدريب رجال الدين والعناية بالفقراء، وتعليم الأطفال ونسخ الكتاب المقدس. وكان بونيفاس يدرس الكتاب المقدس يوميًّا، مستخدمًا نسخة مكتوبة بخط كبير، وذلك لضعف بصره. وسعا لغرس احترام الكتاب المقدس في قلوب رجال القبيلة غير المتعلمين، فاعتاد بونيفاس قبل أن يعظ أن يقول: "انصتوا لسماع كلمة الله". وكان يمسك كتابًا كبيرًا للعهد الجديد مكتوبًا بحروف ذهبية.

لكن ويا للأسف، لم يكن بونيفاس لطيفا مع كل المسيحيين، خاصة من كان يخالف تعاليم الكنيسة الرومانية، مع أن الكثير من تلك التعاليم كان مخالفا للكتاب المقدس، فلقد كانت هناك مجموعة من المرسلين المسيحيين الرائعين في ألمانيا، كانوا قد وفدوا من أيرلندا واسكتلندا وبلاد أخرى، ولكن بسبب سماحهم للقسوس بأن يتزوجوا، ولعدم اعترافهم بالبابا رأسًا للكنيسة، تحدث بونيفاس ضدهم ورفض العمل معهم، حيث كان يؤمن أن المسيحية لن تنتصر على مقاتلي القبائل الوثنية، إلا من خلال ارتباطها القوي واتحادها بكنيسة روما.

ومع تقدم بونيفاس في العمر لم تفتر رغبته في تبشير الوثنيين، ففي عمر ٧٣ قرر أن يغادر ألمانيا ويبحر عبر نهر الرين مع بعض الرفاق إلى فريزيا (هولندا) ووعظ القبائل الوثنية هناك. كان بونيفاس يعرف أنه سيواجه الخطر، لذا حزم بعض الأمتعة للرحلة في صندوق خشبي، وأخرج من خزانته كفنه ووضعه في الصندوق واتخذ المركب المتجه إلى فريزيا. من خلال عظاته وعظات مساعديه، قبل الكثيرون المسيح واعتمدوا وحطموا أضرحتهم الوثنية وبنوا الكنائس بدلا منها؛ فغضب الكهنة ورؤساء القبائل الوثنية لتحول الكثيرين عن ديانتهم، فهددوه هو وأصدقاءه بالقتل إذا استمروا في عملهم التبشيري، ولكن بونيفاس وأصدقاءه استمروا في العمل ولم يتراجعوا.

في أواخر ربيع ٧٥٤ م، أقام بونيفاس ومساعدوه معسكرًا على نهر بوردا بالقرب من دوكوم، وجهز لتجمع كبير من المؤمنين الجدد، وفي الصباح الباكر من الخامس من

يونيو، عندما سقطت أشعة الشمس على السهل الأخضر، بينما كان بونيفاس جالسًا يقرأ الكتاب المقدس في خيمته، سمع صوتا بعيدا لجماعة كبيرة تقترب منهم، فاندفع خارجًا مبتهجا، متوقعا أن يرحب بالمؤمنين الجدد، لكنه رأى موجة من المحاربين الوثنيين بسيوفهم اللامعة يتسابقون فوق الأرض الفسيحة في اتجاه المعسكر، مما جعل أصدقاء بونيفاس يسرعون نحو أسلحتهم ليدافعوا عن أنفسهم، ولكنه أوقفهم، وبصوت هادئ قال: "تشجعوا أيها الأحباء، فهؤلاء لا يستطيعون إلا قتل الجسد، فهم لا يستطيعون أن ينالوا من أرواحنا، فوعود الله صادقة، واليوم سنكون معه في المجد الأبدي". بعد لحظات، تجمع الوثنيون وذبحوا بونيفاس وأغلب رفقائه.

وبنعمة الله، خلَّف وراءه تراثا عريقا من المسيحية الثابتة بقوة في ألمانيا، مؤسسًا كنيسة قوية ومنظمة جيدًا، ولهذا عُرف بونيفاس بـ "رسول ألمانيا".

...

شارلمان

حامي الكنيسة

شارلمان ٧٤٢ م – ٨١٤ م

نحو سنة ٧٨٠م، شاهد الباعة المتواجدون في السوق العامة، على الشاطئ الغربي لفرانك لاند، مشـــهدًا غريبًا، حيث علت أصـــوات اثنين من الرهبان الأيرلنديين فوق أصوات وَقْوقَةِ الدجاج، وصيحات باعة السمك الجائلين، يناديان قائلَيْن: "إذا أراد أحدكم الحصـــول على بعض من الحكمة، فليأتِ إلينا ليحصـــل عليها، فنحن نبيع لكم الحكمة"؛ فتجمع الفرانكلانديون وفغروا عيونهم على الغرباء الوافدين من الدير الأيرلندي الشـــهير، حيث يتم حفظ الكتب المقدســـة والكتابات القديمة ودراســـتها. ولعدة أيام لم يعرض الراهبان أي ســـلع، ولم يعرضـــا أيًّا من كتبهما، لكنهما ظلا فقط يناديان: "حكمة للبيع، تعالوا إلينا لتحصـــلوا على الحكمة". وضـــحك الكثير من المشـــاهدين واتهموهما بالجنون، لكن رجلا كان يعرف أن الملك يُعجب بالحكمة، ويجِدُّ في طلبها، فأرســـل رســـالة إلى القصـــر الملكي. وفور وصول هذا النبأ إلى الملك شارلمان، استدعاهما إلى قصره.

فذهب الراهبان إلى القصـــر، حيث تم اســـتقبالهما في غرفة العرش، وشـــعر الراهبان بالرهبة حتى بلل العرق أيديهما، فلقد كان الملك شـــارلمان معروفًا بأنه رجل حرب شـــرس، بل ورجل حديدي، يبلغ طوله ســـتة أقدام، مفتول العضـــلات وينســـدل شـــعره الأبيض الطويل على كتفيه، وتفرســـت فيهما عيناه الثاقبتان الواســـعتان، وكانت رجلاه ملفوفتين بشـــريط من القماش الأبيض، وكان يرتدي عباءة زرقاء طويلة ولباسا أسود لامعًا مصنوعًا من الفراء، وعلى جنبه سيف ذو مقبض ذهبي.

وسألهما الملك قائلاً: "هل صـحيح ما يقوله الناس بأنكما أحضـرتما الحكمة معكما؟" فأجاب الراهبان ورأســاهما منكســتان: "نعم لدينا الحكمة، وباســم الله نحن على أتم اســتعداد لتعليمها لأي أناس يســتحقونها ويســعون إليها". فنظر شــارلمان إلى الغريبَيْن، من قمة رأســيهما المحلوقة إلى أخمص أقدامهما، وســـألهما قائلاً:

"وماذا تريدون مقابل حكمتكما؟" فأجاباه: "نحن لا نطلب مقابلاً أيها الملك العظيم، ولكننا نطلب مكانا مناسبا لنقوم فيه بتعليم وتدريب ذوي العقول الموهوبة، وبالطبع سنحتاج إلى طعام وملابس، فبدون هذه الأشياء لن نستطيع إتمام عملنا". فأشرق وجه الملك بابتسامة عريضة، وربت بيده على ظهر الغريبين ورحب بهما في القصر الملكي. وللوقت أرسل أحد هذين الراهبين إلى إيطاليا لتنظيم دير ومدرسة، وأودع مسئولية مدرسة القصر في أيدي الراهب الآخر وقال له: "هذه المدرسة تضم أولاد النبلاء، وأيضًا أولادًا من أسر فقيرة أبدوا رغبة وقدرة على التعلُّم. وتحدَّى شارلمان الطلاب حتى يستخدموا عقولهم بأقصى درجة، وليعملوا بجد.

بعد بدء مدرسة القصر بفترة وجيزة، ذهب شارلمان ليشتبك في معركة خارج البلاد لفترة طويلة، وعندما عاد منتصرًا، استدعى كل الطلاب ليمثلوا أمامه في غرفة العرش، ليستعرض كتاباتهم وأشعارهم. وانبهر شارلمان من تعبيرات أبناء الأسر الفقيرة، أما أبناء النبلاء فقدموا أعمالاً رديئة. فنهض شارلمان من على كرسي عرشه ودعا الطلاب الذين أتقنوا عملهم، ليقفوا عن يمينه. وانحنى الملك بوجه مبتسم قائلاً: "أيها الأولاد، أشعر بالامتنان نحوكم، فلقد بذلتم قصارى جهدكم لتنفيذ أوامري، ولتتعلموا كل ما هو نافع لكم، فاستمروا في الدراسة بجد واجتهاد إلى التمام، وسأمنحكم أسقفيات وأديرة جيدة وستكونون دائما مكرَّمين في عيني".

ثم تحوّل شارلمان بوجه عابس إلى الطلاب الكسالى الأثرياء، الواقفين عن يساره فأرعد فيهم قائلاً: "أما أنتم يا أبناء محبي اللَّذات، يا من تعتمدون على انحداركم من أسر عريقة وغنية، فلم تبالوا البتة بأوامري بل أهملتم السعي وراء العلم، واسترسلتم في العبث وارتكاب الحماقات". ورفع شارلمان يده اليمنى نحو السماء وأقسم بيمين ضدهم وقال: "أقسم بملك السماء، أني لا أعترف الآن بنبلكم! وأؤكد لكم أنكم لن تحصلوا على أي شيء ذي قيمة من شارلمان، ما لم تصلحوا حماقتكم السابقة بالكد في الدراسة".

وعندما ذاع نبأ ترحيب الملك شـــارلمان بالراغبين في التعليم، إذا بعلماء من كل أوروبا جاءوا ليعرضـــوا عليه خدماتهم، وكان من بينهم "ألْكوِن"، وهو راهب إنجليزي وأحد أعظم معلمي الكتاب المقدس والأدب والعلم المعاصـرين. وقد أنشـأ ألْكوِن مدرسة قصر جديدة تعلَّم فيها أطفال شارلمان.

كان ألْكوِن يقول عن عمله: "أنا أوزع الشـــهد الذي بالكتاب المقدس، الخمر العتيقة التي من الدرجة الأولى، وثمر قواعد اللغة، والتألق المشرق للنجوم". وكان شـــارلمان نفســه يجلس في بعض المحاضـــرات، وكان يأمر بقراءة أشـــهر الكتب على الملأ أثنـاء تنـاول الوجبـات، وكـان الكتـاب المفضـــــل لـه "مـدينـة الله" لأغسطينوس. وأتقن المواد الدراسية بسرعة، وتعلم تحدث الكثير من اللغات.

وأمر شارلمان بإنشاء المدارس في أنحاء مملكته الواسعة، وأصـدر مرسـومًا يقول: "لتؤســـس مدارس للكهنـة في المدن والقرى، وكل من يريد تعليم أبنـائـه، فليعلمه الكهنة دون فرض أي رسوم". وبنى شارلمان الأديرة، ودفع تكاليف ترجمة ونســخ الكتب المقدســة، والمخطوطات القديمة التي تم جمعها من الأديرة البعيدة بأوروبا وأيرلندا وبريطانيا. وأعطى شـــارلمان تعليماته حتى يدرب الأســاقفةُ الكهنةَ تحت رعايتهم. في إحدى المرات كتب خطابا غاضـــبا إلى أســـقف ماينس يقول فيه: "يدهشني أنك في الوقت الذي تُعاني فيه لربح النفوس الضالة بمعونة الله، لا تهتم مطلقًا بتعليم رجال الدين القراءة الجيدة، فكل الناس الذين يعيشـــون حولك، يمكثون في ظلام الجهل، وبينما تســتطيع أن تضـــيء لهم بعلمك الشـــخصـــي، تتركهم ليعيشوا في عمى روحي". وانتعش التعليم والبحث في أوروبا الغربية بقيادة شارلمان وقدوته.

وســـعى شـــارلمان ليحكم مملكته لمجد الله، وكان توقيعه "تشـــارلز ملك الفرانكلانديين بنعمة الله". وكان يقول دائمًا: "تذكروا بأننا جميعا ســـنمثل أمام كرسي المسيح". واعتاد شارلمان على حضور خدمات العبادة كل يوم والمشاركة في صلوات الصباح الباكر وصلوات العشية. وبدت المراسيم التي كان يصدرها شـــارلمان في ذلك الوقت، كعظات أكثر منها تصـــريحات ملكية. وفي إحدى

المرات، قرأ المنادون واحدًا من تصـــريحاته في الميادين العامة، في كافة أنحاء المملكة قائلاً: "اسلكوا بالتواضع واللطف بعضكم نحو بعض، فالحسد والكراهية والعنف تبعد الناس عن ملكوت الله. اعترفوا بخطاياكم واعطوا للفقراء". وأخذ شارلمان على عاتقه مسئولية العناية بالفقراء، فكان يقول: "اجبروا خاطر الفقراء والأرامل والأيتام والغرباء واحموهم. لا يمنع أحد الملجأ أو الدفء أو الماء، عن المسافرين عبر أراضينا، فالله بنفسه قال: "كنت غريبًا فآويتموني". وأهدى شارلمان كميات كبيرة من ثروته للفقراء.

وكان شـــارلمان يقود قواته في المعارك مرتديًا درعًا حديديًّا من رأســـه إلى قدميه. وظل شارلمان يشن الحروب طوال الستة والأربعين عامًا التي حكم فيها، فاتســـعت مملكته أكثر من الضـــعف. أخيرًا امتد حكمه من بحر البلطيق حتى وصـــل إلى إيطاليا، ولم يصـــل حجم المملكة إلى هذا الحد منذ أيام الإمبراطورية الرومانية. وواجه جيشـــه أعظم تحدٍّ من الســـاكســـونيين في الشـــمال. كان الساكسونيون رجال حرب عُرفوا بالشراسة والتعلق الشديد بآلهتهم الوثنية، فكان شـــارلمان يقول: "من واجبي أن أدافع بنعمة الله عن كنيســـة الله، من اعتداءات الوثنيين". وعندما انتصر جيش شارلمان على الساكسونيين في المعركة، تعهدوا بالمحافظة على السلام والصداقة، ولكن عندما عاد جيش شارلمان إلى الوطن، دمر الساكسونيون الأديرة وهدموا الكنائس وذبحوا المسيحيين، وهرب المبشرون إلى فرانكلاند من الأراضـــي الشـــمالية، واســـتأنف البعض منهم عمله في الحال، عندما عاد جيش شـــارلمان مرة أخرى إلى الشـــمال. وذهب أحد المبشـــرين إلى شارلمان مرتعدا من العودة إلى الساكسونيين، وسأل الملك قائلا: "ماذا أفعل؟" فأجابه الملك بصوت عالٍ: "عليك أن تعود إلى حقل خدمتك في اسم المسيح". فذهب المبشر وربح العديد من الساكسونيين إلى الكنيسة المسيحية.

أخيرًا وبعد ثلاثين عامًا من الحروب، انتصر شارلمان على الساكسونيين وأسس حكمه عليهم. وفي أدراج انتصاراته، أرسل المبشرين لينشروا كلمة الإنجيل وليبنوا الكنائس والأديرة والمدارس. وجاء وقت كان شـــارلمان يجبر أســـراه على

قبول المسيحية والمعمودية، فاستاء العديد من هؤلاء الناس من المسيحية، لذا نصحه أَلْكُوِن أن يربح النفوس للمسيح من خلال التعامل معهم بلطف، والوعظ المُخْلِص عن المسيح، وقال له: "إذا تم تبشير الساكسونيين ذو العقول العنيدة، عن نير يسوع الخفيف، مثلما نخبرهم عن واجبهم لدفع المال، حينئذ ربما لا يرفضون سر المعمودية، فما فائدة المعمودية دون الإيمان؟ فنحن نستطيع أن نجبر الناس على المعمودية، ولكننا لا نستطيع أن نجبرهم على الإيمان". وعمل شارلمان بنصيحة أَلْكُوِن، وقدم المسيحية لأسراه بأسلوب أكثر لطفًا.

وفي شتاء عام ٨٠٠ م، نهض شارلمان لمساعدة البابا ليو الثالث، الذي تعرض لهجوم الرعاع الذين عزلوه، فتحرى شارلمان عن تلك الواقعة وأعاد تنصيبه مرة أخرى. وفي يوم عيد الميلاد، تعبد شارلمان مع البابا ومع جمهور كبير في كنيسة القديس بطرس في روما. لقد كانت الكنيسة مزيَّنة بالذهب والستائر الأرجوانية المطرزة، تتلألأ بضوء آلاف الشموع، وقرب انتهاء الخدمة، عندما نهض شارلمان من الصلاة، وضع البابا تاجًا من الذهب على رأسه وكساه بثوبٍ إمبراطوري أرجواني اللون، وانحنى أمامه وقبَّل طرف ثوبه، ثم صاح كل الحاضرين في الكنيسة قائلين: "ليحيا الملك تشارلز أغسطس إمبراطور روما العظيم الذي توَّجَه الله، ولتدم انتصاراته". ومنذ ذلك اليوم لُقب شارلمان بإمبراطور روما.

وبالرغم من أن حياة شارلمان كانت مليئة بأعمال تستحق الثناء، إلا إنها كانت ملطَّخة أيضا بخطايا خطيرة. في بعض الأحيان كان قاسيا جدًّا، ففي إحدى المرات أمر بإعدام ما يزيد عن أربعة آلاف من الجنود الأسرى العُزَّل، كما أنه تزوج وطلق عدة مرات في شبابه، وأيضًا في مشيبه، متعديًا بذلك على الوصايا الإلهية التي تتعلق بالزواج.

وقبل وفاته بعدة أيام، توَّج شارلمان ابنه لويس إمبراطورًا في حضور محفل كبير من رجال الدين والنبلاء، واستحثه أن يحب الله ويخافه، وأن يسوس الكنيسة ويدافع عنها، وأن يهتم بالفقراء ويحكم بالعدل. وعندما وضع التاج الذهبي على

رأس ابنه قال: "مبارك الله الذي سمح لي برؤية هذا اليوم الذي يُنصب فيه ابني على عرشي".

وبعد فترة وجيزة، رقد شارلمان في فراش المرض، وفي صباح يوم وفاته، رفع يده اليمنى مرتعشة نحو السماء ورسم علامة الصليب، ثم أغلق عينيه وأخذ يرتل بصوت ضعيف: "يا إلهي بين يديك أستودع روحي".

ولم تعُد الكنيسة في أوروبا على حالها بعد حكم شارلمان، فلقد حمى قوة وسلطان البابا، ونشر المسيحية في كافة البلدان الوثنية، وشجع التعليم المسيحي. لكن حكمه أثار بعض التساؤلات مثل: "هل لا بد أن يكون الملك قائدًا روحيًّا ويقود الكنيسة؟ وكيف ينبغي أن تكون العلاقة بين الكنيسة والدولة؟" فقد ظل الملوك ورجال الدين يتصارعون لقرون، ليحصلوا على السلطة الأرضية والروحية.

...

ألفريد العظيم

ملك مسيحي

الملك ألفريد العظيم ٨٤٧ م – ٨٩٩ م

منذ زمن بعيد، عندما كانت إنجلترا تحت حكم الملوك الساكسونيين، كان "الفايكينجز" يهجمون على البلاد ويسلبونها، لذا خرجت مجموعة من رهبان "كراولاند أبي" في أحد الأيام ليحمّلوا السفن بالأدوات الفضية والأعمال الفنية والمخطوطات وبعض الكنوز الأخرى بكل جد. وأبحر ثلاثون من هؤلاء الرهبان عبر النهر ليصلوا بحمولتهم النفيسة إلى بر الأمان، وبقى "أبوت ثيودور" مع مجموعة من الرهبان كبار السن وبعض الأطفال، فتفكر ثيودور في نفسه: "إن الفايكنجز سيجدون أننا بلا حماية، وهذا سيكبح غضبهم".

بدأ ثيودور ومن معه في إخفاء باقي الأشياء الثمينة، ولبسوا ملابسهم الكهنوتية وبدأوا في التعبد في الكنيسة. ولكن قلوب "الفايكينجز" المشتعلة بالكراهية تجاه المسيحية، وشهوتهم في سلب الثروة، جعلتهم يهجمون على كنيسة الدير بسيوفهم اللامعة ويقطعون ثيودور، ويذبحون الآخرين وكوَّموا كل الأجساد وأشعلوا فيها النيران، وبعد سلب الدير، تركوه يشتعل وخروجوا لسلب باقي المنازل والكنائس والأديرة.

وصرخ مسيحيو إنجلترا إلى الله قائلين: "يا رب نجنا من غضب الشماليين"، ولكن المذبحة والدمار استمرا لسنوات. وأثبتت مملكة الساكسونيين المنقسمة بأنها غير قادرة على مواجهة الغزاة. وكان ساكسونيو إنجلترا ينحدرون من ساكسونيو ألمانيا الذين كانوا يعبدون الأصنام، ثم استقروا في إنجلترا وقبلوا المسيح هناك. ومع كل هذا الدمار لم يتمكن أحد - ولاحتى الملك ألفريد ملك "وِيسِكْسَ الجَسور، الذي انحدر من غرب ويسِكْس - من طرد الفايكنجز" من المملكة، بالرغم من كل الصلوات التي رفعها، والأصوام التي كرسها، والمعارك التي قادها. وعلى مدى سبعة أعوام قاد العشرات من المعارك وعددًا لا حصر له من المناوشات، ضد جيش "الفايكنجز" المزودين بسلاح أفضل، يحذوه أمل ضئيل في النصر النهائي.

وفي كل عام كان المزيد من سفن "الفايكنجز" تأتي محملة بجنودهم إلى شاطئ إنجلترا. وهرب الكثير من الساكسونيين إلى ما وراء البحار، أما الباقون، باستثناء الملك ألفريد، فخضعوا لسلطة "الفايكنجز". وأخيرًا تمكن "الفايكنجز" من طرد ألفريد من قلعته إلى المستنقعات عند الحافة الغربية البعيدة لمملكته. وظن أغلب رعيته أنه لقي مصرعه. وهناك تمكن مع مجموعة من رجاله الأوفياء - بالرغم من شعورهم بالبرد وعدم الحصول على ما يكفي من الطعام - من الإغارة على طلائع من "الفايكنجز، ورسم الخطط لينقذ مملكته من الدمار.

خلال هذه الشهور التي امتلأت بالمعارك، استمر ألفريد في ممارسة عبادته اليومية، فكان يستيقظ قبل شروق الشمس دون معرفة أهل بيته، وكان يتسلل ليذهب إلى الكنيسة ليتعبد. كان يسجد منبطحًا أمام الله على الأرض الحجرية الباردة، ليلتمس رحمته وإرشاده. وقد كانت المزامير التي حفظها ألفريد عن ظهر قلب، تملأ صلواته في تلك الأيام المظلمة: "خلصني يا الله لأن المياه قد دخلت إلى نفسي. غرقتُ في حمأة عميقة وليس مقر. مركبات الله ربوات ألوف مكررة. الرب فيها. ولكن الله يسحق رؤوس أعدائه. اللهم أسرع إليَّ.معيني ومنقذي أنت.يا رب لا تبطؤ".

ولم ينتظر طويلاً، ففي عام ٨٧٨ م، ظهر له بريق أمل وأتيحت له الفرصة، عندما وجد دوق ديفونشير، الذي كان صديقًا لألفريد، أن قلعته محاطة "بالفايكنجز" هجم عليهم ألفريد بغتة مع بزوغ الفجر، وذبح رئيسهم وأجبر العدو على الهرب. لقد أحيا هذا الانتصار الساحق، الأمل في الحرية في قلوب الساكسونيين. وانتهز ألفريد الفرصة وأرسل رسله إلى كل أنحاء البلاد، ليستدعي النبلاء والأحرار والفلاحين ليجتمعوا في "غابة سيلوود" عند "حجر إيجبرت". وفي اليوم المحدد في أوائل شهر مايو، سافر الآلاف من الساكسونيين في الظلام لمقابلة ملكهم، وملأت الدموع عيون الرعية عند رؤية ألفريد، الشاب المفتول العضلات البالغ من العمر ثلاثين عامًا، فكان لهم كما لو كان قد قام من الأموات. ورنَّت القرون وامتلأت الغابة بصيحات الفرحة، عندما كانوا يحيُّون

الملك ألفريد، الذي قادهم في الصـــلاة ورفع التنين الذهبي، الذي كان رايتهم في الحرب، ودعاهم أن يستعدوا للحرب. وبالهتافات انتقل الأمر من شخص إلى آخر أننا: "غدًا سنخرج لمواجهة العدو".

وسـمع الفايكنجز الشـائعات بأن السـاكسـونيين قد عادوا ليحاربوا، فحشـدوا جنودهم عند "إدينجتون" بقيادة جوثرام قائدهم العظيم. وبعد السـير ليومين، لمع درع ألفريد وسيفه تحت ضوء الشمس التي كانت على وشك المغيب، وقاد ألفريد جيشـه إلى سـاحة القتال، وشـكَّله على هيئة حائط دفاع قوي. فصـدوا هجمات فرسان ومشاة العدو واحدة تلو الأخرى، وعندما بدأ جيش العدو في التراجع، هجم السـاكسـونيون بشـراسـة وذبحوا "الفايكنجز" حتى تفرق جيشـهم وفروا من أمامهم، وطاردهم ألفريد وجيشـه واخترقوا صـفوفهم، وطارد "جوثرام" وما تبقى من جيشـه، حتى حاصـرهم في إحدى القلاع القريبة. وبعدما أمضـوا أربعة عشـر يومًا، عانوا فيهـا من العطش والجوع، وخوفًـا من الموت طلبوا من ألفريـد أن يعرض عليهم شروط الاستسلام.

ولكن العاطفة المسـيحية حركت قلب ألفريد، وأملاً في تحقيق سـلام دائم، عرض عليهم شـروطه المليئة بالكرم واللطف، ومنح ألفريد "جوثرام" وأتباعه الحياة والحرية، بشـرط أن يرحلوا بسـلام من مملكته، والتعهد بعدم شـن أية هجمات أُخَر على ويسـكس. علاوة على ذلك فقد قبل "جوثرام" المسـيح واعتمد. وبعد ثلاثة أسـابيع، وبعد مغادرة ما تبقى من جيش "الفايكنجز" من ويسِـكْس، عاد جوثرام، ومعه ثلاثون من أفضـل رجاله، إلى مقر قيادة ألفريد الذي رحب بهم كأصـدقاء وكضـيوف كرام، وعندما جاء موعد معمودية جوثرام، ارتدى ثوبًا أبيض طويلاً، ووقف إلى جانب ألفريد الذي خدم كعرَّابٍ لِهِ أثناء المعمودية، وبعدما عمده الكاهن باسم الآب والابن والروح القدس، حضن ألفريد عدوه القديم، واتخذه ابنا له بالتبني. وقضـى السـاكسـونيون الإثني عشـر يومًا بعد هذا الحدث في الاحتفال، وقدم ألفريد لجوثرام ورجاله الكثير من الهدايا. في السنوات التالية رجع الكثير من الفايكنجز من الوثنية إلى المسيحية.

وبهزيمة الشـــماليين، وجَّه ألفريد كل مجهوداته لإعادة بناء مملكته. منذ صباه كان ألفريد يتخذ من شارلمان، الملك المسيحي العظيم للفرنكلانديين، مثله الأعلى، فغيرة شـارلمان الدينية ومحبته للعدالة والتعليم المسـيحي، سـاهمت في تشكيل رؤية ألفريد لمملكته. ولكن وِيسِكْس كانت تعاني من الدمار، والمدن دون دفاع، وكانت الكنائس والأديرة مدمَّرة، ولقي معظم السـاكسـونيين المتعلمين مصـرعهم أو كانوا في المنفى، وانحل الأمن والقانون وظلت جحافل الفايكنجز، التي لا تتصـل بجوثرام، تشـكل تهديدًا مسـتمرًا. وقال ألفريد: "أنا لا أشـتهي هذا المُلك الأرضـي، ولكنني أشـعر بأنه العمل الذي أوكلني الله عليه". فحصَّـن المدن وأحاطها بالقوات لصد أية هجمات فجائية. وزاد ألفريد من عدد الفرسان المسلحة، ليواجه جيوش الفايكنجز السريعة، وبنى أسطولا بحريًّا ليهزم الغزاة قبل أن يصـلوا إلى الشاطئ.

بعدما تقصـى ألفريد أحوال الشـعب، والفسـاد الروحي الذي وصـلوا إليه، وانحلال القانون والنظام، كتب يقول: "لقد سـلبنا الوثنيون جميعا". واسـتخدم كلمة الله وبعض القوانين الساكسونية القديمة، كإرشاد لسَنِّ قوانين جديدة للمملكة. وكان ألفريد يعلم أن الله أعظم مَنْ يسـن القوانين، وهو الحاكم العادل، لذا بدأ ألفريد قوانينه بهذه الكلمات: " أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصـر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. " وأدرج ألفريد باقي الوصـايا العشـر ضمن القوانين، وأيضًا بعضًا من أصحاحات سفر الخروج التي تضمنت شريعة موسى، وبعضًا من الوصايا المسيحية التي ذُكرت في العهد الجديد. كما اشتمل القانون على قائمة من جرائم محددة والعقوبات التي تُتخذ ضدها.

وغالبا ما كان يجلس ألفريد في الجلسـات الرسـمية، ليراقب حكمة القضـاة وعدالتهم، وكان يستعرض الكثير من الأحكام، خاصة القضايا التي كانت تتعلق برعاية الفقراء. وكان يعتبر أن تحسين حالهم لهُوَ من الأوامر الإلهية. وإذا بدا له أن أحد القضاة قد حكم حكمًا غير عادلٍ، كان يستدعي القاضي ليمثل أمامه في حجراته الملكية ويسأله: "لماذا حكمت بمثل هذا الحكم الظالم؟ هل كانت تنقصك

المعلومات؟ هل فضلت طرقًا عن الآخر؟ أم أخذت رشوة؟" وقد اعترف الكثيرون بأنهم لم يتصرفوا بحكمة، وكان ألفريد يوبخهم ويقول: "أنا مندهش من غطرستكم، فمن خلال السلطة الممنوحة لكم من الله ومني، أخذتم مناصب الحكماء واستمتعتم بمزاياها، ولكنكم أهملتم دراسة الحكمة وتطبيقها، فأنا آمركم إما بالتنحي الفوري عن مناصبكم، أو أن تكرسوا أنفسكم للسعي وراء الحكمة". فكانوا يتعهدون جاثين على ركبهم، أن يسلِّموا أنفسهم للحكمة والعدل. ومن يفشل في فعل ذلك كان الملك يستبعده من وظيفته.

وندب ألفريد جهل شعبه وكتب لأحد أصدقائه يقول: "كثيرًا ما يأتي على ذهني إنجلترا، وكم كانت ممتلئة بالحكماء سابقًا، وكم كانت الأوقات سعيدة حينذاك، قبل نهب وحرق كل ما كان بالمدينة، فكان رجال الدين يقومون بخدمتهم أمام الله بغيرة، وكان الغرباء يأتون إلينا بحثا عن الحكمة والتعليم. والآن علينا أن نبحث عن الحكماء في الخارج، إذا أردنا الحصول عليهم. عندما اعتليت العرش، لا أذكر أني وجدت رجلاً واحدًا يستطيع أن يترجم خطابًا من اللاتينية إلى الإنجليزية". لذا أخذ ألفريد يبحث عن رجال متعلمين من كافة أنحاء إنجلترا وأوروبا، وكان يدفع لهم أجورهم بسخاء. وكرس الكثير من الأموال لإعادة بناء الكنائس والأديرة، وتحدَّى الرهبان والكهنة ليكرسوا أنفسهم للتعليم وكان يقول: "أتمنى أن يحصل كل الشباب، الذين ولدوا في عصر الحرية، على قدر كافٍ من التعليم حتى يتمكنوا من قراءة الكتابات الإنجليزية جيدًا". والشباب الذين أبدوا تقدما أكاديميًّا، حصلوا على بعض التعليم اللاتيني، كما درسوا الأدب الروماني واليوناني وكتابات آباء الكنيسة.

وقام ألفريد نفسه بصياغة حب المعرفة. وفي أحد الأيام بينما كان يجلس مع أحد أصدقائه المثقفين ومستشاره "آسر" وهما يتناقشان في مواضيع شتى، قرأ آسر بصوت مرتفع، فقرة مكتوبة باللاتينية. وابتهج ألفريد عند استماعه لتلك الفقرة وطلب منه أن ينسخها له في كتيب، وكان ألفريد يحمله معه دائما. واكتشف "آسر" أن ألفريد قد ملأ كل الصفحات البيضاء بالكتيب بالصلوات وبعض فقرات

من الكتاب المقدس والشعر. وعندما وجد "آسر" إنه لا يوجد مكان ينسخ فيه فقرة، قال لألفريد: "هل تقبل بأن أنسخ لك الفقرة على قطعة أخرى من الرقوق؟" فوافق ألفريد، فطوى "آسر" عدة قطع طويلة من الرقوق معًا ليصنع منها كتيبًا. وكان ألفريد ينظر له ويستحثه ليسرع. وقبل انتهاء اليوم، كان "آسر" قد نسخ أربع فقرات باللاتينية في الكتيب، وجلس ألفريد في الحال ليترجمها إلى الإنجليزية.

وكتب آسر فيما بعد قائلا: "رفعت يدي نحو السماء وشكرت الله القدير، الذي زرع في قلب الملك مثل هذا الحماس العظيم لطلب المعرفة".

وبينما كان ألفريد يتوسع في عمل الترجمة، رسم خطة وقال: "لقد تذكرت كيف كُتب الكتاب المقدس في أول الأمر باللغة العبرية، وعندما تعلمه اليونانيون ترجموه وترجموا كل الكتب الأخرى أيضًا، إلى لغتهم. وهكذا ترجم باقي المسيحيين الكتاب المقدس، وبعض الكتب الأخرى إلى لغاتهم. لذا يبدو أنه من المفضل أن نترجم بعض الكتب المهمة إلى اللغة التي نفهمها جميعًا، الكتب التي يلزم أن يعرفها كل الناس". وقاد ألفريد الطريق بترجمة كتب لأغسطينوس وغرغوريوس وأعمال تاريخية وأشعار إلى الإنجليزية. وبالمجهودات التي بذلها ألفريد، تم إحياء التعليم في إنجلترا.

وبنجاح إصلاحات ألفريد، وعودة المملكة لرفاهيتها، تعهد بأن يهب نصف دخله السنوي لله شكرًا له. وبفرح كرس ألفريد نصف الدخل الملكي لدعم رجال الكنيسة، في أعمالهم لخدمة الفقراء ولبناء الكنائس والأديرة والمدارس الكنسية. كما نذر نذرًا خاشعًا بأن يهب نصف وقته وطاقته بالنهار وبالليل لخدمة الله. وأثناء ملكه، كان ألفريد يكتب صلواته: "أيها الحكيم، لقد سعيت أن أعيش بصلاح عندما كنتُ حيًّا، وأن يتذكرني الرجال الذين سيأتون بعدي بالأعمال الصالحة".واستجاب الله لصلوات الملك ألفريد بطريقة رائعة، وظلت البشرية لقرون، تكرم ذكرى هذا الرجل الصالح والتقي، وهو الوحيد دون جميع ملوك وملكات إنجلترا الذي لُقب بـ "العظيم".

...

أنسيلم

لاهوتي وراهب ورئيس أساقفة

أنسيلم ١٠٣٣ م –١١٠٩ م

نحو سنة ١٠٤٠ م، كان يعيش شاب صغير يدعى "أنسيلم"، في مدينة صغيرة تسمى "أَوُستا"، شمالي إيطاليا عند أسفل جبال الألب. وتميزت هذه المدينة باخضرارها وأصوات جداول المياه المنحدرة من أعلى الجبال. واعتاد "أنسيلم" أن يحملق لساعات إلى قمم الجبال المكسوة بالثلج. وعندما أخبرته والدته عن الإله الواحد الحقيقي الذي يملك في الأعالي، ظن "أنسيلم" أنها تقصد أن الله يسكن على قمم جبال الألب، فكان ينظر إلى الجبال المستَّنة ويتساءل: "أي من تلك القمم الشاهقة المكسوة بالثلج تقود إلى الله؟"

وفي إحدى الليالي رأى الله في حلم يدعوه للصعود إلى قمة الجبل، وعند اقترابه من أسفل الجبل، رأى خدام الله يحصدون في حقول ذهبية من الحبوب بكسل وإهمال؛ فسخط "أنسيلم" على كسلهم وقرر أن يخبر الله عن كسلهم، فأسرع وتسلق الجبل حتى وصل إلى حجرة العرش الكبيرة. فحياه الرب بابتسامة ودعاه ليجلس عند قدميه، وتحدث معه بأسلوب ودّي لطيف، وأخبره "أنسيلم" عن كل ما في قلبه. وفي استمتاعه بمحبة الله، نسي التقرير السيئ عن الحصادين الكسالى الذي اعتزم أن يخبر الله به، ثم استدعى الله الوكيل المسئول الذي أحضر معه خبزًا شديد البياض، لم يكن "أنسيلم" قد رأى مثله من قبل. وتناول "أنسيلم" من هذا الخبز الشهي في محضر الله فانتعش. وعندما استيقظ في الصباح، آمن "أنسيلم" أن ما اختبره على قمة الجبل في الحلم كان حقيقيًّا، وأخبر أسرته وأصدقاءه وكل أهل المدينة، بأنه "ذهب إلى السموات وأكل من خبز الله". ولما نمت معرفة "أنسيلم" بالله، لم يفقد أبدًا حماسة طفولته وفرحه بالرب.

وقامت والدة "أنسيلم" بتعليمه الإيمان المسيحي، لذا عندما حاول أصدقاؤه أن يغروه ليخطئ، فإن محبته لوالدته واحترامه لها، حالاَ بينه وبين الشر. ولكن

والدته ماتت عندما بلغ سن المراهقة وأصبحت حياته جحيما، بسبب والده الشرير الذي كان يعذبه. وبذل "أنسيلم" كل ما بوسعه ليرضي والده، ولكن كلما كان يعمل على إرضائه، كلما زاد غضبه. وبروحه المنسحقة، وخوفًا مما قد يؤذيه، هرب "أنسيلم" من منزله ومن بلده وبدأ حياته في أرض غريبة.

وبعد مرور بضعة أعوام، تجول فيها "أنسيلم" في أنحاء أوروبا، استقر في دير "بيك": بنورماندي. وكان هذا الدير جديدًا، شُيِّد على ضفة أحد الجداول التي كانت تتدفق خلال المروج، محفوفا من جانبيه بالتلال المليئة بالأشجار. وترأس هذا الدير "لانفرانك" الذي كان عالمًا ومعلمًا عظيمًا، وجعل منه أهم مركز تعليمي في المنطقة، فكان الرهبان ينسخون المخطوطات، وكان "لانفرانك" يكتب الكتب، وكان كل فرد في هذا الدير، حريصًا على إتمام عمله وصلواته. وقام "لانفرانك" بإلحاق مدرسة بالدير، وقد التحق "أنسيلم" بهذه المدرسة عندما بلغ العشرين عامًا. وقد تسبب ذكاء "لانفرانك" وتكريسه في إلهام "أنسيلم" حتى يسعى هو الآخر ليكون مع الله ولتزداد معرفته. وقرر "أنسيلم" أن يهب حياته لله في بيك وقال في نفسه: "أريد أن أصبح راهبًا ولكن، أين؟" فقد استبعد أديرة كثيرة عُرفت بأنظمتها الصارمة التي قد تعيق دراسته وكتاباته؛ لذا أخذ يفكر مرة أخرى في دخول دير بيك ولكنه قال: "لا، ففي دير بيك لن أكون سوى شيء حقير، وذلك بسبب قدرات "لانفرانك" الرائعة. عليَّ أن أذهب إلى مكان أستطيع فيه أن أعرض معرفتي من جانب، ومن جانب آخر أخدم الآخرين". وحالما اكتشف "أنسيلم" غروره قال في نفسه: "لماذا يرغب راهب في الحصول على كرامة ومجد أكثر من الآخرين؟ ابتعد عن هذا الفكر، واطرح تمرُّدك جانبًا، وكن راهبًا في المكان الذي تكون فيه أصغر الكل". وهكذا حلق "أنسيلم" رأسه، وارتدى زي الرهبان ودخل دير "بيك". وقد ساعده كَدُّه في العمل وتكريسه لله ومحبته للآخرين، في اكتساب إعجاب الإخوة. وفيما بعد، عندما ترك "لانفرانك" بيك ليعمل في مكان آخر، اختار الرهبان "أنسيلم" بالإجماع ليقودهم.

وكان "أنسيلم" يكتب في الأوقات التي لم يكن يقود العبادة فيها أو يصلي أو يقود الرهبان أو يعلم الأولاد. وتفوَّق "أنسيلم" في دراسة الكتاب المقدس والتأمل فيه، وكَتب كُتبًا كثيرة، منها المعروف إلى الآن الذي يشرح كيف أن موت المسيح على الصليب، وفَّى عدالة الله وكرامته. وقد نالت كتاباته أعلى تقدير في كل أنحاء أوروبا، وأجبرت اللاهوتيين والفلاسفة على إعادة التفكير في مفاهيمهم في الكثير من الأمور.

وكان "أنسيلم" يقول: "أنا لا أسعى للفهم حتى أومن، ولكني أومن حتى أستطيع أن أفهم". لقد ظن الرهبان ورجال الدين أنه بسبب موهبة "أنسيلم" العقلية؛ يجب أن يكرس المزيد من الوقت لكتاباته، وأن يترك تعليم الأولاد في مدرسة الدير، وسألوه: "لماذا تبدد الكثير من وقتك في تعليم الأولاد الكبار والشباب؟" فأجاب "أنسيلم": "إن الشاب يشبه قطعة من الشمع، فإذا كان الشمع شديد الصلابة أو شديد الليونة، فلن نحصل على أجود صورة إذا ضغطنا عليه بالختم. وهكذا الحال مع أعمار الناس، فإن المسنين غير المدرَّبين على الحق الإلهي، يشبهون الشمع الصلب، والأولاد الصغار غير القادرين على فهم الحقائق الروحية، يشبهون الشمع السائل، لا يمكنهم قبول الختم، أما الشاب فهو مرن، إذا علمته يمكنك تشكيله كما تريد، ولمعرفتي بهذه الحقيقة، فأنا أراقب هؤلاء الشباب بانتباه شديد، وأحرص على كبح كل أخطائهم في مهدها، حتى يستطيعوا أن يشكلوا أنفسهم على غرار الأتقياء، إذ قد تدربوا التدريب الصحيح في ممارسة القداسة".

ذات مرة كان يزور الدير أحد رؤساء الأديرة، وتقدم بشكوى إلى "أنسيلم" عن صعوبة تدريب الأولاد، هو يهز رأسه باشمئزاز قائلاً: "ما أطلبه هو أن تنهي عملك معهم، فهم وحوش لا تقبل الإصلاح، ونحن لا نتوقف عن ضربهم بالليل أو بالنهار، وكل ما يحدث أنهم يصبحون أشر حالاً". فتعجب "أنسيلم" واستعاد ذكريات قسوة والده، وسأله: "لا تتوقفون عن ضربهم؟ وكيف سيصبحون برأيك عندما يكبرون؟" فأجابه رئيس الدير الزائر: "بهائم غبية"؛ فقال له "أنسيلم": "وهل

تربيهم ليصـــبحوا بهائم؟ قل لي، ما الذي يحدث إن زرعت شـــجرة في حديقتك وطوقت كل جوانبها بحيث لا تســـتطيع فروعها أن تمتد في أي إتجاه، فكيف ستكون هذه الشجرة؟" فأجابه رئيس الدير الزائر: "ستصبح شجرة بلا فائدة. وتكون جميع فروعها مجدولة ومعقودة". فقال له "أنســـيلم": "ألا يكون هذا الخطأ خطأك أنت؟ فأنت من أجبرتها على النمو غير الطبيعي، وهكذا سيكون الحال مع الأولاد الذين تعاملهم بصرامة وبلا حب أو لطف". وأشار عليه "أنسيلم" باستخدام الحب وضبط النفس، لتدريب قلوب التلاميذ ليكونوا لله. فنكَّس رئيس الدير رأسه وانحنى على الأرض وقال: "لقد حدنا حقًّا عن طريق الحق"، وغادر المكان عازمًا على تدريب الأولاد بمحبة.

وكان "أنسيلم" يستخدم الأحداث اليومية لتعليم الحقائق الروحية، ففي إحدى المرات، عندما خرج مع بعض الرهبان راكبين الخيل، كان هناك أرنب يحاول الهرب من بضعة كلاب تريد أن تلتهمه؛ فاختبأ بين أقدام حصان "أنسيلم"، فكبح "أنســـيلم" جماح حصـــانه ووقف حتى يتمكن الأرنب المرتعد، من أن يختبئ في أمان تحت الحصان. وأخذت الكلاب في النباح بصوت مرتفع وتضرب الأرض ببراثنها، ولكنها لم تســـتطع أن تجبر الأرنب على الجري من أســـفل الحصـــان. وضحك بعض الرهبان وسخروا من الأرنب الواقع في مأزق، فقال لهم "أنسيلم"، بينما كانت الدموع تنهمر من عينيه: "أتضـــحكون على الأرنب؟ لا يوجد ما يُضـــحك في هذا الحيوان التعس، فأعداؤه يحيطون به من كل جانب، وخوفًا على حياته هرب إلينا كي ننقذه. وهكذا الحال مع روح الإنسان، فالأرواح الشريرة تقف متأهبة لتحاصرها وتطرحها في الموت الأبدي، فتنظر الروح حولها بحذر، تبحث عن يد تحميها، ولكن الأرواح الشـــريرة تضـــحك وتُسَـــرُّ عندما لا تجد الروح من يســـاعدها". فطارد "أنســـيلم" الكلاب وقفز الأرنب هاربًا، فتوقف الرهبان عن الضحك وتعلموا درسًا في الشفقة.

وأثناء السـنوات التي خدم فيها "أنسـيلم" في بيك، غزا ويليام دوق نورماندي إنجلترا وانتصـر على السـاكسـونيين في معركة هاسـتنجز. وشـيَّد ويليام كاتدرائية

حجرية في كانتربري، ودعا لانفرانك ليصـــبح رئيس أســـاقفة كانتربري ورئيس الكنيسـة في إنجلترا. وبعد وفاة ويليام المنتصـر، أخذ "ويليام روفوس" ابنه مكانه، واسـتخدم الكنيسـة والمملكة لإرضـاء نزواته، وتفاخر قائلا: "لن يجعلني الله رجلاً صـالحًا". وبدأ الملك في بيع المناصـب الكنسية لأعلى مُزايد، وكان يرفض تعيين أسـاقفة بدلا من الذين ماتوا، حتى يسـتحوذ على أملاك الكنيسـة لنفسـه، فكان يقول: "إن كنيسـة المسـيح غنية، فلماذا لا أحصـل على جزء مما تمتلكه لنفسـي". وعندما مات لانفرانك عام ١٠٨٩، لم يعيّن الملك رئيس أســـاقفة جديد على كانتربري.

وسافر "أنسيلم" إلى إنجلترا عام ١٠٩٣ ليبدأ في إنشاء دير ومدرسة. وعندما وصـل إلى كانتربري، بايعه رجال الكنيسـة والشـعب ليكون رئيس أسـاقفة، ولكن "أنســيلم" كان يرغب في أن يظل راهبًا بســيطًا، لذا فرَّ من المدينة ليهرب منهم. بعد فترة وجيزة، تقابل أنسـيلم مع الملك "ويليام روفوس" ليخبره عن خططه بشـأن الدير، وعندما جاء إلى البلاط الملكي، نهض الملك من عرشـه ليحيي "أنسـيلم" عند الباب، وبعد أن دار بينهما حديث مرح، طلب "أنسـيلم" أن يتحدث مع الملك على انفراد، وفي هذا الحديث وبخه "أنسيلم" على انتهاكه الشرير للكنيسة، فاغتاظ الملك وقرر ألا يتدخل "أنسيلم" في شؤونه الخاصة.

وســرعان ما داهم الملك مرض خطير وأصــبح مهددا بالموت، فنصــحه النبلاء بتعيين "أنسـيلم" رئيس أسـاقفة على كانتربري. وعندما سـمع رجال الدين والشعب بهذه الأنباء، انفجرت منهم صيحات الفرح والتصفيق، ولكن "أنسيلم" قاوم هذا القرار بكل قواه وتوســل إلى النبلاء والأســاقفة قائلاً: "أنا رجل مُسِــن، كيف أتحمل مسـؤولية الكنيسـة الإنجليزية؟ أنا راهب، فلا تدخلوني في أشـياء لم أحبها قبلا، كما إني غير كفء لها".

ولم يقبل "أنسيلم" هذا التنصيب، وقبل أن يهرب أمسكه الشعب وأخذوه بالقوة إلى الكنيســة وهم فرحون ويرددون التراتيل. ورُســم "أنســيلم" رئيس أســاقفة على كانتربري، فبدأ العمل وهو محبط مشتاقًا إلى العودة إلى بيك. وتعافى الملك وقاوم

جهود "أنسيلم" في إنهاء بيع المناصب الكنسية وإيقاف الفساد في الكنيسة. وسعى "أنسيلم" إلى حماية الكنيسة من الملك الجشع وليحفظ حق الكنيسة في أن تحكم نفسها.

واعتقادًا من الملك بأنه يمتلك أراضي الكنيسة، قال لأنسيلم: "أليست هي ملكي حتى أفعل بها ما أشاء؟" فرد عليه "أنسيلم" بغضب: "ملكك، حتى تحميها وليس لتبددها وتدمرها". وأخيرًا قام الملك بنفي "أنسيلم" من المملكة. وبعد موت "ويليام روفوس" أمر الملك هنري الأول بعودة "أنسيلم" إلى إنجلترا، ولكن عندما رفض "أنسيلم" الأساقفة ورؤساء الأديرة الذين عينهم الملك دون موافقة الكنيسة، هدده الملك، فرد عليه "أنسيلم" قائلاً: "أنا لا أخشى النفي أو الفقر أو التعذيب أو الموت لأن الله يقويني". فطرده الملك هنري من كانتربري. ولكن بعد مضي ثلاث سنوات رق قلب الملك ووافق على منح الكنيسة سلطة تعيين المناصب الكنسية. وعاد "أنسيلم" إلى كانتربري، وسط ترحيب صاخب، وقام بتعيين أساقفة ورؤساء أديرة أتقياء ليقودوا الكنيسة الإنجليزية، وهكذا احتفظت الكنيسة بسيادتها.

واستمر "أنسيلم" في خدمته كرئيس أساقفة وفي التأمل في الكتاب المقدس والكتابة إلى يوم وفاته عام ١١٠٩. وفي فراش الموت، قال له أحد أصدقائه: "نعتقد أنك ستترك هذا العالم لتذهب إلى قصر إلهك السماوي"؛ فرد عليه "أنسيلم" قائلاً: "إذا كانت هذه هي إرادته فسأطيعها بسرور". ودُفن "أنسيلم" في كاتدرائية كانتربري بجانب صديقه القديم ومعلمه "لانفرانك".

....

برنارد الذي من كليرفو

حبيب المسيح

برنارد الذي من كليرفو ١٠٩٠ م –١١٥٣ م

وقف الأب وابنه في يوم من أيام الخريف، في حديقة قلعة الأســـرة بمدينة "فونتيه" المطلة على التلال والأودية الجميلة، التي في برجاندي، إحدى المدن الفرنسية. كان الأب تسكالين سوريل فارسًا ونبيلاً، وابنه برنارد يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، وكان عالمًا وقائدًا بالفطرة. وكان تسكالين يتمنى لو أن ابنه يخدم دوق برجاندي العظيم في أحد المناصـــب الحكومية الرفيعة؛ فســـأل الوالد ابنه: "أخبرني يا بني بما تريده؟" فأجابه برنارد: "أبي، لقد عقدت العزم على تكريس حياتي للمسيح، فسأكون راهبًا". ولم يكن تسكالين يدري بأن ابنه يعتزم الانضـــمام إلى الدير، فاحمرَّ وجهه وهو يصـــيح: "راهبًا! وأين تعتزم أن تكون راهبًا؟" فأجاب برنارد "في سيتو". فانفجر والده غاضبًا وقال:"سيتو! تلك الزريبة التي تقع في المســـتنقعات حيث يبدو الجوع على الناس ويعملون مثل العبيد؟" فنظر برنارد في عيني والده وذكَّره بأن والدته، أرادت منه أن يخدم الكنيســـة، لذا فقد اتخذ هذا القرار بناء على تكريســه لله ووفائه لوالدته. وعندما ذكر برنارد كلمة والدته، هدأ تسكالين؛ فزوجته "أليت" قد ماتت منذ سبعة أعوام ولا يزال ألم فراقها يعتصـــر قلبه، فقد ربَّيا معًا أولادهما الســـتة وابنتهما على محبة الرب وخدمة الآخرين. وكانت "أليت" تأخذ أولادها معها، عندما تقوم بأعمال الرحمة للمرضـــى والفقراء.

واستدرك برنارد قائلاً: "الشهر الماضي عندما ذهبت لزيارة جاي وجيرارد في وقت حصـارهما لقلعة جراندي، امتطيت جوادي، منكسـر القلب من كثرة ذنوبي، وساورني القلق بشأن مستقبلي، فترددت كلمات والدتي في أذنيَّ مرارًا: "ابني، أمن أجل هذا جئت بك إلى العالم؟" ثم ذهبت إلى كنيســة صــغيرة كانت على جانب الطريق، ودخلتها وسجدت على ركبتي وأخذت أبكي وأصلي. وفي لحظة أزال الله شـــكوكي ومخاوفي عني، وخرجت من الكنيســـة واثقًا من محبة الله وغفرانه،

ومســـتعدًا أن أخدمه كراهب". عندئذ ظهر إخوة برنارد: جاي وجيرارد وبرثلماوس وأندرو في الحديقة وقالوا لوالدهم: "ونحن أيضًا قررنا أن نخدم الله في سيتو، فهل تمنحنا بركتك؟" فانحنى تســـكالين ومد ذراعه ليحتضـــن أولاده وقال في هدوء: "ليباركم الله". ثم ابتسم وقال: "والآن كونوا معتدلين، فأنا أعرف أن شيئًا لن يقف أمام غيرتكم". فودع الإخوة والدهم، وبينما كانوا ذاهبين في طريقهم، رأوا أخاهم الصغير نيفارد يلعب في ساحة القصر فقال له جاي: "وداعًا أيها الأخ الصغير، فنحن ذاهبون وسنترك لك كل أراضينا والممتلكات الأرضية–فكم ترى ستصبح غنيًا؟" فقال نيفارد: "هذا ليس عدلاً، فأنتم ستأخذون السما وتتركون لي الأرض". لذا عندما كبر نيفارد انضـــم إلى إخوته في الدير. ولم يكتف برنارد بإقناع إخوته فقط بالانضمام إلى الدير، ولكنه أقنع أيضًا عمه وأكثر من عشرين من أصدقائه الذين ساروا وسط الغابات والمستنقعات، حتى وصلوا إلى بوابة سيتو الخشبية. ودق برنارد مقرعة الباب، فظهر رئيس الدير في زيه الأبيض وســـألهم: "عما تبحثون؟" فأجابوه: "عن رحمة الله ورحمتك".

ولم يكن العمل الشـاق والثياب الخشـنة والأكل القليل والخلاء المحيط بهم، بمثابة تضحية بالنسبة لبرنارد، ولكنها كانت مصدر سعادته. وسرعان ما أدرك رئيس الدير تكريس برنارد وشخصيته القيادية، فاختاره ليقود مجموعة من الرهبان خارج سيتو. وعندما كان في الخامسة والعشرين من عمره، اتجه برنارد مع اثنى عشـــر راهبًا شـــمالاً، وكانوا يرتلون في طريقهم. وفي أواخر يونيو عام ١١١٥، وصـــلوا إلى منطقة منبســـطة يحدها من الجانبين تلاَّن من الأحراش، وكان هذا المكان مظلما وكان يحظر دخوله، وأُطلق عليه اسم وادي الأفسنتين، ولكن حالما بدأ الإخوة في إظهار نور المسيح هناك، أعاد السكان تسمية الوادي وأطلقوا عليه "كليرفو" والتي تعني "الوادي الصافي".

وقال برنارد للرهبان: "علينا أن ننزع عنا إرادتنا الشـخصـية غير المتناغمة مع إرادة الله"؛ فاتبع برنارد نظاما دقيقا ووضع جدولا يوميا للصلاة والتأمل والعبادة والعمل والراحة، فنقوا الأرض وأعدوا التربة للزراعة وشيَّدوا مبنىً بسيطًا به كنيسة

صـــغيرة وغرف للنوم وقاعة للطعام. وكانوا ينامون على ألواح خشـــبية قاســـية، واســـتخدموا أوراق الشـــجر الجافة كفراش وغطاء. وكان برنارد يســـتمتع بدراســـة الكتاب المقدس والتأمل فيه.

ومن ضـــــمن تعليقاتـه قولـه: "إن من يمتلىء بمحبـة الله، تُحرك كلمـة الله مشاعره بسهولة". وكانت عظاته تشبه لوحات القماش المنسوجة بخيوط من آيات الكتاب المقدس. وتعمق برنارد في الكتاب المقدس وقضى أكثر من عشرين عامًا يدرس ويعظ من ســـفر نشـــيد الأنشـــاد فقط. وكان يقول للرهبان: "يا إخوتي، تعرفون كم يســـتحق الله منا أن نحبه بلا حدود، فالله بكل عظمته أحبنا أولا نحن الصغار والخطاة!، فإلى أي مدى يجب أن تكون محبتنا له؟"

وفي وصـــف لزيارة كليرفو، قال وليام رئيس دير مجاور له ما يلي: "للوهلة الأولى، عند دخولك إلى الدير بعد أن تهبط من التل، تشـــعر أن الله موجود في هذا المكان، فالوادي الهادئ يتحدث في بســـاطة مَبانِيه وفي التواضـــع الحقيقي لرجال الله الذين يعيشـون هناك، ولا يقطع هذا الصـمت سـوى موسـيقى الترانيم وصـــوت جرف الحديقة. لقد تعجبت واعتقدت أني رأيت ســـماءً جديدة وأرضًـــا جديدة".

وعندما ذاع صـــيت كليرفو، توافد الكثيرون إليه من الأغنياء والفقراء، وحتى الأساقفة والأمراء الذين تخلو عن مناصبهم ومكانتهم ليرتدوا الرداء الأبيض. وكان تسكالين والد برنارد، هو أكثر الأشخاص الذين لقوا ترحيبًا. وعندما ازداد عددهم، أرسل برنارد بعض الرهبان ليؤسسوا ديرًا جديدًا في أماكن جديدة؛ وهكذا أسسوا أكثر من مائـة دير. ولم يعتزل رهبـان كليرفو بعيـدًا عن العـالم، ولكنهم كـانوا يطعمون ويأوون الغرباء ويعالجون المرضـــى ويعتنون بالفقراء. وعندما اجتاحت فرنسا مجاعة شديدة، أفرغ برنارد كل مخازن الأديرة وأرسل الرهبان بالطعام حتى لم يبقَ لديهم شيء.

وذاع صيت برنارد كرجل حكيم وعادل في كل أنحاء أوروبا، ولجأ إليه ملوك ونبلاء وأساقفة، طالبين نصيحته وطالبين منه أن يفض النزاعات. وكان برنارد لا

يحب ترك كليرفو، لكنه كثيرًا ما كان يسافر ليساعد الآخرين، وكان يقول: "إن عمل الله هو عملي". وكانت هذه الأسفار طويلة وخطيرة، فلقد عبر جبال الألب ثلاث مرات في برد الشتاء القارس، وتحمل الثلج المتجمد وممرات الجبال غير الآمنة. وقد أنقذ برنارد حياة الكثيرين، بسعيه لإحلال السلام بين أطراف متحاربة، ولم يخشَ برنارد من قول الحقيقة بجسارة. وبالرغم من إخلاص برنارد للبابا، لكنه كتب للبابا يومًا يقول: "أنت دنيء ... فأنت لم تتبع الشريعة الإلهية ولكنك اتبعت ملذاتك، كما إنك لا تفكر في الله ولا تخشاه".

كما أظهر برنارد شجاعة بالغة عندما واجه الملك لويس السابع ملك فرنسا، عندما تصرف بقسوة وقال له: "أنا أحثك على أن توقف طرقك الشريرة، فإذا تماديت يا سيدي في هذا الطريق، فإن عقاب خطيتك سيكون سريعا، وأنا صممت أن أقف ثابتًا دون درع أو سيف، لكني أستخدم ذراعي وميراثي وهما: صلواتي ودموعي".

وفي عام ١١٤٥، وقع برنارد في خطأ كبير عندما انضم إلى الدعوة إلى الحملة الصليبية لتحرير الأراضي المقدسة من المسلمين. وكثيرًا ما قام الصليبيون بإزهاق الكثير من أرواح الأبرياء. وتفجرت المشاكل عندما احتشد الرجال من جميع الأنحاء ليشتركوا في الحرب، لكن راهبا يدعى رادولف سافر في جميع أنحاء رينلاند ليعظ قائلاً: "الموت لليهود! وانضم إليه الكثير من الصليبيين وأخذ يقول لهم: "يا جنود المسيح، قبل أن تحاربوا الكفرة في الأراضي المقدسة، خلصوا وطننا من اليهود قتلة الرب".

وفي نوبة من البغض والكراهية، ضرب رادولف اليهود بالسياط، وقُتل المئات من الرجال والنساء والأطفال اليهود في أنحاء ألمانيا، ولكن قلة من الشجعان بذلوا أقصى ما بوسعهم لحماية اليهود، بينما الأغلبية منهم لم يتحركوا. وعندما وصلت أنباء المذابح إلى برنارد، أسرع ليوقفها. وواجه الجماهير الغاضبة، وبجسارة قال لهم: "دافعوا عن الأراضي المقدسة، ولكن لا تؤذوا اليهود، فالكتاب المقدس لن يسمح لكم بطردهم من وسطكم، فتجديدهم سيحدث يومًا، وسينظر

لهم الله مرة أخرى بعين الرحمة، والآن أوقفوا هذه المذبحة ولا تؤذوهم"؛ فاستجابت له الجماهير وانتهت المذبحة.

وأهم من الكل، فإنه عندما يُذكر برنارد، فإنه يُذكر بأنه مُحب المسيح. ففي صـــلاته كثيرًا ما كان يقول: "إلهي وحبيبي، ما أعظم حبك لي!" وكانت الآيات المفضـــلة لديه في الكتاب المقدس من مزمور ٧٣: ٢٦: "قد فني لحمي وقلبي.صـــخرة قلبي ونصـــيبي الله إلى الدهر". ولإخوته في كليرفو قال: "أنا أخدم الله بحرية، فالمحبة تحرر، وأنا أدعوكم يا إخوتي الأعزاء كي تخدموا بمحبة".

وكتب برنارد ترانيم تتحدث عن محبة المسيح، وكان يرنمها إخوة كليرفو في الكنيســـة وأثناء عملهم في المزارع، مما جعل الوادي يدوي بتســـابيح متناغمة جميلة. وظلت ترانيمه تُرنَّم منذ ذلك الحين وإلى الآن، وكانت ترنيمتا "يا يسوع يا فرحة القلوب المُحبة" و"أيها الرأس المقدس المجروح"، مِن أَحب تلك الترانيم.

وكانت حياة برنارد وكتاباته، نبراسًا للمسيحيين عبر العصور لتكريسٍ أعمق للمســـيح. وكثيرًا ما كان جون كالفن، مصـــلح جينيفا يقول: "عندما كان برنارد يتحدث، كنت أشعر كما لو كانت الحقيقة نفسها تتحدث". وقال مارتن لوثر عنه: "لقد أحب برنارد المسيح، بقدر ما يستطيع الإنسان أن يحب".

يا يسوع يا فرحة القلوب المحبة
يا ينبوع الحياة، يا نور الناس
من منتهى السعادة التي تمنحها الأرض
نعود عطشى لك من جديد.

...

بيتر والدو والوالدنسيون

الأمين للكلمة

بيتر والدو ١١٣٠ م – ١٢١٧ م

في عام ١١٧٠ م، أثناء تجمع بعض الأغنياء وذوي النفوذ في ليون، إحدى المدن الفرنسية، استمتع بيتروالدو، التاجر الغني، بالصحبة المحترمة لبعض من هؤلاء الأغنياء واحتفل معهم. وتواجد في هذا المكان كل ذي شأن: رؤساء الحكومات وقادة الكنائس والفرسان والنبلاء ورجال الأعمال. وبينما كان والدو يتحدث ويضحك مع أحد قادة المدن، وقع هذا الرجل على الأرض ميتًا، فوقف والدو مصدومًا ومرتعشًا، وأخذ يحدق في الرجل الملقى على الأرض وقد أصبح لون وجهه مبيضًّا، شبَحِيًّا. لقد كان وقع الموت المفاجئ لهذا الرجل مثل صاعقة البرق على والدو، وأخذ يقول لنفسه: "كان يمكن أن أكون أنا هذا الشخص، فهل أنا مستعد للموت".

بعد هذه الحادثة لم يستطع والدو أن يفكر في شيء سوى قِصَر الحياة وحالة روحه. بعد ذلك بوقت قصير، وبينما كان سائرا في أحد ميادين المدينة، سمع مُغنٍ ينشد قصيدة عن حياة القديس أليكس، الذي باع كل ماله ليتبع المسيح ويخدم الآخرين. فتساءل والدو إذا ما كانت هذه دعوة له من الله ليفعل نفس الشيء. ولم يكتفِ والدو بسماع بعض الآيات التي كانت تُقرأ عليه باللغة اللاتينية كل يوم أحد، لذا استأجر رجليْن متعلميْن حتى يترجما له العهد الجديد وبعض أجزاء أخرى من الكتاب المقدس إلى اللغة الفرنسية. عندما قرأ الكتاب المقدس للمرة الأولى بنفسه، شعر برهبة وجمال الكلمات وقوتها، وبدت له رسالة الرب يسوع للشاب الغني: "اذهب بع كل مالك واعط الفقراء واتبعني" كما لو كانت موجهة إليه.

وهكذا فعل بيتر والدو، باع كل ممتلكاته وأعطى المال للمحتاجين، وبدأ في تعليم الآخرين عن الأخبار السارة عن يسوع المسيح. وأُطلِق على من تبعوه "رجال ليون الفقراء" وأطلق عليهم آخرون "الوالدنسيين". وانتقل الوالدنسيون في

أزواج من بلد إلى آخر، مرتدين ثيابا بسيطة من الكتان، حُفاة الأقدام دون أن يحملوا معهم أي نقود، وشرعوا في وعظ الفقراء وقراءة العهد الجديد لهم باللغة الفرنسية.

ولم يكن والدو أو أصدقاؤه يعتزمون الانفصال عن الكنيسة، فلقد نظروا إلى عملهم على أنه مساعدة للكنيسة حتى تعود إلى إيمان الرسل والمسيحيين الأوائل، لكن عندما طلب أسقف ليون من والدو أن يتوقف هو وأتباعه عن تعليم الكتاب المقدس للفقراء ووعظهم، رفضوا قائلين: "ينبغي أن يُطاع الله أكثر من الناس".

وسافر القليل من الوالدنسيين إلى روما ليحصلوا على إذن من البابا ألكسندر الثالث، ليعظوا الناس ويعلموهم وليشرحوا له عملهم، وأعطوه نسخة من العهد الجديد باللغة الفرنسية؛ فشكل البابا لجنة لدراسة الأمر، فقال والتر ماب، أحد رجال الدين الإنجليز والذي ترأس اللجنة: "ليس لهم مكان ليمكثوا فيه، فهم مثل الرسل يتبعون الرب الذي لم يكن له أين يسند رأسه". ولكن إيمانهم البسيط وحياتهم المتضعة، لم تنل استحسان اللجنة فأضاف ماب: "هذه المجموعة تتألف من رجال جهال سذج".

وانفجر رجال الكنيسة في الضحك عند استماعهم لإجابات الوالدنسيين البسيطة عن أسئلتهم المعقدة. وبالرغم من استهزائهم بالوالدنسيين إلا أنهم رأوا في إيمانهم الطفولي وحماستهم ما يخشونه؛ فقال ماب: "هم الآن في بداياتهم ولم تترسخ أقدامهم بعد، ولكن إذا منحناهم موافقة الكنيسة سننجرف نحن أنفسنا وراءهم"؛ فمنعهم البابا من تعليم الكتاب المقدس، وعندما استمروا في تبشير الآخرين بالأخبار السارة عن يسوع المسيح، صرح بأن هؤلاء مهرطقون وأعداء لكنيسة روما. وسرعان ما شرَّعت الكنيسة قانونا لا يسمح بقراءة الكتاب المقدس إلا للكهنة فقط. وأضافوا إلى قائمة الكتب المحظورة بالكنيسة الكتب المقدسة المترجمة إلى لغات العامة.

وبدأ رجال الكنيسة في اضطهاد الوالدنسيين فأحرقوا الكثيرين على السواري مع نسخ الكتاب المقدس التي يمتلكونها، وطردوهم من ليون.

وهرب الوالدنسيون من جنوب فرنسا إلى ألمانيا وسويسرا وإيطاليا، وإلى ما أبعد من ذلك، وكانوا يجتمعون سرا ليتعبدوا في الخلاء أو في مجموعات صغيرة في منازلهم. لم يشترك جميع الفرنسيين في الاضطهاد، فذات مرة سأل أسقف فرنسي أحد الفرسان قائلا: "لماذا لا نطرد الوالدنسيين من المدينة مثلما أمرت الكنيسة؟" فأجابه: "لا نستطيع ذلك، لأننا كبرنا معهم وهناك أفراد من أسرنا قد انضموا لهم، كما إننا نرى أنهم يحيون حياة صالحة وأمينة". وأينما مكث الوالدنسيون، كانوا يعيشون ببساطة ويساندون بعضهم البعض، من خلال الأعمال اليدوية والزراعة، وأصبح البعض منهم باعة جائلين ليستطيعوا أن ينشروا الإنجيل، فبعد أن يشتري منهم الزبائن بعض الملابس أو الجواهر، كانوا يسألونهم: "أليس لديكم أي شيء آخر لتبيعوه؟" فكانت إجابة الوالدنسيين: "نعم، لا يزال لدينا جواهر أثمن من أي شيء آخر، ويسعدنا أن نعرضها عليكم، فلدينا حجارة كريمة هي كلمة الله، وهي شديدة اللمعان، لدرجة أنكم بضوئها تستطيعون أن تروا الله". وهكذا استطاعوا أن يخبروا من كانوا مستعدين للاستماع عن محبة الله، وكانوا غالبًا ما يتركون وراءهم نسخة مكتوبة بخط اليد، هي جزء من الكتاب المقدس. ومن شدة حب الوالدنسيين للكتاب المقدس، كانوا يحفظون أجزاء كبيرة منه عن ظهر قلب، وبعض منهم كان يستطيع أن يتلوا العهد الجديد بأكمله.

وعلى مر العصور، بينما انجرفت كنيسة روما بعيدًا عن رسالة الكتاب المقدس، ظل الوالدنسيون متمسكين بالكتاب المقدس، باعتباره المرشد الإلهي الأعلى لشعب الله. ورفض الوالدنسيون تعاليم الكنيسة الرومانية المتعلقة بغفرانات الكنيسة والصلاة إلى القديسين والمَطهَر وبعض التعاليم الأخرى غير الكتابية، وتحملوا الاضطهاد بسبب هذا الرفض. ولم يكن الكثير من المسيحيين يؤمنون بما كان يؤمن به الوالدنسيون، إلى أن بدأ عصر الإصلاح بمجيء مارتن لوثر خلال القرن السادس عشر.

ولم يقضِ عصر الإصلاح البروتستانتي على اضطهاد الكنيسة الرومانية للوالدنسيين، ولكنه تسبب في تكثيفه. وواجه الوالدنسيون–الذين كانوا يعيشون في

الأودية الجبلية والسهول الخصبة لسافوي شمالي إيطاليا–أشرس هجوم عليهم عام ١٦٥٥، فمع الوعد بمنح بركات البابا، أصدر حاكم سافوي المرسوم التالي:

"على كل أسر الوالدنسيين الذين يقطنون السهول والأودية المنخفضة، أن يتركوا منازلهم إلى وادي ألبين خلال ثلاثة أيام، ويجب أن تُباع كل ممتلكات الوالدنسيين خلال عشرين يوما".

وصُرّح بالبقاء لكل من كان يتبع كنيسة روما. جاء هذا المرسوم في وسط الشتاء، وأُجبرَ الأطفال والشيوخ والمرضى والمقعدون إلى عبور الجبال المغطاة بالثلوج عبر الرياح العاتية والثلوج. واحتشد الوالدنسيون معًا للحصول على الدفء، وكانوا يشجعون بعضهم البعض على الثبات، ولُطخت الثلوج التي ساروا عليها بالدماء، وكان بإمكانهم تفادي هذه الكارثة ببساطة، بإنكار إيمانهم واتِّباع كنيسة روما.

بعد ذلك كتب رجل ما يلي: "لقد كنت راعيا لكنيسة بلغ عددها ألفي فرد تقريبا، ولم يختر أي منهم إنكار الإيمان، وبكيت من الفرح وأيضا من الأسف، عندما رأيت أنه مع كل وحشية أولئك الذئاب، لم يتزحزح أي من هؤلاء الخراف عن إيمانه، وشكرت الله عندما رأيتهم يتحملون هذا الصليب الثقيل بشهامة". ولقي الكثيرون حتفهم من البرد والجوع، ولكن تلقى الناجون منهم ترحيبًا دافئًا من إخوتهم الوالدنسيين في الأودية العليا، ودعوهم إلى بيوتهم وشاركوهم بكل ما كان لديهم. ولم يكتفِ مضطهدوهم بطردهم من الأودية السفلى، بل أرادوا القضاء عليهم تماما.

بحلول الربيع تجرَّد ما يقرب من ١٥ ألف رجل للحرب، وتم إرسالهم إلى أودية ألبين، وهجم الجنود على الوالدنسيين بلا رحمة. ولم يكتفوا بمجرد قتلهم، بل عذبوهم بأقصى أشكال العذاب التي يمكن تخيُّلها. لقد أجبر الجنود الآباء على مشاهدة أطفالهم وهم يُقتلون، وانتُزع الصغار من أحضان أمهاتهم ومزقوهم إربًا إربًا، وألقوا بآخرين أحياء في النيران، وقادوا أحد الآباء إلى الموت وقد عُلقت حول رقبته رؤوس أبنائه المذبوحين، وطُرحت الجثث في كل مكان، وهرب

الأحياء، واختبأ المئات منهم في كهف كبير فوق حافة جبل شديد الانحدار. لكن الجنود تعقبوهم، وربطوا بعضهم على كرات ودحرجوهم لأسفل الجبل، وألقوا بالنساء والأطفال من على حافة الصخر، وأحرق الجنود كل شيء، الكنائس والمنازل والمزارع والبساتين.

قال أحد الرجال: "لقد كان وادينا يشبه الجنة، لكنه تحول إلى بركان ثائر يفيض بالنيران والرماد. لقد تحول النهار إلى ظلمة من كثرة الدخان". واجتمع الناجون معًا على الجبال مُبتَلين بالأسى، لكن ثقتهم في الله لم تتزحزح، وبعدما تسلحوا بالشجاعة ومعرفة الأرض، قرروا أن يقاوموا؛ فردوا هجوم الجنود في الكثير من المناطق، بالرغم من أن نسبة عددهم إلى عدد الجنود كانت في بعض الأوقات حوالي ١ إلى ١٠٠.

وأرسل الوالدنسيون بخطابات إلى قادة البروتستانت الأوروبيين، يطالبونهم فيها بأن يمدوا يد المساعدة من إنجلترا وألمانيا وسويسرا وما وراء تلك البلاد، فكتبوا لهم يقولون: "لم تعد دموعنا من الماء ولكنها أصبحت من الدماء، وقد خنقت قلوبنا". وارتعد البروتستانت عند سماعهم بهذه المذابح، وهدد الإنجليز والسويسريون بالمحاربة من أجل الوالدنسيين إذا لم يوقف حاكم سافوي هذا الاضطهاد.

وهكذا عاد السلام، ولكن لم يستعد الوالدنسيون ما فقدوه من ممتلكات، وظلوا لسنوات يعانون العديد من الاضطهادات، ولكنهم بقوا على إخلاصهم للرب.

...

فرانسيس الأسيزي

الأخ الأصغر

فرانسيس الأسيزي ١١٨١ م – ١٢٢٦ م

احتشد كل أهل مدينة أسيزي والآباء ورجال الدين في الميدان، وهتفوا عندما أبصروا الشباب وهم خارجين لمحاربة بيرودجا، المدينة المنافسة التي كانت تقع غرب أسيزي، وكان يقف بينهم فرانسيس بيرناردون، أحد أكثر الفرسان تأثيرا. وانتهز والده بيرتو هذه الفرصة ليتفاخر بثرائه، فأنفق الكثير على إمداد ابنه بأفضل الجياد والأسلحة والدروع، فلقد أراد أن يساعد فرانسيس أسيزي في الانتصار، وأمل أن تجعله هذه المعركة يتخلى عن أحلامه الرومانتيكية في العظمة، وتجعله قانعًا بالاستقرار والعمل في تجارة الأسرة.

فصاح به أحد الرجال: "كن حذرًا يا فرانسيس وحارب بنُبل، فابتسم له فرانسيس وامتطى صهوة جواده. لم يكن التجهيز الرائع لفرانسيس فقط هو ما كان يجذب الانتباه، ولكن أيضًا خفة دمه ووسامته جعلته من أفضل الشباب في المدينة على مدى سنوات، فكانت الشابات تلوّحن له بباقات الزهور، وهن يتساءلن كيف ستكون الحفلات بدون فرانسيس الشاعر والمغني المرح اللطيف، الذي أطلقن عليه "ملك الحفلات". وبينما كان المحاربون في طريقهم للخروج، كانت أسلحة فرانسيس تلمع في ضوء الشمس، ورفع رمحه عاليًا في الهواء وجعل جواده يقف على قدميه الخلفيتين وصاح: "سأعود إليكم أميرًا عظيمًا".

ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. فقد ساءت أمور الحرب وهزم البيرودجيون جيش أسيزي، وأسروا فرانسيس مع أربعين آخرين وألقوهم في السجن مربوطين بالسلاسل حيث القذارة والأمراض، حتى دُفعت عنهم كفالة لإخراجهم. لقد قضى فرانسيس في الأسر أكثر من عام حتى استطاع والده أن يحرره ويعيده إلى منزله، ولكنه كان طريح الفراش يعاني من حمى شديدة. خلال الأشهر التي عانى فيها من المرض، أخذ فرانسيس يفكر في حالته الروحية وارتعد عندما فكر في يوم الدينونة.

وفي أحد الأيام بعدما استعاد قوته، ذهب فرانسيس في نزهة وهو في أبهى ثيابه، وفي طريقه قابل رجلاً فقيرًا يرتدي ثيابًا بالية، فاجتاحته فجأة عاطفة لم يكن قد اختبرها من قبل. فتبادل فرانسيس ثيابه مع الرجل الفقير على الفور. بعد ذلك بوقت ليس ببعيد، وفي طريقه على السهل الذي يقع أسفل أسيزي، رأى فرانسيس رجلاً على الطريق يتوجه إليه، فشعر بالخوف فكبح جماح جواده وتوقف، وكان الرجل شحاذًا أبرص يسأل صدقة. وكانت يده الممدوة مملوءة بالقرح البيضاء المرتشحة، فارتعد فرانسيس وَهمَّ أن يتركه ولكنه شعر فجأة بالتزام نحو هذا الرجل، فنزل من على ظهر حصانه وعانق الأبرص وقبَّل يده المشوهة. وبعدما أعطى الرجل ما كان لديه من مال، انصرف ممتلئًا بالسعادة وهو يرنم ممجدًا الله.

وفي الأحد التالي، كانت القراءة الكتابية في الكنيسة من متى ١٠. في هذه الفقرة كان المسيح يرسل تلاميذه ليبشروا ويقول: "لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم، ولا مزودا للطريق ولا ثوبيْن ولا أحذية ولا عصا". وابتهج فرانسيس عند سماعه لهذه الفقرة، وتأكد من دعوة الله له. وقال: "هذا هو ما أريده بل هذا هو ما أتوق إليه من كل قلبي". ومنذ ذلك اليوم تغير فرانسيس وهجر كل الرفاهية الأرضية، فأصبح يرتدي رداءً خشنًا بني اللون مربوطًا بحبل على خصره، ويسير حافي القدميْن ويعيش بين البرص، وكان يسأل صدقة من أجلهم ويغسل جراحهم ويخفف من آلامهم، فلقد نظر لهم فرانسيس كأولاد ملك الملوك، وعاملهم بلطف واحترام كخادم لسيده.

ولم يعجب هذا التغير شعب أسيزي، واعتقدوا أنه مجنون قذر. وعندما مشى في وسط المدينة في بادئ الأمر في ثيابه البسيطة، سخروا منه وكانوا يصيحون: "أبعد أيها الأحمق". ورموه بالقمامة والسُباب، ولكنه لم يقابل الشر بالشر، ووجد تعزيته في وعد الرب: " طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا، لأن أجركم عظيم في السموات". وكان والده أكثر الناس سخرية منه، لأنه لم يحتمل رؤية ابنه وهو يدير ظهره لحياة

الثراء لكي يخدم الفقراء؛ فحبسه وضربه وقيَّده بسلاسل في حائط السرداب. وبقي فرانسيس هكذا إلى أن حررته والدته عندما كان والده منشغلا في أعماله بعيدا.

وسافر فرانسيس هنا وهناك يعظ بيسوع المسيح ويقول: "توبوا يا إخوتي وأخواتي وانظروا إلى مخلصنا المبارك، واعلموا أن من يأتي للمسيح ستُغفر كل خطاياه، فتوبوا وافرحوا في الرب". وكان محور تعليمه هو إعجاز التجسد، فلقد أراد أن يتعجب الجميع من سر التجسد الإلهي.

ونظم فرانسيس حفلات عيد الميلاد خارج مبنى الكنيسة، متضمنة مذودًا وتبنًا وثورًا وحمارًا، حتى يشجع الناس على عبادة المسيح ويعمق معنى الاحتفال بهذا العيد. وكان كل المتعبدين يحملون الشموع وينشدون الترانيم، وهكذا بدأ تقليد مشاهد ميلاد المسيح.

وعندما ذاع صيت فرانسيس جاء البعض لينضموا لعمله، فقرأ لهم فرانسيس آية من إنجيل متى: "إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني". (متى١٦:٢٤) وقال فرانسيس: "هذه هي حياتنا وهذا هو قانوننا، وحياة وقانون كل من يريد أن ينضم إلينا، فسنحتذي بإلهنا في تبشير الفقراء والعناية بالمرضى". وسرعان ما انضم إليه أناس بالمئات ثم بالآلاف وحلقوا قمم رؤوسهم كعلامة الخضوع المتضع لله، وارتدوا أثوابًا بسيطة بُنِّية اللون، مثل فرانسيس الذي أطلق على مجموعته "الإخوة الأصاغر"، وقال: "لقد دُعي إخوتي بالأصاغر حتى لا يظنوا أنهم سيصبحون عظماء". وبالرغم من عدم امتلاك فرانسيس وإخوته أي شيء، لكنهم عملوا بكد وتميزت حياتهم بالشكر والفرح والترنيم. وكثيرًا ما رنم فرانسيس من المزامير والترانيم، وكتب أشعارًا عن محبة الله وجمال الخليقة، ووضع ولحَّن هذه الكلمات وعلَّم الإخوة ترنيمها.

وأحب فرانسيس الطبيعة، وكان يرى مجد الله في كل شيء صنعه الله، حتى أصغر المخلوقات كانت تُظهر عمل يديه العجيب، فقد خُلقت هي أيضًا حتى تمجد الله وتسبحه. وفي أحد الأيام اقترب فرانسيس من سرب من الطيور وقال: "أيها الطيور، إخوتي، عليكِ التزام أن تسبحي خالقك الذي كساكِ بالريش وأعطاكِ

أجنحة للطيران ويرعاك دون أن تقلقي". وفي إحدى المرات سمع صرصورًا ليليًّا يزقزق فقال: "غني يا أختي الصرصورة، مجِّدي الله الخالق بأغانيكِ المبهجة".

وعندما ازداد عدد "الإخوة الأصاغر" وتعدى الخمسة آلاف، أرسلهم فرانسيس إلى أنحاء العالم، وأخبرهم أن يبشروا بأمانة ويعيشوا حياة مقدسة، وقال لهم قبل أن يصرفهم: "ألقوا بهمومكم على الرب وهو يعولكم". وسافر الإخوة إلى أقاصي شرق أوروبا وشمال ألمانيا وجنوب الأراضي الإسلامية بأفريقيا، وغربًا إلى أسبانيا وإنجلترا. وأينما ذهبوا كانوا يخدمون الفقراء، فكانت حياتهم المتضعة بالفقر والخدمة، مثالاً جيدًا للكهنة والرهبان ليتبعوها، لأن الكنيسة في ذلك الوقت كانت ممتلئة بالأنانيين والكسالى.

وبالرغم من أن تواضع فرانسيس ومحبته كانتا مثالاً لكل المؤمنين، إلا أن بعض معتقداته لم تكن كذلك، فعلى سبيل المثال قَبِل فرانسيس تعاليم الكنيسة التي شجعت على عبادة العذراء مريم والصلاة للقديسين وتعاليم أُخَر غير كتابية. ولم يتراجع الكثير من المؤمنين عن هذه التعاليم إلا بعد عهد الإصلاح، أي بعد ثلثمائة عام بعد فرانسيس.

وعانى فرانسيس من المرض والألم على مر السنين، وبالقرب من نهاية حياته كان قد فقد بصره. ولما كان على فراش الموت في عامه الرابع والأربعين قال: "مرحبًا بك أيها الموت". وقال لأصدقائه: "بالموت نستيقظ لنحيا إلى الأبد". لقد قابل الموت بالترنيم.

صلاة القديس فرانسيس:-

إلهي، اجعل مني أداة لسلامك
أينما تكون الكراهية اجعلني أبذر السلام
وأينما تكون الجراح اجعلني أداة للغفران
أينما يكون الشك اجعلني أداة للإيمان
أينما يكون اليأس اجعلني أداة للرجاء
أينما يكون الظلام اجعلنى أداة للنور

أينما يكون الحزن اجعلني أداة للفرح

أيها السيد الإله، امنحني ألا أسعى وراء من يعزيني
بقدر ما أسعى لأعزي آخرين
ألاّ أُفهم مثلما أَفهَم
ألاّ أُحَب مثلما أُحِب
ففي العطاء نأخذ
وفي الغفران يُغفر لنا
وفي الموت نستيقظ لحياة أبدية.

...

إليزابيث التي من المجر

خادمة الفقراء

إليزابيث التي من المجر ١٢٠٧ م – ١٢٣١ م

لقد اجتاحت المجاعة ولايتَيْ تورنجيا وهيس بألمانيا في صـــيف ١٢٢٦ م. وطـاف الجوعى في الحقول والغـابـات، بـاحثين عن النُقل البرّي، والتوت البرّي، ونبشوا الأرض باحثين عن أي جذور، وقشروا قلف الأشجار، وكانوا يلتهمون أي حيوان ميت يقابلونـه في بحثهم اليائس عن الطعام، ولقي الكثيرون مصـــرعهم جوعًا، وامتلأت الطرق بجثثهم. في ذلك الوقت كان حاكم المنطقة الدوق لويس ومعظم المحاربين، خارج البلاد في حملة عسكرية ضد إيطاليا.

وعندما خرجت الجماهير البائسة وسارت عبر الطريق المنحدر المؤدي إلى قلعة وفارتبرج، يلجُّون على الأبواب طالبين الطعام، اســـتمعت الدوقة إليزابيث - وقد كانت تبلغ التاســـعة عشـــر من عمرها، زوجة لويس وابنة ملك المجر - إلى صراخهم، فوضعت الدوقة، الجميلة ذات البشرة الزيتونية، كل طاقاتها نهارًا وليلا، حتى تخفف من معاناة شـــعبها. وخوفًا من قيام ثورة، حذرها مســـتشـــارو الدوق، لتكون أكثر حرصًـا على الأموال، وأن تضـع حراسـة مشـددة على مخازن الحبوب الملكية، ولكن إليزابيث لم تســـتمع لنصـــيحتهم، بل أفرغت كل خزانات المال الملكية، وأعطت الأموال للفقراء وأفرغت مخازن الحبوب لتطعم الجوعى، وأعطت أوامرها لطباخي القصـر حتى يخبزوا الخبز ويطهو الحسـاء من شـروق الشـمس إلى مغربها، وقامت إليزابيث بتقديم الطعام للشعب بنفسها.

ونظمـت إليزابيـث جهودهـا مع الرهبـان والراهبـات والكهنـة. فنظمـت توزيـع الطعام في جميع أنحاء البلاد، بالمال الذي جُمع من بيع معظم جواهرها وبعض ممتلكاتها الأخرى.

وحذرها المستشارون قائلين: "كفى، فإنك بهذه الطريقة ستُفلِسين الدار الملكي". ولكن إليزابيث لم تستمع لهم، ولكنها استمرت وهي تشعر بالامتنان لدعوة الله لها لمساعدة المحتاجين.

وكانت إليزابيث تصلي قائلة: "يا الله كم أشكرك لأنك أعطيتني الفرصة لأخدم الفقراء أصدقاءك الأعزاء". وكانت إليزابيث تطعم ٩٠٠ شخص يأتون إلى القصر كل يوم، وكانت تحمل الطعام بنفسها للمرضى والضعفاء الذين يعجزون عن تسلق الجبل ليصلوا إلى القصر. وأنشأت إليزابيث مستشفى ومنزليْن لفقراء أيزناخ. كانت هذه المدينة تقع أسفل القصر ذي الحجارة الرمادية. وكانت إليزابيث تترك ملابسها الملكية جانبًا وترتدي مرتين يوميًّا عباءتيْن قرويتيْن، وتسير حتى أيزناخ تهيئ فراشا للمرضى وتريحهم. وكانت تتبرع بالملابس والأحذية للقادرين جسديًّا من الرجال والنساء وترسلهم ليعملوا بالحقول، فيعدُّوا الأرض ويزرعونها، أملاً في إنتاج محصول قليل عند موعد الحصاد. وعندما استنفذت مالها، بدأت تعطي الفقراء قِناعاتها وأوشحتها الحريرية وبعض الملابس الأخرى، وكانت تقول: "بيعوا هذه الأشياء حتى تسدوا احتياجاتكم، واعملوا قدر طاقتكم، لأن الكتاب المقدس يقول: "إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضًا". وعندما وصلت أنباء المجاعة إلى الدوق لويس في إيطاليا، عاد مسرعًا لوطنه، وعندما اقترب من فارتبرج، قابله موظفوه في الطريق واستنكروا تهوّر إليزابيث في الصرف وإفراغها لكل مخازن الحبوب، وصرَّحوا قائلين: "لقد حذرناها ولكنها لم تصغي".

فأوقف الدوق شكواهم قائلاً: "دعوا إليزابيث ابنتي الرقيقة الصغيرة، تعطي الفقراء بقدر ما تشاء، فطالما لا تمس فارتبرج وناومبرج، فصداقاتها لن تدمرنا". وعندما وصل لويس إلى المنزل ألقت إليزابيث بنفسها بين ذراعيه وأغرقته بقبلاتها، فأمسكها بين ذراعيه وقال لها: "يا زوجتي العزيزة كيف أصبح حال فقرائك أثناء هذا العام الصعب؟" فأجابته بصوت لطيف وابتسامة عريضة قائلة: "لقد أعطيت الله ما كان له، ولقد أبقى الله لنا ما هو لك ولي".

أما المحبة التي ملأت قلب إليزابيث نحو الفقراء، فجاءت نتيجة ما كان يرويه والدها عن فرانسيس الأسيزي، وعن قراره بخدمة الله وتركه للغنى ومحبته للفقراء، فألهمها أن تحذو حذوه، فكثيرًا ما كانت تقابل البُرص وتقبّلهم وتصلي من أجلهم وتغسّلهم، وتأخذ ستائر القصر وأقمشة الكتان وتقصها لتكون كمناشف لهم، وكانت تقول للعاملين معها: "ما أسعدنا! إذ نتمكن من خلال هذا العمل من تنظيف وكساء الرب. وفي أحد الأيام، عندما كان زوجها مسافرًا، عرفت شخصًا فقيرًا مصابًا بالبرص، وكان كل جسده سقيمًا ولم يقبل أحد أن يساعده، فأخذته إلى القصر وغسّلته ووضعت الدواء على قرحه، وجعلته ينام في سريرها، مما أفزع حماتها وموظفي القصر. وعندما عاد الملك أسرعت أمه إليه وقالت له: "تعال معي يا ولدي العزيز وسأريك ما فعلته إليزابيث. سترى شخصًا أحبته أكثر منك". وأخذت لويس من يده وقادته إلى غرفة نومه وقالت: "زوجتك تضع البُرص في سريرك ولا أستطيع أن أمنعها، سترى بنفسك أنها تريد أن تصيبك بالبرص". غير أن لويس لم ينتهر زوجته ولكنه امتدحها لمشاعر المحبة الرحيمة، وبناء على طلبها أسس منزلاً للبرص على طريق القصر. وعندما كان لويس يُستَدْعَى من قلعته من أجل القيام بشؤون الدولة، كانت إليزابيث ترتدي ثيابًا قاتمة غير مطرزة وتقضي وقتها في أعمال الرحمة والصلاة والصوم، وعندما يعود كانت ترتدي أفضل ملابسها ومجوهراتها. وكانت تقول لخادماتها: "ما يدفعني لارتداء هذه الملابس، ليس الغرور أو التكبر، ولكنني لا أريد أن يشعر زوجي بعدم الرضا، وأعطيه فرصة ليخطىء عندما يجد فيَّ ما لا يرضيه". وبارك الله إليزابيث ولويس بأربعة أطفال، وبعد أيام قليلة من ولادة ابنها الأكبر "هيرمان" ارتدت ثوبًا رماديًّا وأخذت الرضيع بين يديها وتسللت سرًّا من القصر، وسارت حافية القدمين إلى كنيسة المدينة ووضعت الطفل على المذبح قائلة: "ربي وإلهي، بكل قلبي أعطيك ابني كما أعطيتني إياه، أرجوك أن تقبل هذا الطفل الذي أغمره بدموعي ليكون من خدامك وأصدقائك وباركه".

وفي خريف ١٢٢٧ م، حشد لويس جيشه وأبحر في حملة صليبية إلى الأراضي المقدسة، تاركًا إليزابيث والأطفال في رعاية أخيه هنري. ولكن هذه الرحلة لم تجلب سوى الحزن الشديد، فبعد وقت قصير من مغادرته، أصيب لويس بحمى أودت بحياته، وفي نفس الوقت فإن المسؤولين بالقصر –الذين احتقروا حماسة إليزابيث الدينية واستخدامها للثروة الملكية لمساعدة الفقراء– حرضوا هنري لينقلب ضد إليزابيث. ولكي يدعم هنري دعواه في حقه في العرش، أمر بطرد إليزابيث وأطفالها من قصر فارتبرج ومن كل الأراضي الملكية.

وقال لها أحد المسؤولين بالقصر: "لقد دمرتِ الدولة وبددتِ ممتلكاتها وجلبت العار على زوجك، وعليه، عليك أن تغادري القصر على الفور بأمر الدوق هنري". وفي دهشتها من هذا القرار القاسي المفاجئ، سألت إليزابيث إذا كان من الممكن إمهالها بعض الوقت لتعد لرحيلها، فرفض هذا المسؤول طلبها بحزم وقال: "اتركي هذا المكان فورًا". وكان هذا بعد ظهر يوم من أيام الشتاء القارس، وكانت الرياح الباردة تهب على سفح الجبل، عندما دفع الحراس بإليزابيث وأطفالها ورفيقتين، خارج أسوار القصر وأغلقوا البوابات المعدنية الضخمة خلفهم. فحملت إليزابيث طفلتها بين ذراعيها، وأما باقي الأطفال فكانوا يبكون وهم سائرون عبر الممر الضيق المؤدي إلى أيزناخ. وعندما حل المساء، كانت تبحث عن ملجأ لها ولأطفالها، ولكن الدوق هنري كان قد حَظَّرَ أهل أيزناخ من مساعدة إليزابيث بأي شكل من الأشكال، وأطاعه شعب أيزناخ الجبان. وبعد سنوات من إنكارها لذاتها مكرسة نفسها في خدمتهم، لم يفتح أحد بيته لها؛ فقالت إليزابيث وهي تبكي: "لقد أخذوا مني كل ما كان لي، وليس لدي الآن سوى الصلاة إلى الله". أخيرًا سمح لها صاحب فندق بأن تقضي الليل في كوخ خلفي مخصص لخنازيره، ونامت إليزابيث وأطفالها في هذا الكوخ. وعند منتصف الليل بينما نام أطفالها دون طعام، سمعت إليزابيث صوت أجراس دير الفرانسيسكان الذي شيَّدته هي وزوجها، فنهضت لتتعبد مع الرهبان ذوي الثياب البُنيَّه، وطلبت منهم أن يرتلوا ترنيمة شكر لله على المحن التي أرسلها لها، ثم صلت بصوت

مرتفع قائلة: "إلهي، لتكن مشـــيئتك، لقد ولد أطفالي من نســـل ملكي، وها هم يعانون الجوع وليس لهم أين يسـندوا رؤوسـهم، فبالأمس كنت دوقة في قصـور قوية، وكنت أمتلك الغنى الوفير، واليوم أنا شـحاذة ولا يوجد من يقبلني". ومكثت إليزابيث وأطفالها في الكنيســـة لعدة ليالٍ وقالت: "هذا بيت الله، وعلى الأقل لن يستطيع أحد أن يطردني منه".

ولجأت إليزابيث إلى التسـوُّل حتى تطعم أطفالها، وفيما بعد بدأت تكسـب عيشها من غزل الصوف. وفي فقرها كانت تحتجز جزءًا من كل وجبة لتساعد به المحتاجين، ولم تشـتكي ولكنها قبلت نصـيبها بشـكر متذكرة معاناة الرب يسـوع، وصـلت قائلة: "نعم يا رب، إن كنت ستكون معي سأكون معك، وأتمنى ألا يأتي اليوم الذي يفصلني عنك".

وفيما بعد فإن الفرســان المُســتائين، الذين كانوا أصــدقاء الدوق الســابق، أجبروا هنري على إعطاء إليزابيث جزءًا من الممتلكات، فاســتخدمت تلك الموارد لبناء مستشفى ولرعاية الفقراء، وبعد ذلك أعطت كل ما لديها للفقراء بل وصممت على الفقر، فأخذت تغزل الصوف وتخدم المنبوذين.

وعندما ســمع والدها ملك المجر بأن ابنته تعيش في فقر، أرســل لها على الفور سـفيرًا ليحضـرها إليه، فالسـفيرالذي كان في أبهى ثيابه عندما وجد إليزابيث تغزل الصـوف في كوخ مظلم، انفجر في البكاء وقال: "هل رأى أحد من قبل ابنة ملك تغزل الصـوف؟" وركع على ركبتيه متوسـلاً إياها حتى تعود معه إلى المجر حيث تعامَل كأميرة، ولكنها قالت: "أنا خاطئة حقيرة، لم أطع ناموس الله كما ينبغي أن يُطاع". فسألها: "من دفعك إلى هذه الحالة البائسـة؟" فأجابته: "لا أحد، ولكن غنى ابن أبي السـماوي غير المحدود، الذي أعطى نفسـه مثالا ليعلمني أن أحتقر الغنى".

فقال وهو باسـطٌ ذراعيه لإليزابيث المكسـورة: "هلم الآن أيتها الملكة النبيلة، تعالي معي إلى والدك العزيز، تعالي وامتلكي مملكتك وميراثك". فأجابتـه: "أنا أرجو بالفعل أن أكون قد امتلكت ميراث أبي، ألا وهو الرحمة الأبدية لربنا يســوع

المسيح". وعندما هَمَّ السفير بالرحيل، قامت من على مغزلها وأمسكت بيده برفق وقالت له: "قل لوالدي العزيز بأني أســـعد حالاً مما هو عليه في بلاطه الملكي، وعوض أن يحزن عليَّ، عليه أن يفرح لأن لديه ابنة تخدم ملك السموات".

وبعد مضـــي وقت قليل، لازمت إليزابيث الفراش بســـبب ارتفاع حرارتها، وظلت تعاني لمدة أسبوعين يعتصرها الألم، ولكنها ظلت مملوءة بالسلام مواظبة على الصــلاة، وكانت كلماتها الأخيرة إلى أصــدقائها: "لنتحدث عن يسـوع الذي جاء ليفدي العالم، وهو سـيفديني أيضًـا". وماتت إليزابيث في ١٩ نوفمبر ١٢٣١ م وهي في الرابعة والعشرين من عمرها.

....

جون ويكليف

كوكب الصبح لعصر الإصلاح

جون ويكليف ١٣٣٠ م – ١٣٨٤ م

ساد الاضطراب في جامعة أكسفورد خلال شتاء ١٣٧٨ م، عندما أُدين جون ويكليف، رائد الفلاسفة واللاهوتيين بأكسفورد، من كنيسة روما؛ فلقد أدى سخط البابا غرغوريوس الحادي عشر من أفكار ويكليف إلى أن يرسل إلى ملك إنجلترا ورئيس أساقفة كانتربري ورئيس جامعة أكسفورد، خطابًا مختومًا يعلن فيه بأن ويكليف مهرطق، فكتب يقول: "إن جون ويكليف يُخرج من قلبه القذر أشر وألعن الهرطقات، فهو يأمل أن يخدع المؤمنين ليقودهم إلى حافة الهلاك، ويريد أن يقلب الكنيسة وأن يجلب الدمار على أراضي الدولة. أَلقوا القبض على ويكليف في الحال، واحجزوه حتى يلتئم مجلس الكنيسة ليصدر حكمه النهائي".

وعرف الجميع أن هذه الكلمات الصارمة الصادرة عن البابا، تعني أن ويكليف سيُحرق قريبا على السارية، وليس هناك سبيل لإنقاذه سوى بأن يتراجع ويقول بأن تعاليمه كانت خاطئة ويطلب الغفران. ولكن هل سيتراجع ويكليف؟ وإذا لم يفعل، هل سيتم القبض عليه ويعدم؟ كانت هذه هي التساؤلات التي ألقت بظلالها على طلاب جامعة أكسفورد وأساتذتها.

وبرغم من صغر حجمه وضعف جسده، إلا أن ويكليف كان أقوى واعظ ومعلم في أكسفورد. وكانت "الهرطقات الشريرة" التي كتب عنها البابا هي كالتالي: "قال ويكليف إنه يجب على البابا وجميع قادة الكنائس أن يخضعوا لكلمة الله، وعليهم أن يكفوا عن السعي وراء إشباع لذاتهم الخاصة، وأن يعيشوا حياة الخدمة المتضعة البسيطة، كما جادل بأن الخبز والخمر في العشاء الرباني ليسا هما جسدًا ودمًا حقيقيين، ولكنهما رمز وعلامة على الحضور الروحي للمسيح مع أولاده. ولكن أول تعاليمه كان أن الكتاب المقدس هو المرشد الأعلى للكنيسة، وأن الكتاب المقدس للجميع، فكان يقول: "لقد كان يسوع يعلم الناس ببساطة

بلغتهم الخاصـــة، وفي يوم الخمســين أعطى الروح القدس الرســل موهبة التكلم بألسـنة، حتى يسـتطيع كل واحد أن يسـتمع إلى الأخبار السـارة (الإنجيل) بلغته التي يفهمها".

وهكذا عمل ويكليف وأتباعه على ترجمة الكتاب المقدس إلى الإنجليزية مدة أحد عشـــر عامًا. وظل يقول لمعاونيه: "ركزوا على هذا العمل، فإذا قرأ شـــعب إنجلترا الكتاب المقدس بأنفسهم، سيكون هذا هو أفضل ضمان لهم لاتِّباع يسوع المسيح والدخول إلى السموات".

ولكن هذه التعاليم تعدَّت على قوانين الكنيسـة، وصـرَّح أحد رجال الكنيسـة قائلا: "من الهرطقة الحصـــول على الكتاب المقدس باللغة الإنجليزية، فإعطاء العامة الكتاب المقدس يشبه إلقاء الدرر قدام الخنازير". فرجال الكنيسـة لم يرغبوا في أن يدرس الشـــعب الكتاب المقدس بأنفســهم، خوفًا من أن يفقدوا نفوذهم وأن يؤثر ذلك على وحدة كنيسة روما.

وأراد البابا أن يوقف جون ويكليف وآراءه مرة وإلى الأبد، وذلك بإدانة كتاباته والحكم عليه بالموت، فماذا يفعل ويكليف؟ هل سيحاول إنقاذ نفسه ويقول إنه كان مخطئًا؟ هل سـيقول لأتباعه بأن يتركوا الكتاب المقدس جانبًا وأن يخضـعوا لقادة الكنيســـة؟ لا، لم يتراجع جون ويكليف البتة، بل كان يقول: "إن البابا لا يتمتع بسـلطة إصـدار الأحكام أكثر من أي كاهن آخر، وينبغي أن تُطاع كلماته، فقط عندما يتبع كلمات المسيح، فأنا تحت عهد طاعة ناموس المسيح".

وسأله أحد تلاميذه يومًا قائلا: "ما هو مصيرك؟ وماذا عن مكانك بالجامعة؟ وعن حياتك؟" فأجابه قائلاً: "عندما أتيت إلى أكســـفورد من حوالي ثلاثين عاما، كنت منجذبًا لحكمة العالم، فلقد أردت الشـهرة قبل أي شـيء آخر، ورغبت في أن يكرمني الناس، ولكن أحمد الله الذي خلَّص نفســي وأراني أمجاد كلمته! وأنا على أتم استعداد لاتباع تعاليم الكتاب حتى إلى الموت إذا لزم الأمر".

ثم جاء موت البابا غرغوريوس المفاجئ قبل أن يرى إعدام ويكليف، وتبع هذا صـــراع عنيف حول من ينبغي أن يخلفه، صـــراع مكَّن ويكليف من متابعة

تعليمه وكتاباته وترجماته وتدريبه للشـــباب، ليذهبوا ويعظوا بالحق الكامل لكلمة الله، وكان يقول لهم: "عيشوا حياة مصلية ومقدسة وأمينة. لتكن أعمالكم مستقيمة، حتى لا يستطيع أحد أن يجد بكم أي خطأ، لأن مثال الحياة الصالحة هو الذي يحرك الإنسان، أكثر من الوعظ الصحيح وحده".

وبدأ المئات من الشباب، الذين ارتدوا ثيابًا بنية بسيطة، في التجول بالكتاب المقدس المكتوب بخط اليد باللغة الإنجيليزية، وسافروا في أنحاء بريطانيا يقرأون من الكتاب المقدس، ويكرزون بالأخبار السارة عن يسوع المسيح وينشدون مزامير التسابيح. وبدأ الطلاب يتوافدون على أكسفورد من جميع أنحاء أوروبا، ثم عاد الكثيرون إلى وطنهم ليترجموا الكتاب المقدس إلى لغاتهم ويخبروا أهل بلادهم عن يسوع المسيح بلغتهم. وأُطلق على هذه الجماعة اسم "لولارديين". ولا يعرف أحد لماذا أُطلق عليهم هذا الاســـم، لعله جاء من الكلمة القديمة "لولين" والتي تعني يرنمون.

وكان ويكليف يقول لوعَّاظه المتجولين: "بعد أن تنتهوا من عظاتكم، زوروا المرضى والمسنين والفقراء والعميان والمقعدين، وساعدوهم بقدر استطاعتكم". وبهذه الأعمال ربح اللولارديُّون حب الناس، وقبل الكثيرون المسيح وبدأوا يتعلمون كلمة الله لأول مرة في حياتهم. ولم يقبل الكهنة المحليُّون هذا الأمر، وحصـــلوا على حكم يسمح لهم بوقف المبشرين، وكانوا ينتظرون مجيء المبشرين عند دخولهم المدينة لينقضوا عليهم، ولكن الناس انحازوا للكارزين وشكلوا دائرة حولهم ليحموهم من أي أذى.

وفي عام ١٣٨٢ م، بدأ غضب كبير أساقفة كانتربري يتصاعد، بسبب التأثير المتزايد لويكليف وكارزيه؛ لذا دعا لانعقاد مجلس كنسي لسحقهم. ولكن عندما شرع المجلس في كتابة حكم إدانة ضد ويكليف، ضرب لندن زلزال مروع زلزل حجر المبنى الذي كانوا مجتمعين فيه بعنف. وتردد رجال الكنيســـة المذعورون، من المضي قُدُما في هذا الموضوع، إيمانا منهم أن الله كان غاضبا من عملهم، ولكن رئيس الأســاقفة قسَّــاهم بقوله: "ألا تعلمون بأن الأرض تطلق

أبخرتها الضـــارة التي تفقد قدرتها عندما تخرج إلى الأرض؟ بنفس الطريقة، إذا تخلصنا من الرجال الأشرار من مجتمعنا، سنضع حدًّا لمشاكل الكنيسة". وعلى صعيد آخر صرَّح ويكليف أن الرب قد أرسل هذا الزلزال، ليوبخ هرطقات رجال الكنيسة، مثلما "ارتجفت الأرض عندما مات يسوع على الصليب".

وهكذا أدان المجلس ويكليف، وضـــغط رئيس الأســـاقفة على الملك حتى يســـرع بإلقاء القبض عليه في الحال، وقال للملك: "إذا ســـمحنا لهذا الهرطوقي بالاســـتمرار، فإن دمارنا محتوم. علينا أن نُســـكِت هؤلاء اللولارديين - منشـــدي المزامير". فـأمر الملـك بـإلقـاء القبض على ويكليف واللولارديين. ولأن أمر الاضطهاد صدر دون موافقة مجلس العموم، أمر المجلس بإلغائه.

وتجاهل رئيس الأســاقفة مجلس العموم وعقد مجلسًــا كنســيًّا في أكســفورد واستدعى ويكليف، الذي لم يكن في صـحة جيدة ليقف أمامه. وتوسـل أصـدقاء ويكليف إليه حتى لا يمثل أمامهم، فأجابهم ويكليف: "ماذا تقولون، هل أعيش وأكون صـامتًا؟ هيهات. فلتهُبِّ العاصـفة فأنا في انتظارها". وهكذا واجه ويكليف مضطهديه ووبَّخهم على عدم سلوكهم وفق كلمة الله، وعلى تضليل الشعب وعلى استخدام مناصبهم من أجل تحقيق مكاسب أنانية. وقال مُنهيا حديثه بالقول: "في النهاية لا بد وأن تنكشـــف الحقيقة". وترك المجلس وخرج، ولم يتجرأ أعداؤه على التفوُّه بأية كلمة.

وهكذا طُرد ويكليف من جامعة أوكسفورد، ولكن انقسامات الكنيسة وأيضًا الدولة، حالت دون القبض عليه وإعدامه. ولم ينســـحب ويكليف بهدوء، ولكنه استمر في الكتابة وترجمة الكتاب المقدس والوعظ قائلاً: "ليس لقانون الكنيسة أية ســـلطة عندما يقاوم كلمة الله"، وأضـــاف قائلاً: "لقد عقدت العزم أن أكون مؤمنًا حقيقيًّا من كل قلبي بنعمة الله، وسأظل ما حييتُ أبشر بكلمة الله وأدافع عنها".

وبعد سنتيْن توفي ويكليف جراء سكتة دماغية، ولكن أتباعه واصلوا العمل، غير أن قادة الكنيسة عقدوا العزم على سحق اللولارديين، فأمروا بحرق كل الكتب

المقدسة المترجمة إلى الإنجليزية، وكل كتابات ويكليف، مع الكثير من اللولارديين أنفسهم.

ومع ذلك فشل هذا الاضطهاد الشرس في إطفاء نور الإنجيل الذي أضاءه الرب من خلال جون ويكليف، ولقد أثرت كتاباته فيما بعد على قادة حركة الإصلاح البروتستانتية، ولهذا السبب عُرف ويكليف بأنه "كوكب صبح عصر الإصلاح".

في عام ١٤٢٨ م، أي بعد وفاته بأربع وأربعين عامًا، أخرج قادة الكنيسة عظام ويكليف. وكرمز على شجب تعاليمه، تم حرق بقايا جسد جون ويكليف وألقوا برماد جثته في مجرى مائي يسمى سويفت. وبعد سنين كثيرة كتب عنه أحد المؤرخين الإنجليز يقول: "لقد أحرقوا عظامه وألقوا رمادها في السويفت، جدول المياه سريع الجريان، الذي حمله إلى جدول الأفون ومن الأفون إلى سيفيرن ومن السيفيرن إلى البحار الضيقة ومنها إلى المحيط الكبير. ومثلما انتشر رماد ويكليف، انتشرت رسالته في جميع أنحاء العالم".

...

جون هاسّ

رائد الإصلاح

جون هاسّ ١٣٦٩ م – ١٤١٥ م

حصـــل كهنة براغ، التي تقع في بوهيميا، في ٢ أكتوبر ١٤١٢ م، على ما كانوا يلتمســونه من البابا، وهو إصـــدار مرســوم بإلقاء القبض على جون هاسّ يمنعه من وعظه ويحرمه كنسيًّا، ويدمر كنيسة "بيت لحم".

لقد كان جون هاسّ، الرائد اللاهوتي وواعظ براغ، بمثابة الشـوكة المغروسـة في جنب القساوسة لسنوات، فلقد كانت كنيسته "بيت لحم" تعج بالشعب لما تقدمه من خدمات. وكان هاسّ يقدم خدمته باللغة التشيكية، لغة الشعب وليس باللاتينية كما طلب البابا، فكان يعظ بكلمة الله ويدين كسـل رجال الدين وجشـعهم. عندئذ، وبعد تحريض القسـاوسـة وبعض من قادة المدينة، اجتمع حشـد غفير من الناس خارج مجلس الشيوخ. وأخذ قادتهم في الصياح قائلين: "هلم يا رجال، لنذهب إلى كنيسـة بيت لحم ونلقي القبض على هاسّ المهرطق، ونهدم هذه الكنيسـة". ولكن شعب كنيسة "بيت لحم" احتشدوا دفاعًا عن راعيهم وعن كنيستهم.

فقال لهم هاسّ: "أيها الإخوة والأخوات، هؤلاء الناس يريدون أن يعوقوا كلمة الله المقدســة ويحطموا كنيســة شُــيِّدت من أجل خدمته". فواجه أصــدقاء هاسّ الجماهير الغاضبة المحتشدة، حتى انصرفوا دون هاسّ ودون أن يؤذوا الكنيسة. ولكن أعداءه لم يكفُّوا عن مهاجمته، فوضـــع البابا كل مدينة براغ تحت الحرمان ومنع الخدمات الكنسية، حتى تلقي السلطات القبض على هاسّ؛ فحدث انقسام في المدينة بين مؤيدي هاسّ ومؤيدي البابا، وتفاقم التوتر ونشـــب الكثير من النزاعات، ولم يذعن جون هاسّ لحظر البابا، ولكنه اســـتمر في الكرازة بالأخبار الســارة عن يســوع، وكان يقول: "لقد أمر المســيح تلاميذه بأن يذهبوا إلى العالم أجمع ويكرزوا"، وأضـــاف: "لا يســـتطيع أي بابا أن يمنع ما طلب المســـيح أن يُعمَل".

وبالرغم من نفي ملك بوهيميا لهاسّ من براغ، فإن الجموع كانت تحتشد في الحقول والغابات والقرى والقلاع لتستمع إليه، وبقي على اتصال بشعب كنيسته عن طريق الخطابات، وكان يتسلل أحيانًا إلى المدينة ليزورهم، وكتب لهم في إحدى المرات: "إن أكثر شيء يريحني، هو أنني أراكم جادّين في اتّباع الكتاب المقدس، وأطلب منكم أن تصلُّوا حتى أقدِّم كل ما لديَّ من كلمة الله". وكان بعض من أصدقائه قلقين بشأن سلامته، فطلبوا منه أن يتنازل بعض الشيء للبابا، فرد عليهم قائلاً: "سأعترف بالمسيح طالما يمنحني النعمة للقيام بذلك، سأظل أقاوم، كل التعاليم الخاطئة حتى الموت، فالموت المشَرِّف أفضل من الحياة الباطلة".

واستمر يكتب ويعظ ويقاوم حظر البابا لمدة عامين، وأخذ عدد المناصرين له في التصاعد. وعندما تصاعد الاضطراب، خشي الإمبراطور الألماني سيجيسموند من وصول الاضطرابات إلى إمبراطوريته، لذا استحث ملك بوهيميا على إرسال هاسّ ليمثل أمام المجلس الكنسي في المدينة السويسرية كونستانس. ووعد الإمبراطور بحماية هاسّ من أي أذى قد يتعرض له، وأعطاه خطابا رسميًّا للحماية، ليذهب ويعود به من كونستانس. فوافق هاسّ بسرور على الذهاب، حيث كان يتوق للدفاع عن تعاليمه أمام المجلس، فكتب للإمبراطور قائلا: "تحت الخطاب الرسمي بالحماية، سأمثُل أمام المجلس، وأرجو ألا أخشى من الاعتراف بيسوع المسيح، ولو اقتضى الأمر أن ألقى حتفي من أجل الحق المذكور في شريعته".

وحذره الكثيرون من شعب كنيسته ألا يثق في مرسوم الأمان الإمبراطوري هذا ، وغرغرت أعين أحدهم بالدموع وهو يأخذ بيد هاسّ ويقول: "ليكن الله معك، أخشى ألا تعود إلينا مرة أخرى سالمًا، أيها المعلم جون، ليجازك ملك السماوات خيرًا عن التعاليم الصالحة والحقيقية التي تلقيتُها منك".

وودع هاسّ شـــعب كنيســـته قائلاً: "تذكروا أن المســـيح قد عُذِّب من أجل مختاريه، وإذا كان موتي سيمجد اسمه ، فليمنحني نعمة لأتحمل بشجاعة الشر الذي سيلحق بي. ليحرسكم الرب وليقودكم إلى السلام الأبدي والمجد الأبدي".

وتوجه هاسّ إلى كونســـتانس تحت حراســـة اثنين من جنود الكاتدرائية المسلحين. وأخذت الرحلة عبر ألمانيا إلى سويسرا ثلاثة أسابيع، وخرجت الحشود لتشاهده ولتسمعه. وأينما ذهب كان يترك نسخة من الوصايا العشرة، فلم يكن الناس في تلك المناطق يعرفون شيئًا عن الكتاب المقدس.

وبالرغم من وعد الإمبراطور بالحماية، فلم يمضِ وقت طويل على وصـــوله حتى ألقى الجنود القبض عليه وألقوه في زنزانة متعفنة بجوار بالوعة مفتوحة. وأثرت الرائحة النتنة والهواء الملوث على صحته، وأصابته بصداع شديد وداهمته نوبات تقيؤ شديدة. وبالرغم من حرمانه من كتابه المقدس ومن كتبه، وبالرغم من مرضـــه وجوعه ومن ربطه في الســـلاســـل ليلاً ونهارًا، فإنه أَعَدَّ دفاعه. ولكن المجلس لم يكن يعتزم أن يعطي الفرصـــة لهاسّ حتى يدافع عن نفســـه، فقرروا مســـبقًا أن يتنازل عن تعاليمه وإلا يُحرق؛ فطلب هاسّ محاميًّا ليتحدث بالنيابة عنه، فأجابوه: "نحن لا نمنح هذا الامتياز للمهرطقين". فرد عليهم قائلاً: "إذًا فليحامِ عني الرب يسوع المسيح، الذي سيكون قاضيكم قريبًا".

وأخيرا وبعد المعاناة لأشهر من السجن والصداع وآلام المعدة، تم إحضار هاسّ إلى الكاتدرائية ليمثل أمام المجلس، ويســـتمع إلى الاتهامات الموجهة إليه. فأجلسوه على كرسي خشبي عالٍ في وسط الكاتدرائية، محاطًا بالأمراء والأساقفة والكاردينالات واللاهوتيين، بينما اعتلى الإمبراطور سيجيسموند كرســـي العرش، وفاحت رائحة البخور المتبقية من القداس الذي أقاموه قبل وصـــوله، ثم وضـــعوا أمام هاسّ على المنضـــدة، مجموعة كبيرة من الكتب والأوراق، وســـألوه قائلين: "هذه الكتابات لك، هل تعترف بأنها مليئة بالتعاليم الخاطئة؟" فأجابهم هاسّ: "أنا على أتم استعداد للتراجع عن أي شيء بها، إذا أثبتم لي من الكتاب المقدس بأنها خاطئة". فتقدم أحد المستشارين وأمسك بأحد الكتب، وصاح العديد من رجال

المجمع: "احرقه". فطلب المستشار منهم الهدوء، وقرأ فصلا قصيرا بصوت مرتفع، وعندما انتهى من القراءة سأله: "هل تتراجع عن هذا الكلام؟" وعندما حاول هاسّ الاستشهاد ببعض من فقرات الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة ليدافع عن هذا الفصل، ارتفعت من المجلس صيحات تشبه عواء الذئاب وصرخوا قائلين: "دعك من حججك، أجب بنعم أو لا". وكلما حاول التحدث، كانوا يقاطعونه بصياحهم. وعندما استطاع أن يقول إن يسوع وحده هو رأس الكنيسة وليس البابا، هز أعضاء المجلس رؤوسهم وضحكوا عليه، وطلبوا منه مرة أخرى أن يقبل حكم المجلس ويعترف بخطئه؛ فقال لهم: "من الأفضل لي أن يعلق حجر الرحى حول عنقي وأُلقَى في البحر، قبل أن أنكر الحق الإلهي". وسرعان ما قُرِىء الحكم: "أن المجلس المقدس إذ يضع الله وحده نصب عينيه يدين جون هاسّ بالعناد والهرطقة".

فرد هاسّ عليهم قائلا: "لم أكن عنيدًا أبدًا، ولا أطلب إلا أن توضحوا لي من الكتاب المقدس أين أخطأت". ونظر هاسّ إلى الإمبراطور الذي وعده بالحماية، فاحمرَّ وجهه وأدار رأسه ولم يقل شيئًا، ثم جثا هاسّ على ركبتيه وصلى بصوت مرتفع قائلاً: "يا مسيح الله، لقد أدان المجلس كلمتك. يا رب يا يسوع اغفر لأعدائي، فأنت تعلم بأنهم يتهمونني باطلاً. اغفر لهم من أجل رحمتك العظيمة".

وتوالت ضحكات رجال المجلس الذين أشاروا بأصابعهم عليه وقلَّدوا صلاته. وحوَّل المجلس هاسّ إلى حكام مدنيين، وهؤلاء حكموا عليه بالموت حرقًا. وقبل إعدامه، وضع ستة أساقفة ثيابًا كهنوتية حول كتفيه، ووضعوا في يده كأس العشاء الرباني، ثم جردوه من زيه قائلين: "إن هذا الرجل لم يَعُد خادمًا في كنيسة المسيح". ونزعوا منه الكأس وقال أحدهم: "نحن ننزع كأس الخلاص منك يا يهوذا الإسخريوطي".

فأجابهم هاسّ: "ولكنني أثق في الرب أني اليوم سوف أشرب من كأس الخلاص مع الرب يسوع المسيح في ملكوته". وبينما كانوا يلعنونه، وضعوا على رأسه قبعة مرسوم عليها شياطين ومكتوب عليها: "رئيس الهراطقة"؛ فقال هاسّ:

"إن إلهي يسوع المسيح لبس تاجا من الشوك من أجلي، فِلمَ لا أرحب بارتداء هذا من أجله؟" وصاح أحد الأساقفة قائلاً: "والآن نسلم روحك للشيطان"؛ فنظر هاسّ إلى السماء وقال: "أما أنا، فأستودع روحي بين يدي يسوع". وتحت حراسة ألف حارس مسلح، اقتادوا هاسّ خلال شوارع المدينة، مانعين الناس المحتشدة على طول الطريق من التعرض له. وتبعهم جمع كبير إلى موضع تنفيذ حكم الإعدام. وهناك جثا هاسّ على ركبتيه، وبدموع في عينيه صلى بعض الآيات من سفر المزامير وقال: "يا رب في يديك أستودع روحي، ساعدني يا رب أن أحتمل هذه الميتة المشينة، من أجل الكرازة بإنجيلك المقدس". وربطوا يديه خلف ظهره بسلسلة قديمة، وثبتوا رقبته في السارية، ثم قال: "إن ربي يسوع رُبط من أجلي بسلسلة أقوى من هذه، فلماذا أخجل إذًا من هذه السلسلة الصدئة؟"

وبينما كانوا يجمعون حوله الخشب والقش، ليضرموا فيه النيران، صاح أحد النبلاء: "لا يزال هناك وقت للتراجع". فأجابه هاسّ: "وعن أي خطأ أتراجع؟ سأموت اليوم في الإيمان بإنجيل يسوع المسيح الذي كرزت به". وعندما أشعلوا النيران بدأ يرتل بصوت مرتفع قائلاً: "يا يسوع يا ابن الله الحي ارحمني". ثم ألقوا بملابسه وحذائه في النيران، وجمعوا كل الرماد وألقوه في نهر الراين.

وقد ألهم موت هاسّ عشرات الآلاف من رجال مدينته، ليتبعوا المسيح بجرأة. وبعد مرور مائة عام، فإن ثباته في كلمة الله شجَّع مارتن لوثر والمصلحين الآخرين في إيمانهم بأن الكتاب المقدس هو المقياس الأعلى للحق. ومدح لوثر شجاعة هاس وأمانته وإيمانه، وكتب عنه قائلاً: "إذا كان هاسّ مهرطقًا، إذًا لا يوجد شخص تحت الشمس يمكن أن يعتبر مسيحيا حقيقيا".

عصر الإصلاح

توضيح رسالة الإنجيل

إن عصـــر الإصـــلاح كان بمثابة نهضـــة روحية اجتاحت أوروبا في القرن السـادس عشـر الميلادي، وذلك بعد أن اكتشـف المصـلحون الحقيقة الأسـاسـية للإنجيل، وهي أن الخطاة يتبررون بيسوع المسيح. ولقد خاطر الكثير من الرجال والنساء الشجعان ليعلنوا هذه الحقيقة.

* مارتن لوثر
أبو عصر الإصلاح
* ويليام تيندال
مترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية
* جون كالفن
لاهوتي الإصلاح
* آن أسكيو
شاهدة الرب الجسورة
* لاتيمير وريدلي وكرانمار
الأساقفة الشهداء
* جون نوكس
المصلح الأسكتلندي
* جان دالبريه (Jeanne d'Albret)
ملكة مُصلَحة
* رينيه
دوقة فيرارا

مارتن لوثر

أبو عصر الإصلاح

مارتن لوثر ١٤٨٣ م – ١٥٤٦ م

في أحد أيام أواخر صيف ١٥١٧ م، وبينما كانت الشمس تُلقي بضوئها الذهبي فوق مدينة ألمانيَّة بالقرب من حدود ساكسونيا، كان جمعٌ غفير من القرويين والتجار واللوردات والسيدات ينتظرون بشغف، حين أُطلقت الأبواق معلنة عن اقتراب موكب كبير من ميدان المدينة، يترأسه محافظ المدينة، وخلفه الكهنة والرهبان رافعين الأعلام اللامعة ذات الألوان الحمراء والبيضاء والأرجوانية، مُزَيَّنة بصليب المسيح والمفاتيح الذهبية التي تمثل سلطة البابا. ودخل الواعظ الطواف في ردائه الأبيض في عربة مزخرفة. وأخيرا وصل أحد رجال الكنيسة ورفع وسادة مخملية مطرزة بالذهب عليها رقوق، وكانت تحوي صكوك غفران البابا، وهو خطاب بابوي يمنح الغفران. وبمجرد وضع الأعلام حول رصيف في الميدان، هدأ الجمع ووقف الواعظ "تيتزيل" ليعظ.

بدأ يعظ وهو يشير بإصبعه إلى الناس، ويتواصل معهم بعينيه في كل جزء من الميدان قائلا: "انصتوا يا أبنائي الأعزاء، لأن الله والقديس بطرس يدعوانكم. هل تعلمون أن حياتكم تشبه سفينة صغيرة تحاصرها عاصفة شديدة؟ إن الخطية والتجربة تتقاذفكم، فهل تعتقدون أنكم ستبلغون السماء؟" وكشفت عيون الناس المسدلة أن رسالة تيتزيل قد أصابت الهدف. وأضاف: "أما اليوم بل الساعة فلقد حانت لكم الفرصة لتُمحى خطاياكم، حيث أن الأب المقدس البابا ليو، أعلن غفرانا خاصا لكم، فاعترفوا بخطاياكم وضعوا بعض النقود في الصندوق، وستُغفر لكم خطاياكم".

واستغل تيتزيل خوف الشعب من المطهر، وهو مكان كانت الكنيسة الرومانية تعتقد في وجوده بين السموات والجحيم، يذهب إليه المسيحيون بعد الموت ليعاقبوا على خطاياهم وليتطهروا منها قبل دخول السماء. وأضاف تيتزيل: "ولا تنسوا يا أبنائي أقاربكم الأعزاء الأموات. انصتوا جيدًا، ألا تسمعونهم ينادونكم

من عذاب المطهر قائلين: "اشـــفقوا علينا! اشـــفقوا علينا! نحن في عذاب رهيب وبإمكانكم أن تخلصـونا بقدر قليل من المال، ألا تضـعون القليل من العملات في الصـــندوق وتفتحون لنا أبواب الســماء؟" وأنهى كلامه صـــائحًا: "بمجرد أن ترن العملات في الصندوق، تنطلق الروح من المطهر!"

وأسرع الكثيرون وأفرغوا جيوبهم وعادوا إلى منازلهم فرحين متشبثين بصكوك الغفران على صـدورهم، ضـمان غفران الخطايا. وأخبر بعض من شـعب ويتنبرج، قسـيسـهم مارتن لوثر بحماس عن رسـالة تيتزيل، وأروه صـكوكهم؛ فعبس مارتن لوثر الذي كان يبلغ من العمر الرابعة والثلاثين، وقد حلق قمة رأســـه دلالة على رهبنته وتنهد بعمق. فلقد اعتاد لوثر أن يشـــتري صـــكوك الغفران، وفي محاولته للحصول على الغفران كان حريصا على أداء كل الواجبات التي فرضتها الكنيسة، ومع ذلك ظلت خطاياه تؤرقه، إلى أن قرأ رســـالة بولس الرســـول إلى أهل رومية ١٧:١، "لأن فيه (أي الإنجيل) معلن بر الله بإيمان لإيمان، كما هو مكتوب: أما البار فبالإيمان يحيا".

وكان الحق الإلهي، المعلَن في هذه الآيات، سببا في تحوّل حياة لوثر، فلقد اكتشف أن الخاطئ لا يتبرر أمام الله بأي عمل يقوم به بنفسه، بل بثقته بما فعله المســـيح من أجله، فقال: "لقد شـــعرت كما لو أنني قد وُلدت من جديد ودخلت الفردوس من أوســـع أبوابه، وعرفت أن الله قد منحني بر المســـيح بالإيمان. لقد تحمَّل يسوع عني عقاب خطيتي على الصليب، وبالإيمان يصبح بر المسيح هو برّي أنا". ولقد حررت هذه الأخبار السـارة لوثر من النضـال من أجل الحصـول على نعمة الله، من خلال زيارة الأماكن المقدســـة وصـــكوك الغفران والآثار المقدسة، وأصبحت خدمته تنبع من شعوره بالامتنان لخلاصه.

وبدأ لوثر يعظ بأن الخطاة يتبررون بالإيمان بالمســيح وحده، ولكن شــعب كنيســـته الذي لم يكن يعرف شـــيئًا عن الكتاب المقدس، قبلوا تعاليم الكنيســـة الرومانية دون نقاش؛ فلقد آمنوا بأنه يمكنهم الحصـــول على الغفران من خلال

صـكوك الغفران والصـلوات للقديسـين وتبجيل الآثار المقدسـة (أجزاء من عظام القديسين وبعض من خصل شعورهم وأسنانهم).

وكانت كنيسـة القلعة في وتنبرج، تضـم أكثر من ١٧٠٠٠ قطعة من الآثار المقدسة، وكانت هذه هي أكبر مجموعة في ألمانيا. وادَّعوا أن بين هذه الرفات ٤ خصـل من شـعر العذراء القديسـة مريم، وبعض من التبن الذي كان في مذود الطفل يسوع، وأحد مسامير الصليب وقطعة خبز من العشاء الأخير. وقد صرح البابا بأن من يزور كنيسـة القلعة في يوم جميع القديسـين ليكرم الآثار المقدسـة ويدفع بعض الأموال، فإنه يقلل من الوقت الذي سـيقضـيه في المطهر بأكثر من مليون سنة.

واشـتاق لوثر أن يقود الناس خارج ظلام هذه الخرافات والأعمال الباطلة، إلى نور الإيمان بيسوع المسيح. ولقد شجعته فكرة تيتزيل عن الرنين: "بمجرد أن ترن العملات في الصـندوق تنطلق الروح من المطهر!" بأن يأخذ موقفًا إيجابيًا؛ فصـرح علنًا بأن تعاليم تيتزيل وبيع صـكوك الغفران، هي تعاليم زائفة. وكان يعظ قائلاً: "المسـيح وحده هو من له سـلطان غفران الخطايا، أما البابا، فليس له هذا السـلطان، ولا يسـتطيع تحرير الأرواح من المطهر، فلو كان لديه هذا السـلطان، فلماذا لا يحرر الجميع من المطهر في الحال؟ ولماذا لا يقوم بهذا العمل دون مقابل؟"

وكتب لوثر قائمة من خمس وتسعين حجة وأطروحة ضد صكوك الغفران. وفي ٣١ أكتوبر ١٥١٧ م، علق هذه القائمة على باب كنيسـة القلعة، متحديًا بذلك قادة الكنيسة وعلماءها، ليناقشوا بيع هذه الصكوك. ثم قامت إحدى المطابع بنشـر هذه القائمة، وسـرعان ما انتشـرت في جميع أنحاء ألمانيا وخارجها. وما اعتزم لوثر أن يناقشـه مع أسـاتذة الجامعة ورجال كنيسـة ويتنبرج، فجَّر صـراعًا روحيًا، غمر كل أنحاء أوروبا.

إيمانًا من لوثر بأن الكتاب قد علَّم الإنسـان بوضـوح عن مشـيئة الله، أشـار إلى أخطاء تعاليم كنيسـة روما في أمور كثيرة مثل (الآثار المقدسـة والصـلوات

للقديسين وحكم البابا)، لذلك أطلق عليه البابا ليو اسم "ابن الشيطان"، وأصدر مرسوما بابويًا يصرح فيه بأن لوثر مهرطق، ولذا فقد حرمه من الكنيسة وأدان كل كتاباته. واجتمع جمع غفير من الطلاب والأساتذة في ميدان جامعة ويتنبرج أمام مشعلة عظيمة، حيث قرأ لوثر نسخة من المرسوم البابوي بصوت مرتفع. وقال لوثر: "إن هذا المرسوم يدينني دون أي دليل من الكتاب المقدس، فإذا كنت مهرطقًا فأروني من الكتاب المقدس، فأنا أُفضِّل الموت ألف مرة عن التراجع عن كلمة واحدة مما كتبتُه عن الحق الإلهي المقدس". ثم ألقى لوثر بالمرسوم في النار ، وكان الجميع يعرفون أن نتيجة موقف لوثر ضد الكنيسة هو الموت حرقًا، فتوسل إليه أصدقاؤه بأن يخفف الوطأة ويصمت، ولكن لوثر أجابهم قائلاً: "لا أستطيع أن أعارض تعاليم الكتاب المقدس، فأنا بين يدي الله".

وقد تسببت رسالة مارتن لوثر في انقسام ألمانيا، فالبعض منهم ابتهجوا عندما علموا أن الخلاص يأتي بالإيمان بيسوع المسيح وحده، بينما ظل آخرون على ولائهم لتعاليم كنيسة روما. وأراد الإمبراطور الألماني أن يسوي هذا الموضوع مرة وإلى الأبد، فدعا لانعقاد اجتماع في عام ١٥٢١ م، يضم الأمراء الألمان بمدينة "ورمز" ليستمعوا إلى لوثر وإلى بعض من ممثلي البابا حتى يقرروا مصير لوثر.

فقال له أحد الأساتذة قبل خروجه من ويتنبرج: "لا تذهب يا مارتن، فالإمبراطور يكره أفكارك وسيحرقونك حيًّا مثلما فعلوا مع جون هاس". فأجابه لوثر: "أنا أضع دعواي بين يدي الله، الذي خلَّص الفتية الثلاثة من أتون النار، وحتى إن لم يخلصني، فإن حياتي لا تساوي شيئًا مقارنة بيسوع المسيح. فالآن ليس هو وقت التفكير في السلامة".

عندئذ اجتمع الأمراء والنبلاء والأساتذة والعلماء وقادة الكنيسة في "ورمز" حتى امتلأت القاعة العظمى بالحاضرين وقوفًا، فلم يكن هناك شخص جالس سوى الإمبراطور تشارلز. وقد ثبَّتوا أعينهم على لوثر، الذي وقف أمامهم في رداء الرهبان البني الخشن".

وســـأله أحد رجال الكنيســـة، وهو يلقي بكومة من الكتب والكتيبات على الطاولة التي أمام لوثر: "هذه كتاباتك، هل تدافع عنها أم تتبرأ منها وتعترف بأخطائك؟" فأجاب لوثر وهو ينحني: "أيها الإمبراطور الأعظم، أيها الأمراء الأجلاء، أيها اللوردات الرحماء، أطلب منكم أن تســـامحوني إذا كنت قد أخفقت في ذكر ألقابكم الصحيحة، فأنا لست من الحاشية الملكية ولكنني راهب، وأنا لا أســـتطيع أن أتبرأ من هذه الأعمال، إلا إذا أثبتم لي من الكتاب المقدس أني مخطئ، وعندها ســـأكون أول من يلقي بكتبي في النار". فترددت أصـــداء الهمهمات في القاعة، وتصاعد الاضطراب، فلقد وضح أن لوثر لم يأتِ ليتراجع بل ليقاوم.

فطلب منه المدَّعون عليه بأن يقبل بأن يكون مرسوم البابا ومجالس الكنيسة أعلى من الكتاب المقدس نفسه، فقالوا: "مارتن، أنت تدَّعي بأنك لا تعلِّم سوى ما يعلِّمه الكتاب، وهذا ما يقوله جميع المهرطقين. هذا ما قاله ويكليف وهاس قبلاً. مارتن، كيف تعتقد بأنك الوحيد الذي تفهم النصوص الكتابية؟ هل أنت أحكم من البابا ومن مجالس الكنيسة العظمى؟ والآن أجب علينا ببساطة، هل تتخلى عن كتبك والأخطاء التي تحويها؟"

فأجاب لوثر وهو يتأمل كل أركان القاعة بعينيه: "بما أن جلالتكم ترغبون في سماع إجابة بسيطة فسأعطيها لكم: إذا لم أُدَن من الكتاب المقدس بوضوح، فأنا لا أقبل سلطة الباباوات ومجالس الكنيسة وحدها، لأنهم عارضوا بعضهم البعض، فضـــميري أســـير كلمة الله، وأنا لن أتراجع عن شـــيء. هذا موقفي ولا أستطيع أن أغيره، فلتعنِّي يا الله". فهسهس مؤيدو البابا وصاحوا عندما ترك لوثر القاعة، وصـــرخ البعض: "أبعدوه". وتبعوه خارج المدينة مزمجرين مثل الذئاب. وكان لوثر يشك أنه سيصل إلى ويتنبرج حيًّا.

في تلك الأثناء وقف الإمبراطور تشـارلز في القاعة الكبرى وقال: "لا يمكن أن يكون راهب واحد على حق، وشـــهادة ألف عام من الديانة المســـيحية تكون خاطئة". وأيَّده الأمراء معلنين أن لوثر عدو للولاية، وحكموا عليه بالموت. وعندما

ترك لوثر "ورمز" متجهًا إلى الريف، خرجت وراءه فرقة مسلحة من الفرسان وألقت القبض عليه وأخذوه إلى قلعة قديمة مقامة على سفح الجبل. ولم يكن خاطفوه أعداء بل أصدقاء، فلقد كان الأمير فريدريك الساكسوني صديق لوثر وحاميه، هو من دبَّر لهذا الاختطاف خوفًا من أن يُقتل. وعندما تم تأمين لوثر ضد أعدائه، بدأ يترجم الكتاب المقدس إلى الألمانية.

وكان لوثر يقول: "أريد أن يقرأ الناس الكتاب المقدس بأنفسهم". ولم يمضِ وقت طويل حتى بدأت مؤسسات الطباعة في إصدار عشرات الآلاف من نسخ الكتاب المقدس باللغة الألمانية، وتصارع عليها الناس مشتاقين لمعرفة حقائق كلمة الله.

وعاد لوثر إلى ويتنبرج ليعظ ويعلم ويكتب. وإلى جانب ترجمة الكتاب المقدس كتب تفاسير لمعظم الأسفار الكتابية، وعشرات من الكتب والكتيبات عن الإيمان المسيحي وعددًا لا بأس به من الترانيم. وكانت أعظم هذه الترانيم: "الله ملجأ لنا وقوة طول المدى". ولقد أصبحت هذه الترنيمة نشيد عصر الإصلاح.

وتوفي لوثر بعد مرض فجائي، عن عمر يناهز الثانية والستين. وكانت صلاته الأخيرة: "يا أبتاه في يديك أستودع روحي، لأنك فديتني". ولقد غيَّرت كتابات لوثر وتعاليمه، أفكار جزء كبير من العالم المسيحي. ووجّه الناس إلى الكتاب المقدس ليكون المرشد الوحيد المعصوم للإيمان والحياة المسيحية. ولقد استخدم الله هذا الحق ليغيّر أفرادًا بل مجتمعات بأكملها في أنحاء العالم.

...

ويليام تيندال

مترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية

ويليام تيندال ١٤٨٥ م – ١٥٣٦ م

عندما عرف ويليام تيندال، المحروم من حماية القانون، أن رجال الكنيسة والملك قد توصلوا إلى مخبئه، حزم أمتعته وأخذ قدر ما استطاع من الكتب والأوراق وبالكاد نجح في الهروب من القبض عليه. فلقد أراد ملك إنجلترا وإمبراطور ألمانيا وبابا روما قتله. فما هي الجريمة الكبرى التي ارتكبها؟ لقد أراد تيندال أن يترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية، إلا أن قادة الكنيسة لم يريدوا أن يتمكن الناس من قراءة الكتاب المقدس بأنفسهم وبلغتهم، فلقد خشي القادة أن يقلل هذا من سلطانهم، لذا أصدروا مرسوما بأن ترجمة ونشر وتوزيع الكتاب المقدس باللغة المألوفة، جريمة عقوبتها الموت.

ولكونه عالمًا جامعيًّا، توصل تيندال إلى الإيمان المخلِّص عن طريق قراءة العهد الجديد باليونانية. فعندما درس الكتاب بنفسه اكتشف أن الكثير من تعاليم الكنيسة الرومانية مخالف لتعاليم الكتاب المقدس، وتعتم طريق الخطاة إلى المسيح. ولعدم قدرة معظم الناس على قراءة اليونانية أو العبرية أو اللاتينية، قرر تيندال أن يترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية، حتى يستطيع كل شعب إنجلترا قراءة الكتاب المقدس بأنفسهم.

وذات مرة لقي بعض الآباء حتفهم حرقًا في كوفينتري بإنجلترا، لأنهم علَّموا أولادهم الصلاة الربانية والوصايا العشرة بالإنجليزية. ولقد أبكت هذه الحوادث الوحشية تيندال، لذا وعظ من الكتاب المقدس، وحث الناس على اتباع كلمة الله.

وذات مرة صرخ أحد الأغنياء المتعلمين، الذي كان قد ملّ من استشهاد تيندال بآيات من الكتاب المقدس، قائلاً: "سيكون حالنا أفضل بعيدًا عن ناموس الله عما لو ابتعدنا عن قوانين البابا". فأجابه تيندال: "وأنا أتحدى البابا وكل قوانينه، وإذا أبقى الله على حياتي، فسيعرف الفتى القروي عن الكتاب المقدس، أكثر مما تعرف أنت". وبسبب الخطر المحدق من محاولة ترجمة الكتاب المقدس

في إنجلترا، عبر تيندال القنال الإنجليزي سـرًّا عام ١٥٢٤ م، إلى الأراضي الأوروبية الرئيسية. وكرجل مطارَد، اجتاز أراضي غرب أوروبا وعمل بلا كلل في الترجمة وبقي متقدما عن مطارديه.

وبالرغم من الخطر والحياة القاسية، إلا أنه انتهى من ترجمة العهد الجديد وطبعه وتهريبه إلى إنجلترا. وخبأ التجار كتب العهد الجديد في حمولاتهم، فتسرب الكتاب إلى البلاد بالرغم من عملاء الملك، الذين فتشوا عن الكتب المحظورة في كل السفن. ورغم هذا دخلت البلاد الآلاف من النسخ مخبأة في صناديق الكتان أو براميل الحبوب. وعلم قادة الكنيسة وقادة الحكومة بأنهم لو فشلوا في إيقاف تيندال، فسيغمر البلاد فيضان من الكتب المقدسة رخيصة الثمن، وهكذا سيتمكن الشعب من قراءة كلمة الله بأنفسهم. وتمكنوا بالفعل من الإمساك بالكثير من نسخ العهد الجديد وحرقوها على الملأ، وأعلنوا تيندال مهرطقًا.

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى تيندال قال: "لقد توقعت أن يحرقوا العهد الجديد، وقد يتمكنوا من حرقي أنا شخصيًّا في يوم من الأيام، ولكنني راغبٌ أن أنفذ مشيئة الله". وبعد انتهائه من ترجمة العهد الجديد، انتقل تيندال إلى المهمة الأصعب، وهي ترجمة العبرية، اللغة الأصلية للعهد القديم، إلى الإنجليزية. وكان عملاء الملك على مقربة منه.

وفي عام ١٥٢٩ م، عندما وصله أن أعداءه على مقربة منه، حزم المخطوطات الإنجليزية، لأول خمسة أسفار من العهد القديم، التي انتهى منها وهرب إلى أنتْوِيرب ببلجيكا، وأخذ السفينة المتجهة إلى هامبرج بألمانيا. وعندما أبحرت سفينته شمالاً إلى هامبرج، شكر الله لهروب سالم آخر، ولكن عندما اقتربوا من شاطئ هولندا، ضربتهم عاصفة قوية وأخذت مياه بحر الشمال تتقاذفهم إلى أن دمرت سارية السفينة ودفعت بالسفينة المتعسرة إلى الصخور، وبالكاد نجا تيندال وبعض الركاب الآخرين من الغرق، وذلك بالقفز في المياه الباردة والزحف إلى الشاطئ. وفي دقائق قليلة تحطمت السفينة. وكان تيندال واقفًا على الشاطئ تحت المطر يرتعش وهو يرى كل كتبه تغرق، فقد ابتلع البحر

عمل ثلاث سنوات من الترجمة. ولكنه قرر أن يبدأ ثانية. واستقل تيندال السفينة التالية المتجهة إلى هامبرج، وترجم أسفار التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية مرة أخرى. وعندما انتهى من ترجمتهم، عاد سرًّا إلى "أنْتويرب" ليتابع طباعتها وشحنها إلى إنجلترا.

كان ميناء "أنْتويرب"، أغنى ميناء في أوروبا، منفذًا لتجارة نشطة مع إنجلترا، لذا كان يعيش في "أنْتويرب" عدد كبير من التجار الإنجليز. وقد دُعي تيندال، من تاجر إنجليزي تقي يُدعى توماس بوينتز، ليقضي بعض الوقت في منزله، وهكذا قبل تيندال الدعوة. ووفرت له أسرة بوينتز سريرًا مريحًا ووجبات جيدة ومكتبًا استخدمه في الترجمة. وفي أحد الأيام تقابل تيندال مع شاب إنجليزي يدعى هنري فيلبس، الذي شجعه على المضي قُدمًا في عمله إذ قال له: "إن شعب إنجلترا في حاجة إلى قراءة الكتاب المقدس بأنفسهم". ولكن هنري فيلبس لم يكن في الحقيقة سوى جاسوس، استأجره قادة كنيسة إنجلترا ليختطف تيندال ويقوده للمحاكمة. وفي إحدى الأمسيات دعاه فيلبس على العشاء وقبل تيندال الدعوة، وفي الطريق قاده إلى زقاق ضيق حيث كان اثنان من الحرس في انتظاره، فانقضوا عليه وأوثقوه بالحبال وألقوا به في زنزانة رطبة في قلعة فيلفورد، أحد حصون العصور الوسطى.

ولم ييأس تيندال بالرغم من مواجهته لحكم الإعدام، ولم يكن يأسف على شيء. إلا إنه ترجم فقط ثلث العهد القديم. وبقي في هذه الحفرة المليئة بالفئران لمدة ثمانية عشر شهرًا، إلى أن ضعفت صحته، حيث أعدت السلطات اتهاماتها ضده. أثناء ذلك حاولوا أن يرشوه وهددوه، بل وأيضًا عذبوه، ليرتدّ عن موقفه، إلا إنه ثبت في إيمانه كالصوان.

وفي وسط ظلام زنزانته أعد تيندال دفاعه بكتابة مقالة عنوانها: *الإيمان وحده يبرر أمام الله*. وفي هذه المقالة شرح الأخبار السارة التي بالكتاب المقدس، موضحًا من نصوص الكتاب أن كل من يثق في المسيح، تُغفر له خطاياه. وبينما كان في سجنه، أثر تيندال في السجان مثلما أثر الرسول بولس في سجان

فيلبي بشخصيته المسيحية وحججه الثابتة، حتى أن السجان والكثير من أفراد عائلته آمنوا بيسوع المسيح.

وأخيرًا، عندما بدأت المحاكمة، وقف تيندال بمفرده، واتهموه بالهرطقة لتعليمه أن الخطاة يبرَّرون أمام الله بالإيمان فقط، وليس على المسيحيين أن يذهبوا إلى كاهن لينالوا الغفران، وأنه من حق الناس قراءة الكتاب المقدس بلغاتهم. وهكذا دافع تيندال عن تعاليمه بآيات من الكتاب ورفض أن يتراجع.

فأدانته المحكمة بكل التهم الموجهة إليه وحكمت بحرقه على السارية. وفي أكتوبر ١٥٣٦ م، أوثق الحراس ويليام تيندال إلى عمود خشبي، وأحاطوه حتى خصره، بمادة ملتهبة وقش وزند من الخشب مرشوش بمسحوق البارود. وجلس أعضاء الكنيسة وكبار المسؤولين بالدولة في المقدمة على كراسي العظماء المزودة بوسائد، واحتشد جمع غفير من أهل المدن ليشاهدوا الإعدام. ورفع تيندال صوته ليصلي لآخر مرة وقال: "إلهي، افتح عيون ملك إنجلترا".

وأشعل أحد الحراس النيران، ولقي تيندال ميتة مؤلمة، ولكن الله استجاب لآخر صلاة له، ففي أقل من سنتين بعد موت الشهيد، منح الملك هنري الثامن الإذن بنشر الكتاب المقدس باللغة الإنجليزية، وأصدر مرسومًا بوضع نسخة من الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس في كل كنائس المملكة. وقد استخدمت ترجمة تيندال للكتاب المقدس كلمة مقابل كلمة على وجه التقريب في هذا الكتاب المقدس الإنجليزي الأول المعتمد.

ولم يمضِ وقت طويل على موت تيندال، حتى أعلن أسقف إنجليزي عن اجتماع لرجال الكنيسة وقال لهم: "إن العامة يعرفون الكتاب المقدس الآن أكثر من الكثيرين منا". وهكذا تحقق هدف حياة ويليام تيندال، وبدأ شعب إنجلترا في قراءة الكتاب المقدس بلغتهم وبأنفسهم.

...

جون كالفن

لاهوتي الإصلاح

جون كالفن ١٥٠٩ م – ١٥٦٣ م

في عام ١٥٣٦ م، وصـــل إلى جينيف رجل ذو أنف طويل محدب ووجه شاحب وذقن أسود مشذب، ومعه بعض من رفاقه، ونزل في فندق باسم مستعار هو "تشـارلز دي إسـبيفيل". وذهب مباشـرة إلى غرفته وأغلق باب الغرفة وجلس شـاكرًا من أجل فرصـة القراءة والراحة التي حصـل عليها. ولكن فرحته لم تكتمل، فبمجرد أن دخل المدينة، تعرف عليه أحدهم بأنه ليس تشارلز دي إسبيفيل ولكنه جون كالفن، الهارب والمطلوب من قِبَل ملك فرنسا.

كان كالفن مصـلحا بروتسـتانتيًا يبلغ من العمر سـبعة وعشـرين عامًا، وقد ألَّف كتاب *أسس الديانة المسيحية*، الذي يشـرح التعاليم الرئيسـية لكلمة الله. وقد أدان قادة الكنيسة وقادة الدولة كالفن وكتاباته.

وكان الملك فرنسـيس يقول: "إذا اتبع ابني أنا مثل هذه الهرطقات، لن أتردد في قطع رأسـه". فأمر فرنسـيس بإلقاء القبض على قادة البروتسـتانت الفرنسـيين وتعذيبهم وإعدامهم، ولهذا السبب هرب كالفن من فرنسا تحت اسم مستعار، وقاده طريق الهروب إلى جينيف بسـويسـرا. وكانت جينيف محاطة بسـور وبها عشـرة آلاف بروتستانتي صوّتوا مؤخرًا لتصبح المدينة مدينة بروتستانتية.

وبينما كان كالفن يمكث في غرفته في إحدى الليالي، فوجئ بقرعٍ على باب غرفته، فسـأل: "من القارع؟" فجاءه صـوت قوي يقول: "ويليام فاريل"، وكان فاريل معروفًا كواعظ جريء، يقود جينيف للتخلص من عادات الكنيسـة الرومانية لتعود إلى تعاليم الكتاب المقدس، فدعاه كالفن للدخول. وبالرغم من صـغر حجم فاريل، إلا إنه اندفع بقوة إلى الغرفة مثل العاصـفة الرعدية، وقد توافق وجهه الذي حرقته الشمس وشعره الأحمر، مع شخصيته النارية. وقال وهو يشد على يد كالفن بقوة: "سـيد كالفن، أشـكر الله على وجودك هنا، عليك أن تنضـم إلى العمل معي على الفور". فأجابه كالفن: "سـيدي، أنا لا أفهمك، فلقد عقدت العزم على ترك جينيف

في الصـــباح". فرد عليه فاريل: "لا، أنا أعتقد أن هذا لن يحدث، فلابد أن تبقى هنا، فلقد بدأ الإصـــلاح للتو في هذه المدينة، وأنا بحاجة إلى مســـاعدتك". فرد عليه كالفن: "لكن يا سيدي، أنا مدرس ولست خادمًا، كما إنني خجول جدًّا وليس لدي خبرة في هذا العمل، وأنا أنوي أن أكرّس طاقتي في الدراســـات والكتابات". ورفض فاريل أن يقبل كلمة "لا" كإجابة، وتوسل إلى كالفن بأن يبقى ويعلّم الناس وينظم الكنيســـة. فوقف كالفن دون حراك وقال: "يا ســـيد فاريل، لقد وضـــعت خططي بالفعل، ويجب ألا أرتبط بأية واجبات أُخَر حتى أدرس وأكتب".

فمال فاريل إلى الأمام وهو جالس على كرســـيه واشـــتعلت عيناه غضـــبًا، وأشار بإصبعه إلى كالفن وحذره بصوت مرتفع قائلاً: "أنت لا تتبع سوى رغباتك، وأنا أخبرك في اسم الله القدير، أنك إذا لم تساعدنا في عمل الرب هذا، سيعاقبك الله لأنك تسعى إلى تحقيق رغباتك الخاصة أكثر مما تسعى إلى تحقيق إرادته".

وجلس كالفن يرتعش في صـــدمة من الصـــمت مرتعبًا، فلقد جاءته كلمات فاريل كما لو كانت من أحد أنبياء العهد القديم. وقال بعد ذلك: "لقد شـــعرت كما لو كان الله يمد يده من السموات ويأسرني". وهكذا قرر كالفن البقاء في جينيف.

وبعد وصـول كالفن إلى جينيف بفترة وجيزة، عُقدت مناظرة دينية في لوزان، واجتمع المواطنون في الكاتدرائية لحضـــور المناظرة المفتوحة بين المُصـــلحين والكاثوليك الرومان. لقد حضـــر هذه المناظرة مائة وأربعة وســـبعون من رجال الإكليروس الكاثوليك، وكان فاريل المتحدث الرســـمي للمصـــلحين وقد أخذ معه كالفن، وأخذوا يتناقشون لمدة ٣ أيام، ولكن كالفن لم يتفوَّه بكلمة.

كان فاريل يحث كالفن ويشـــجعه على التكلم، ولكنه قال له: "أنت تعرف جيدًا كيف تجيب عن كل الأســـئلة، فلماذا أتدخل أنا؟" فرد عليه فاريل: "ولكنك تتمتع بنفاذ البصـــيرة والكثير من المعرفة، فمن المؤســـف أن يمنعك خجلك من استخدامهما".

وفي اليوم الرابع ادَّعى أحد الكهنة بأن كتابات أغســـطينوس وآباء الكنيســـة الأوائل تدعم تعاليم الكنيسة الرومانية، وقال وهو يشير بإصبعه إلى المُصلَحين:

"أنتم تقفون ضـد آباء الكنيسـة". ولم يكن فاريل واثقًا من الإجابة، فبدأ يتلعثم في الرد. وهنا وقف كالفن ليتحدث وتثبتت كل الأعين عليه. ونظر مباشـرة في عيني الكاهن وقال: "أكرم آباء الكنيسة المقدسين! لو كنتَ قد قرأت كتاباتهم بتدقيق لما كنت لتقول مثل هذه الكلمات". وظل لأكثر من ساعة يستشهد من ذاكرته بفقرات كاملة من كتب أغسـطينوس وترتليان وآخرين مثبتًا أن آباء الكنيسـة كانوا يتفقون مع الكتاب المقدس ومع البروتسـتانت. وأضـاف: "احكموا بأنفسـكم إذا ما كنتم معادين لآباء الكنيسـة، واعترفوا أن معرفتكم عما كانوا يعلِّمون قاصـرة". وبانتهاء كلام كالفن، كان قد دمر كل حجج القسـاوسـة، ونظر رجال الدين بعضـهم إلى بعض ولم يتفوَّهوا بكلمة واحدة، ولم يقف أحد ليدحض كلامه، ولم يوجد بين الحاضـرين من قد اسـتمع إلى مجادلة مثل هذه قبل. وبعد مرور عدة دقائق من الصـمت المُطبِق، وقف أحد رهبان الفرنسـيسـكان، ذو رداء بني، يربط خصـره بحبل، وتقدم إلى الأمام. وقد كان هذا الرجل "جون تاندي" واعظًا وعدوًّا لدودًا للبروتسـتانت وقال: "بناء على ما قد اسـتمعت له للتو، أعترف بأنني قد أخطأت ضد الروح القدس وتمرَّدت على الحق، وبسبب الجهل عشت في الخطأ ونشرت التعاليم الخاطئة، وأنا أطلب المغفرة من الله ومن شـعب لوزان، واليوم أتنحى عن منصبي كراهب، ومن الآن فصاعدًا سأتبع المسيح وتعاليمه النقية فقط لا غير". ولم يمضِ وقت طويل على المناقشة حتى اعتنق البروتستانتية أكثر من مائة قس وراهب وأخ، وربح الإصلاح "لوزان".

كان كالفن يعظ يوميًّا في جينيف ويزور المرضـى ويعطي المشـورة لمن يحتاج إليها، وينظم الكنيسة. وأنشأ جامعة، وكتب تفاسير لمعظم أسفار الكتاب المقدس، ولم يكن ينام أكثر من ٤ ساعات في الليل، وفي كل تعاليمه كان يركز على سـيادة الله على كل الأشـياء، كما كان يعظ عن محبة الله ورحمته لأولاده. ورجع الكثيرون ليسـوع المسـيح للحصـول على غفران الخطايا، وهكذا تغيرت جينيف. وكان يُقال إن الصـلوات وترتيل المزامير لم تكن تتوقف في المدينة،

واختفى الشـجار واللعن والسـكر والمقامرة، وتم تشـييد المسـتشـفيات والمدارس والمنازل للفقراء، وحظي الأرامل والأيتام بالرعاية.

ولكن كان يوجد بجينيف من يكره جون كالفن وتعاليمه، فلقد كان يعظ عن طاعة وصايا الله، وكان أعداؤه الأساسيون هم المتحررون، الذين أرادوا أن يعيشوا حسب شهواتهم، وكانوا يطلقون الرصاص خارج منزله وأرسلوا له تهديدات بالقتل، وتمكنوا في إحدى المرات من إبعاده خارج المدينة. وبسـبب إيمان كالفن بأن المسـيح وحده هو رأس الكنيسـة، وأن الكنيسـة حرة من سـلطة الدولة، كان على خلاف دائم مع مجالس جينيف الحاكمة. وفي إحدى المرات حدثت أزمة عندما قرر المجلس الحاكم، أنه هو من يحدد عودة شـخص لعضـوية الكنيسـة وتناول الخبز والخمر ثانية، بعد ما فُرِز أو منعه قادة الكنيسـة من عشـاء الرب، ولكن كالفن رفض تدخل الدولة في شئون الكنيسة.

وجاء العديد من المتحررين، الذين كانوا قد حُرموا من عشاء الرب لارتكابهم خطايا مُخزية، جاءوا إلى كاتدرائية القديس بطرس في أحد أيام الآحاد، حاملين سـيوفهم عاقدين العزم على التناول من عشـاء الرب بالقوة إذا لزم الأمر، وقاد كالفن المتعبدين، الذين ملأوا الكنيسة، في الصلاة وترتيل المزامير ثم صعد السلم الحلزوني المؤدي إلى المنبر الكبير المرتفع وقال: "لقد ضـمَّنا الله إلى عائلته، كأعظم أب يهتم بأولاده. إنه يمنحنا الطعام لنتغذى به، لذلك من خلال ابنه يمنحنا الخبز والخمر، جسـد ودم المسـيح الذي يمنحنا الحياة، ولكن هذا الطعام الروحي يتحول إلى سـم مميت، لكل من يتناولون بدون اسـتحقاق ويلقي بهم إلى خراب هائل". وأنهى عظته قائلاً: "لن أناول أي شـخص كانت الكنيسـة قد قررت حرمانه من التناول، وويل لكل من يحاول أن يتناوله بالقوة".

ثم نزل ووقف أمام مائدة التناول، وتقدم المتحررون في إصرار وسيوفهم إلى جانبهم، ليشـتركوا في عشـاء الرب، فنظر إليهم كالفن مباشـرة ويده ممدودة فوق الطاولة والأكمام الفضـفاضـة لزِيّه الأسـود معلقة فوق الخبز والخمر وقال: "فلتكسـروا ذراعَيَّ أو تأخذوا حياتي ولكنكم لن تجبروني على تدنيس مائدة الرب".

فاحمرَّت وجوههم وانســحبوا في خجل. وســاد الصــمت في المكان وتمّ الاحتفال بعشاء الرب برهبة ووقار مقدس.

لقد كان جســم كالفن الهزيل يعاني الكثير من الأمراض، إلا أن هذا لم يثنه عن العمل. وفي إحدى المرات التي كان يعاني فيها من مرض خطير، وجده أحد أصــدقائه جالسًــا على الســرير يكتب خطابًا، فقال له: "أنت بحاجة إلى الراحة، دعك من عملك الآن". فقال لـه كـالفن: "مـاذا؟ هل تريـد أن يجدني الله عـاطلاً عندما يأتي؟" وعندما كان على فراش الموت كان آخر من زاره صـــديقه ويليام فـاريل فقال لـه كـالفن: "ويليام، إن المســـيح هو مكـافأتنـا في الحيـاة والموت". واسـتمرت كتابات كالفن في هداية الخطاة إلى يسـوع المسـيح، وتعليم المسـيحيين أعمق تعاليم الكتاب المقدس.

...

آن أسكيو

شاهدة الرب الجسورة

آن أسكيو ١٥٢١ م – ١٥٤٦ م

في أواخر أيام حكم الملك هنري الثامن، عندما كانت كنيسة إنجلترا لا تزال متمسكة بالكثير من المعتقدات الخاطئة، دخل زوج غاضب إلى منزله وصاح في زوجته التي تدعى آن. فلقد وبخه أحد القساوسة بالقول: "زوجتك مهرطقة! لقد أعلنت إنكارها لتعاليم الكنيسة". فأسرعت الشابة الجميلة آن أسكيو إلى زوجها، الذي جذبها من ذراعها وجرها إلى الباب الأمامي وألقى بها خارج المنزل، وصاح قائلاً: "اذهبي ولا تعودي مرة أخرى إلى هنا".

وبعد أن طُردت آن من منزلها، لم تكن تعرف إلى أين تذهب، فذهبت لتعيش بالقرب من أخيها في لندن، الذي كان أحد الحراس الخصوصيين للملك هنري الثامن، فعرَّفها على الملكة "كاثرين بار" وبعض النساء المسيحيات المُخلِصات في القصر. وكانت كاثرين الزوجة السادسة لهنري، فلقد طلق اثنتين من زوجاته وقطع رأس اثنتين أُخريين.

وكانت أسكيو وبعض السيدات المسيحيات، يجتمعن يوميًّا في غرفة الملكة الخاصة، ليستمعن إلى العظات ويصلين ويدرسن الكتاب المقدس. وبالرغم من إصدار الملك لمرسوم يحظر هذه الاجتماعات، لكنه لم يكن يفعل شيئًا ليوقف زوجته.

لقد كان هذا الوقت صعبًا على بروتستانت إنجلترا، فالبرغم من فصل هنري كنائس إنجلترا عن باقي كنائس روما، لكنه لم يفعل ذلك لأنه كان يعتنق أفكار الإصلاح البروتستانتي، بل كان يريد الحصول على الطلاق الذي رفض البابا أن يمنحه إياه. وظل هنري وبعض من مؤيديه متمسكين بعقائد الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تتعارض كثيرًا مع تعاليم الكتاب المقدس، فقرر رجال الكنيسة، الذين كرهوا الإصلاح، أن يجعلوا من آن أسكيو مثلاً، بأن هجموا عليها، أملاً في إثارة

ذعر الملكة وآخرين من القصـــر الملكي ليبتعدوا عن المصـــلحين البروتســـتانت؛ فجرأة أســـكيو في الإعلان عن إيمانها، جعلت منها هدفًا ســـهلاً. فقد قالت في إحدى المرات: "أفضِّل قراءة خمسة أسطر من الكتاب المقدس عن الاستماع إلى خمسة قداسات في الكنيسة". وصرحت علنا أن الخبز والخمر في عشاء الرب لا يتحولان بواسطة الكاهن إلى دم وجسد حقيقيْن ليسوع المسيح، كما تعلّم كنيسة روما؛ فتمّ القبض على أسـكيو بسـبب هذه المعتقدات، وتم إلقاؤها في السـجن، واستجوبها محافظ لندن وأحد القضاة لمدة طويلة.

فسألها القاضـي: "لماذا تقولين أنك تفضلين قراءة خمسة أسطر من الكتاب المقدس عن الاستماع إلى خمسة قداسات؟" فأجابته: "لأن قراءة الكتاب المقدس تساعدني كثيرًا، أما الاستماع إلى القداسات فلا يفيدني على الإطلاق". فسألها: "هل يســكن فيك روح الله؟" فأجابته: "إذا لم يكن روح الله ســاكنًا فيَّ، أكون غير مخلَّصة ودون رجاء".

وعاد ليســألها: "هل تؤمنين أن القداســات الخاصــة، تســاعد أرواح الذين انتقلوا؟" فأجابت: "إن الإيمان بأن هذه الأشـياء لها قيمة أكبر من موت المسـيح لأجلنا على الصـليب، ضـربٌ من الوثنية". فنظر لها المحافظ باحتقار وقال لها: "أنت امرأة حمقاء، ففي القداس وبعد أن يتلو الكاهن كلمات التكريس على الخبز، ألا يتحوّل إلى جســد الرب؟" فأجابته آن: "لا، فهذا الخبز لا يزيد عن كونه خبزًا مقدسًا أو مكرسًا".

فســألها "وماذا إذا تناوله فأر بعد أن يكرســه الكاهن، ما هو اعتقادك فيما سيحدث لهذا الفأر أيتها المرأة الساذجة؟" فأجابته أسكيو: "قل لي أنت يا سيدي ماذا ســيحدث لهذا الفأر؟" فأجابها الوالي: "أنا أقول لك إنه ســيصــبح ملعونًا". فابتسمت آن وقالت: "يا للفأر المسكين!"

ثم جاء "إدموند بونير" أسقف لندن، وزار أسكيو في السجن وقد عقد العزم على أن ينتزع منها ارتدادًا، فكتب لها قبل زيارته قائمة بمعتقدات الإيمان الكاثوليكي، ودفع بالقائمة إلى أيدي أسكيو وأمرها بأن توقع عليها. فقرأتها بعناية

ثم كتبت أسـفل الورقة: "أوافق على كل ما يتفق مع ما يقوله الكتاب المقدس من المكتوب هنا". وعندما قرأ الأسـقف هذه العبارة، احمرّ وجهه غضـبًا وانتزع منها القلم وشـطب ما كتبته ودفع إليها القلم والورقة مرة أخرى آمرًا: "وقّعي على هذه الوثيقة". فكتبت: "أنا آن أسـكيو أومن بالكثير من معتقدات الكنيسـة الكاثوليكية". فأسرع بالخروج من زنزانتها بعد أن أغضبه رفضـها وقال: "إنها امرأة ولا يمكن أن تخدعني".

وبعد انقضـاء ثلاثة أشـهر، نَقَلها الأسقف، لتمثل أمام محكمة الكنيسـة التي أعلنت أنها مهرطقة، وحكمت عليها بالموت حرقًا. فقالت لهم أسـكيو: "لقد بحثت في الكتاب المقدس بأكمله ولم أجد يسـوع أو أحد تلاميذه قد حكموا على أحد بالموت". وعندما عادت إلى زنزانتها كتبت قصيدة إيمان بالمسيح:

مثل الفارس المسلح
المتجه إلى الميدان
سأحارب هذا العالم
وسيكون الإيمان ترسي.

وأرسـلت المحكمة أسـكيو إلى برج لندن لتُعذب، أملاً في أن تعطيهم دليلاً ضد سيدات القصر الملكي. وربط الجنود رسغيها ومعصميها بالسلاسل وألقوا بها على المِخَلعَـة، وأداروا ذراعي الإدارة، جـاذبين ذراعيهـا في اتجـاه، ورجليهـا في الاتجاه المعاكس. وتلوَّت أسكيو من الألم، وقالوا لها: "أخبري عمن يتحدى الملك والكنيسة غيرك، وانكري إيمانك وسنسامحك". فأجابتهم: "أفضِّل الموت عن إنكار إيماني". وعندما رأى الحراس بأنها لن تتراجع، أعادوها إلى زنزانتها حيث جثت على ركبتيها وصلّت قائلة: "إن عدد أعدائي أكثر من عدد شعر رأسي، ولكن لا تدعهم يغلبونني بكلمات عديمة القيمة. حارب يا رب عني ففيك أضع ثقتي".

وفي ١٦ يوليو ١٥٤٦ م، اجتمع جمع غفير لمشـاهدة إعدام آن أسـكيو وثلاثة سجناء آخرين، أمام كنيسة القديس برثولماوس في سميثفيلد بلندن. وبسبب التعذيب، لم تكن آن قادرة على السـير، لذا حملوها إلى السـارية. وقبل الإعدام،

قدم الأســـقف عظة، وقد أشـــارت آن فيها إلى نقاط تتعارض مع تعاليم الكتاب المقدس، وقالت: "إنه يخطئ ويتكلم بعيدًا عن الكتاب المقدس". وعندما أوثق الجنود آن على السارية وكانوا يعدون للحرق، وصل رسول يعرض عفو الملك إذا أنكرت آن إيمانها، فقالت آن: "لم آتِ إلى هنا لأنكر سيدي وربي". ثم ماتت حرقًا من أجل المسيح.

وبعد مرور عام، مات هنري الثامن، وتقدمت حركة الإصـــلاح ســـريعًا في إنجلترا، وأصـــبحت التعاليم التي ماتت من أجلها آن أســـكيو، هي تعاليم كنيســـة إنجلترا. ولا زالت شـجاعة آن أسـكيو أمام الموت، تضـيء كمثل رائع على أمانة الله في دعم أولاده في وسط أشد المحن.

عليك أُلقي همي
وبرغم حقدهم القاسي
لم يعرقلني تسرُّعهم
لأن فيك بهجتي.

...

لاتيمير وريدلي وكرانمار

الأساقفة الشهداء

هيو لاتيمير ١٤٨٥ م – ١٥٥٥ م
نيكولاس ريدلي ١٥٠٠ م – ١٥٥٥ م
توماس كرانمار ١٤٨٩ م – ١٥٥٦ م

في صيف ١٥٥٣ قامت ماري تيودور، الملكة المتوَّجة على إنجلترا، بحشد كل طاقتها لتعيد كنيسة إنجلترا ثانية إلى كنيسة روما الكاثوليكية، فحرقت أو قطعت رأس أكثر من ثلثمائة رجل وامرأة وطفل رفضوا التخلي عن إيمانهم. وبسبب قسوتها لُقِّبت الملكة بـ"ماري الدموية". من بين هؤلاء الشهداء كان الأساقفة كرانمار وريدلي ولاتيمير.

أما توماس كرانمار، رئيس أسقفة كانتربري، فعمل على توفير الكتاب المقدس المترجم إلى الإنجليزية في كل كنيسة بالمنطقة، وبمساعدة نيكولاس ريدلي أسقف لندن الرائع كتب كتاب *الصلوات العامة ومقالات عن الديانة*، مما أرسى أسس ممارسات العبادة الكتابية ومعتقدات كنيسة إنجلترا. ولقد فاقت جراءة الأسقف هيو لاتيمير في الوعظ بالأخبار السارة عن يسوع المسيح، عن أي شخص آخر في إنجلترا.

لقد عمل كل من لاتيمير وريدلي وكرانمار، لأكثر من خمس وعشرين عامًا، على تقدم الإصلاح البروتستانتي في إنجلترا. ولكن في عام ١٥٥٣ تمَّ إلقاء القبض عليهم بناء على أوامر الملكة ماري، وتم حملهم إلى برج لندن والزج بهم في زنزانات، وأُدينت كتبهم بمرسوم ملكي مثلما أُدينت قبلاً كتب لوثر وتيندال وآخرين. وبعد معاناة امتدت لشهور، في زنزنات البرج المظلمة، تم إرسالهم إلى أكسفورد ليحاكموا.

وهكذا احتشد جمع غفير في كنيسة سانت ماري بأكسفورد، متلهفين لمتابعة محاكمة الأساقفة المشهورين. وتمت محاكمة لاتيمير وريدلي أولاً أمام محكمة مؤلفة من سلطات كنسية وأساتذة جامعيين. فقام رئيس الحكام واقترب من

لاتيمير، الرجل ذي الشعر الأبيض، الذي كان يبلغ السبعين من عمره، متظاهرا بتعبيرات القلق عليه وقال له: "يا سيد لاتيمير، من أجل محبة الله راعِ منصبك، فلقد كنت في منصب أسقف وأنت رجل مثقف، لو مُتَّ الآن فستموت دون نعمة، لأنه خارج كنيسة روما لا يوجد خلاص". وكان الكتاب المقدس الخاص بلاتيمير، معلقًا برباط جلدي في حزامه، وكانت نظارته المعلقة حول عنقه مستترة على صدره. وبالرغم من الآلام التي كان يعانيها، إلا إنه وقف ثابتًا وقال: "أنا أعلم جيدًا من خلال كلمة الله، أن الكنيسة الحقيقية توجد في كل العالم، ولكن أساسها ليس في روما فقط كما تقول أنت، فالكنيسة الحقيقية يحكمها الكتاب المقدس".

فأشار رجل الكنيسة إلى لاتيمير وريدلي وأمرهما قائلاً: "اقسما بولائكما للبابا، واعترفا بهرطقاتكما لكي تنجوَا". ولكن لاتيمير وريدلي وقفا ثابتَيْن وحاولا أن يردا بإجابات من الكتاب المقدس، برغم أن أصوات المدعين عليهما كانت تقاطعهما باستهجان. وبدا المحاكمون كما لو كانوا مجموعة من حيوانات حظيرة وليسوا أساتذة جامعيين. وبعد انقضاء يومين في جلسات الاستماع، حرمتهما المحكمة الكنسية وحولتهما إلى الملكة ماري ليتلقيا عقابهما، وهذه بدورها أمرت بإعدامهما.

وفي يوم الخميس ١٦ أكتوبر ١٥٥٥ م، اجتمع معظم من في أكسفورد، من كلية "باليول" خارج البوابة الشمالية للبلدة، لمشاهدة الإعدام. وكان ريدلي يرتدي رداء أسود، أما لاتيمير فكان يرتدي معطفا باليًا وقبعة بها زر، وتعانق الرجلان بحرارة عندما التقيا عند السارية.

وابتسم ريدلي قائلاً: "ليكن قلبك قويا يا أخي، فالله إما سيخفف ألم النيران، أو سيعطينا القوة لتحمله". فأومأ له لاتيمير وقال: "الله أمين، ولن يدعنا نجرب فوق ما نستطيع". وجثا كلاهما في الوحل وصليا وتحدثا بكلمات هادئة لتعزية بعضهما، وقام كاهن بإلقاء عظة يتهم فيها كلا من لاتيمير وريدلي بالهرطقة ويدينهما ليذهبا إلى نار الجحيم. وبانتهاء العظة طلب ريدلي بأن يقولا كلمات قليلة للشعب، ولكن الكاهن رفض بعنف وقال: "لا، يمكنكما فقط أن ترتدا عن

خطئكما". فأجابه ريدلي: "إذًا فأنا أرفع دعواي إلى الله القدير، الذي سيدين الجميع بالعدل". ونزعا معاطفهما واستعدا للموت. ورفع ريدلي يديه وصلى قائلاً: "أيها الآب السماوي، أشكرك من كل القلب، لأنك دعوتني لأكون أمينًا إلى الموت. يا رب ارحم مملكة إنجلترا وخلصها من كل أعدائها". بعد ذلك ربط الحراس الأسقفين إلى السارية بسلسلة حديدية وربطوهما بقوة حول خصرهما وأحاطوهما بالقش والخشب.

وعندما تقدم منفّذ الإعدام للأمام بالمشعل، قال لاتيمير: "ابتهج يا سيد ريدلي وكن رجلاً، فاليوم سنضيء بنعمة الله شمعة في إنجلترا لن تنطفئ إلى الأبد". وعندما تصاعدت اللهب صرخ ريدلي قائلا: "يا رب اقبل روحي". وكررها لاتيمير من بعده.

في ذلك الوقت انتُزع زي الخدمة عن توماس كرانمار، وأُلبِسَ خرقا بالية بعد أن تعرض للتهديد والتعذيب، فلقد حك مضطهدوه يديه وأصابعه إلى أن سالت الدماء، علامة على تجريده من خدمته الكنسية، وبالرغم من كل هذا رفض كرانمار أن يدين الإصلاح البروتستانتي أو كتاباته. ثم غيَّر مضطهدوه أسلوبهم، فنقلوا كرانمار من زنزانته الرطبة إلى غرفة مريحة بمنزل عميد أكسفورد، وأغدق عليه الأساتذة والكهنة بلطفهم، مستحثين إياه ليعود إلى كنيسة روما، إذ قالوا له: "دكتور كرانمار، لو تخليت عن بعض آرائك، فستفوز بعطف الملكة وتعود في الحال إلى منصبك في الكنيسة".

وبعد أن احتمل كرانمار المعاملة القاسية مدة ثلاث سنوات، أبعدته المعاملة اللطيفة عن مساره، ومع مرور الوقت وافق على تغيير رأيه، بأن وقَّع أخيرًا على ورقة مكتوب فيها: "أنا توماس كرانمار، الأسقف السابق لكانتربري، أتخلى عن كل الهرطقات والأخطاء التي لا تتفق مع كنيسة روما، وأعترف أن البابا هو الرأس الأسمى للكنيسة، وعلى الجميع أن يطيعوه. كما إنني أومن بالأسرار المقدسة السبعة والمطهر والصلاة إلى القديسين، وأعبِّر عن أسفي عن اعتقادي سلفًا بغير ذلك وقيادتي لآخرين بعيدًا عن كنيسة روما".

وطبع قادة الكنيســـة اعترافه هذا ونشـــروه في كل إنجلترا، أملاً في إحباط البروتستانت. وبالرغم من اعترافه، أصرت الملكة ماري على موته، وحكمت عليه بالحرق على الســـارية، وقرَّر قادة الكنيســـة أن يتحدث كرانمار في صـــباح يوم إعدامه ضد الإصلاح ويحذر الجميع من الإيمان البروتستانتي.

وامتلأت كنيســة القديســة ماري بالمشــاهدين، الذين حضــروا ليســتمعوا إلى حديث كبيرالأســاقفة وليشــاهدوا موته. وتثبتت كل العيون على كرانمار الذي كان يرتدي رداء باليا وقذرًا، ووقف على منصــة مواجهة للمنبر، وأحنى رأســه الأصــلع عندما ســمع الواعظ يدين الإصـــلاح ودور كرانمار فيه. واســتدرك الواعظ قائلا: "ولكن، دكتور كرانمار اعترف بخطاياه وتخلى عن أخطائه وسيتحدث إليكم الآن".

فانخنى كرانمار وتنهد بعمق وصـــلى قائلاً: "أيها الآب ارحمني أنا أشـــر الخطاة، لقد أخطأت إلى الســـموات والأرض أكثر مما أســـتطيع أن أصـــف، فارحمني يا رب من أجل رحمتك العظيمة". ثم انتصـب ليواجه الشـعب واغرورقت عيناه بالدموع وقال: " قبل أن أموت أريد أن أقول بعض الكلمات التي قد تمجد الله وقد ترشــدكم إلى الإيمان". وبكلمات مهيبة اســتحثهم ليحبوا بعضــهم بعضًــا وليعتنوا بالفقراء، ثم رفع صـوته حتى يسـمعه الجميع وهو يقول: "والآن، آتي إلى ما يؤرق ضميري أكثر من أي شيء آخر قد فعلته في حياتي، فأنا الآن أنكر كل ما قد كتبته يدي ضـــد الحقيقة التي يؤمن بها قلبي. لقد خشـــيت الموت فكتبت ارتدادي لأنقذ حياتي، لذلك لا بد وأن تلقى يدي العقاب أولاً، لأنها قد أخطأت بما كتبته ضـــد قلبي. وعندما أُعرَّض للنار لأُحرق، لا بد وأن تُحرق يدي أولاً. وأما بالنسبة للبابا فأنا أرفضه لأنه عدو للمسيح بكل تعاليمه الزائفة".

فصـــاح أحدهم: "أوقفوا الفم المهرطق". وتفجرت الصـــيحات والهمهمات في أرجاء الكنيســـة وجاء الأمر: " خذ هذا المهرطق بعيدًا!" وبينما كان الجمهور يسخر منه، سحب الحراس كرانمار من المنصة وجرّوه عبر رذاذ المطر إلى نفس المكان الذي قُتل فيه صديقاه لاتيمير وريدلي.

وحين بدأت النيران في الاشـتعال، مدَّ كرانمار ذراعه اليمنى، منفذًا لكلماته، ووضعها بإحكام في النيران وقال: "هذه اليد اليمنى الحقيرة، هذه اليد التي أذنبت". ولقي هو أيضًا حتفه في النيران.

أما الشمعة التي أضاءها لاتيمير وريدلي وكرانمار، فلم تنطفئ، فلقد شجعت بسـالتهم البروتسـتانت ليسـتمروا في عملهم. وفي خلال سـنوات قليلة ماتت ماري الدموية وعاد الإصلاح إلى إنجلترا مرة أخرى وبكل قوة.

...

جون نوكس

المصلح الأسكتلندي

جون نوكس ١٥١٤ م –١٥٧٢ م

عبرت السفينة الشراعية الفرنسية "نوستر دام" عام ١٥٤٧ م، المياه العاتية للقنال الإنجليزي، وكان هناك حوالي ١٥٠ عبدا مقيدين بالمجاديف ليجذفوا بالسفينة إلى الأمام، وكانوا مقيدين بالسلاسل ليلاً ونهارًا إلى مقاعد التجذيف. وعانى هؤلاء العبيد من الشمس والرياح والمطر، وبالكاد استمروا على قيد الحياة، إذ تناولوا حصصًا ضئيلة من البسكوت والماء. وانتشر المرض على ظهر السفن المزدحمة، ولقي الكثيرون حتفهم؛ فلقد عوقب هؤلاء المجرمون، الأكثر عنفًا وقسوة في فرنسا، بقضاء ما تبقى من حياتهم عبيدًا على ظهر تلك السفن. ولكن أحد هؤلاء العبيد على ظهر "نوستر دام" لم يكن فرنسيًا ولا مجرمًا، ولكنه كان راعيا اسكتلنديا يُدعى جون نوكس، وكان يبلغ من العمر ٣٣ عاما.

لقد عانى نوكس من عذابات تلك السفن، وذلك لأنه سعى إلى إصلاح الكنيسة الأسكتلندية. ولم يكن نوكس قبلُ مُصلَحا، ولكنه نشأ في كنيسة تحظر قراءة الكتاب المقدس وتغطّ في الجهل والخرافات. وكان نوكس يقبل تعاليم كنيسته دون نقاش. ولكن عندما عبرت أفكار مارتن لوثر، والإصلاح البروتستانتي بحر الشمال، بدأ نوكس في قراءة الكتاب المقدس بنفسه هو وكثيرون من الأسكتلنديين. ووضع نوكس ثقته في المسيح، بعد قراءة يوحنا ١٧ "وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ".

وتسببت أفكار الإصلاح في انقسام أسكتلندا، وقبض قادة الكنائس على بعض المصلحين وقتلوهم. وسعى خطأً بعض البروتستانت للانتقام، فهدموا ممتلكات الكنائس، وقتلت عصابة صغيرة أحد رؤساء الأساقفة، وساد الخوف والاشتباه وتسلح الناس وكانوا يسافرون في جماعات، حتى يكونوا في أمان. وانضم نوكس إلى القضية البروتستانتية، واشترى لنفسه سيفين وتطوع لحراسة "جورج ويشارت"، صديقًا وواعظًا موهوبًا، عاش حياته مهددًا بالقتل. ومع ذلك

فإن "ويشـارت"، الرجل المسـالم والمحب، حثَّ البروتسـتانت حتى يتركوا العنف، ورغم ذلك ألقى قادة الكنيسة القبض عليه وحرقوه على السارية في سانت أندروز.

وقال نوكس عنه: "لم يوجد في أسكتلاندا رجل مبارك مثله". وأكمل نوكس عمل صديقه الشهيد، وأخذ يعظ في كل أنحاء أسكتلندا. وكان يقول: "بنعمة الله أُعلِن يسوع المسيح وقوة موته وسلطان قيامته". ورجع الآلاف من الأسكتلنديين إلى المسيح، فطلب حكام اسكتلندا من فرنسا أن تساعدهم، خوفًا من فقدان السيطرة على البروتستانت؛ فهجمت السفن الحربية الفرنسية على قلعة سانت أندروز، حيث كان نوكس يخدم كراعٍ، وحُكم عليه وكثيرين من أقرانه بالعبودية في السفن الشراعية. وهناك في أسمال السجن البالية وقيود الأرجل، تحمَّل نوكس الكدح القاسي، وملأت الجراح ظهره من جراء جلدات سائق العبيد. وقال لاحقا عن هذه العذابات: "إن العذاب الذي عانيته في تلك السفن جعل قلبي يجهش بالبكاء". وبالرغم من الضرب والجراح التي ملأت جسده وروحه، لم يهتز إيمانه بالله.

وفي إحدى المرات، عندما اقترب نوكس من الموت بسـبب شـدة المرض، سـأله رجل أسـكتلندي وعبد زميله يُدعى"جيمس بالفور" قائلاً: "جون، هل تعتقد بأننا سنخرج من هنا أحياء؟" وكافح نوكس ليرفع رأسه ويجيب بصوت ضعيف، ولكنه راسخ، قائلاً: " أنا أعلم أن الله سينقذنا، ولا تنسَ أن الشيطان جعل يوسف يذهب إلى مصـر ولكن الله قصـد من ذلك خيرًا لينقذ شـعبه، فلا تفقد الرجاء يا أخي، فالله أمين. سنعود لوطننا وسيمنحنا الله النصرة".

وفي إحدى المرات عبرت السفينة "نوستر دام" داخل الأراضي الأسكتلاندية وقال "جيمس بالفور" لنوكس: "انظر إلى الشاطئ، أتستطيع أن تقول أين نحن؟" فانتصب نوكس من المقعد الخشبي الصلب، ورفع عنقه ليلقي نظرة خاطفة على "سـانت أندروز"، وأجاب: "نعم أعرفها جيدًا، فأنا أرى برج الكنيسـة حيث فتح الله فيه فمي لأول مرة لأتحدث أمام الناس لمجده، وأثق أنه مهما كان ضـعفي الآن، فلن أموت إلا بعد أن أمجد اسمه المهوب هناك مرة أخرى".

وبعد قضاء ما يقرب من عامين مقيدًا بالسلاسل، أطلقت فرنسا سراحه، وذلك بعد تدخل البروتستانت الإنجليز. وذهب نوكس إلى إنجلترا ليساعد في تقدم حركة الإصلاح هناك، وحاز على إعجاب الملك إدوارد السادس، الذي دعاه ليعظ بانتظام في القصر الملكي، وذلك لمعرفته بالكتاب وأسلوبه الفعال في الوعظ. وبعد أن كان نوكس منذ شهرين عبدًا مقيدًا في السفن الفرنسية، أصبح ينادي بكلمة الله أمام الملوك والأمراء.

وبعد الموت المفاجئ للملك إدوارد، اعتلت العرش ماري تيودور، التي سعت إلى إعادة إنجلترا إلى الكنيسة الكاثوليكية. وهكذا حكمت "ماري الدموية" بالإعدام على المئات من البروتستانت، ولكن نوكس هرب إلى سويسرا وأصبح مساعدا لجون كالفن في جينيف. ورحبت كنيسة جينيف باللاجئين البروتستانت من جميع أنحاء أوروبا وسددوا احتياجاتهم بسخاء، وقال نوكس: "هذه هي أفضل مدرسة للمسيح على الأرض منذ أيام الرسل".

وبعد أن قضى نوكس ٢٠ عامًا في المنفى، عاد أخيرًا إلى أسكتلندا، وأثناء غيابه، أدانه قادة الكنيسة بالهرطقة، وأعلن القصر بأنه خارج عن القانون وكل من اتصل به يعاقَب بالموت. ورغم ذلك، عندما وصل نوكس إلى أسكتلندا، اجتمع جمع غفير لتحيته وليستمعوا إلى عظاته، فتحدث إليهم بوضوح وبعاطفة جياشة، ملهمًا إياهم ليتبعوا المسيح، ومشجعًا لهم ليقاوموا كل من ينكر عليهم حريتهم في أن يعبدوا الله كما يأمر الكتاب المقدس. وقال عنه أحد الأسكتلنديين: "إن صوت هذا الرجل قادر أن يضع فينا حياة في ساعة واحدة، أكثر من خمسمئة بوق تصوِّت في آذاننا".

وعندما وعظ نوكس في كنيسة سانت أندروز، تذكر اليوم الذي رأى فيه برجها من على ظهر السفينة منذ سنوات عدة، فمجد الله لأمانته.

وحاول حكام اسكتلندا، بمساعدة القوات الفرنسية، أن يقضوا على البروتستانت ولكنهم قاوموا. وبالرغم من التهديد ومحاولة ضربه بالنار، إلا أن نوكس استمر فيما يعمل مُلهمًا الكثيرين ليتمسكوا بإيمانهم بشجاعة. واستدعت

ملكة اسـكتندا نوكس عدة مرات ليمثل أمامها، وحيث إنها كانت مقتنعة بسـلطتها على كل رعاياها، احتقرت نوكس والبروتســـتانت الذين كانوا يعلِّموا الناس بأن يتبعوا الله قبل أي شخص آخر.

وقالت الملكة لنوكس: "أنت تعظ الناس بأشـياء لم أسـمح بها، وكيف يكون هذا صـحيحًا والله يأمر الرعايا بأن يطيعوا حكامهم؟" فأجابها نوكس: "سيدتي، إن رعاياك غير ملزمين باتباع ما تشــعرين بأنه صــواب، بل ما تعلن كلمة الله بأنه حق". ولكن الملكة الصـغيرة الجميلة كانت تتوقع خضـوعا كاملا من شـعبها، وما قالـه نوكس حوَّل وجهها الأبيض الكريمي إلى الأحمر، فأخذت تهَوِّي وجهها ثم قالت: "كيف تجرؤ على التحدث إليَّ هكذا؟ لقد احتملتك كثيرًا، والآن عليَّ أن أنتقم". فأجابها قائلا: "عليَّ أن أطيع الله، فكلمته توصـيني بأن أتكلم بالصـدق إلى الجميع وألا أتملق أي شخص على وجه الأرض".

وأخيرًا تسـلط البروتسـتانت على أسـكتلندا، وأسـس جون نوكس، مع بعض الرعاة الآخرين، كنيســة مؤســســة على الكتاب المقدس، وكتب قانون الإيمان الأسكتلندي الذي يشرح بوضوح الحقائق الأساسية الموجودة في كلمة الله، ووضـع الإرشـادات الكتابية للعبادة. وقد حث نوكس الكنائس على بناء مدارس لتعليم كل الأطفال الأسكتلنديين.

وعندما تقدم نوكس في العمر، عانى كثيرًا من أمراض المعدة والتي جاءت من المعاملة الشاقة التي عومل بها كعبد في السفن. وبالرغم من ضـعفه الشـديد، الذي جعله محتاجا لمن يحمله إلى المنبر، استمر في الوعظ إلى يوم مماته. وفي جنازته قال أحد النبلاء الأسكتلنديين: "هنا يرقد رجل لم يخف أبدًا وجه إنسان".

...

جان دالبريه (Jeanne d'Albret)

ملكة مُصلحة

جان دالبريه ١٥٢٨ م – ١٥٧٢ م

في عهد الإصلاح شرع ملوك فرنسا في اضطهاد "الهوجونتيين" البروتستانت الفرنسيين دون رحمة، خوفًا من أن يتسببوا في انقسام مملكتهم. وبالرغم من حرقهم على السواري وإغراقهم في الأنهار وقطع رؤوسهم بالسيوف، فإن عدد الهوجونتيين أخذ في الازدياد، وهرب الكثيرون منهم مثل جون كالفن إلى سويسرا بسبب أمنها. وبعدما أصبح كالفن الراعي الرئيسي في جينيف، أصبحت كنيسة جينيف ملاذًا ونموذجًا للهوجونتيين.

كان الهوجونتيون يتعبدون سرًّا في معظم أنحاء فرنسا، وكانوا يجتمعون في الحقول والحظائر ليسبحوا الرب من كتاب تراتيل جينيف، ويقرأون الكتاب المقدس ويستمعون إلى العظات. ولقد تلقى الكثيرون من رعاتهم التدريب على يد كالفن في جينيف، وعادوا متخفِّين، واستخدموا أسماء مستعارة ليحموا أنفسهم. وكان كالفن يقول لهم: "أرسلوا لنا الخشب وسنعيده لكم سهامًا". وكان يقصد بالسهام الوعاظ المدرَّبين. وعاد هؤلاء الشبان الشجعان إلى فرنسا، عالمين أنهم سيواجهون الموت المحقق.

وفي يوم عيد الميلاد عام ١٥٦٠، ساندت قضية الهوجونتيين امرأة ورعة شجاعة ، هي جان دالبريه ملكة نافار، التي صرَّحت علنًا: "أنا واحدة من أتباع إيمان المصلحين". وكانت جان مع زوجها أنطونيو يحكمان نافار، المملكة الصغيرة المتحالفة مع فرنسا، وكانت تقع على حدود أسبانيا. وكان أنطونيو أحد نبلاء فرنسا، وكان على وفاق مع ملك فرنسا. ولعدة سنوات كانت جان وزوجها يُحضران الخدام البروتستانت إلى قصرهما، وكانا يرسلان الأموال ليدعما أولئك الذين هربوا إلى جينيف. ولكنهما كانا يخشيان من إشهار إيمانهما، لأن مملكتهما الصغيرة كانت محاصَرة بالدول الكاثوليكية القوية. ولكن أخيرًا شعرت جان بأنها لا بد أن تساند الحق مهما كلف الأمر، وقالت: "إن إصلاح الإيمان المسيحي

حقيقي وضـــروري، وســأكون غير أمينة لله، بل وجبانة أمامه وأمام شــعبي، إذا فشـــلت في الانضـــمام إليه". ومثلها مثل باقي البروتســـتانت، اعتنقت إيمان المصلحين لأن كنيسة روما كانت قد شردت بعيدا عن كلمة الله، وقالت: "أنا أتبع كالفن وباقي الوعاظ المصلحين طالما يتبعون كلمة الله".

واندفع ملك فرنســـا وملك أســـبانيا والبابا، ليتخذوا إجراءات تمنع نافار من التخلي عن الكنيســـة الرومانية، فوعدوا أنطونيو بالأراضـــي والأموال إذا صـــرح بولائه وولاء مملكته للكنيسة الرومانية، ووافق أنطونيو، فانسحق قلب جان لافتقاده للشـــجاعة الروحية، وقالت: "لقد زرع شـــوكة في قلبي". وأحضـــر أنطونيو زوجته إلى باريس وســـجنها في مســـكنها وهددها بالطلاق إذا لم تعُد إلى كنيســـة روما، ولكنها رفضـــت. وحثها بعض القادة الفرنســـيين لتتبع زوجها وحذروها قائلين: "قد تفقدين كل شـــيء إذا لم تغيّري إيمانك". فردت عليهم جان قائلة: "أفضـــل إغراق مملكتي في قاع المحيط عن أن أفعل ذلك". وهربت جان من باريس إلى نافار، واستخدمت سلطتها لتعزز الإيمان المُصلَح في مملكتها، وطهَّرت كنائس مملكتها من الصور، ودعت رعاة جينيف ليعظوا شعبها، وأسست كلية للاهوت الإصلاح. وكتبت جان نفســـها مقالات تدافع فيها عن الإيمان المُصـــلح وتقنع به الآخرين. وكانت تســـتخدم أموالها الخاصـــة بانتظام، وباعت مجوهراتها لتدعم مدارس الإصـــلاح ولتدفع نفقات الرعاة وتطبع الكتاب المقدس، كما ترجمت الكتاب المقدس إلى بيرنوا، لغة نافار. وشـــجعت رعاياها على دراســـة الكتاب المقدس بأنفسهم.

ولكن الموقف ازداد خطورة بالنسـبة للهوجونتيين الفرنسـيين، فقد ذبح الجنود في فاســي، المئات الذين كانا يجتمعون في الحظائر ليتعبدوا، وذبحوا ثلاثة آلاف آخرين في تولوس. وأخيرًا تسـلح الهوجونتيون ليدافعوا عن أنفسـهم. وقاد أنطونيو جيشًـــا في معركة ضـــدهم، وحاصـــر إحدى مدنهم إلى أن تمزقت ذراعه جراء الإصابة برصاصة صادرة من إحدى البنادق، ومات إثر هذا الجرح.

وأصـــبحت جان تحكم المملكة بمفردها، وأصـــدرت مرســـومًا في نافار، صـــرحت فيه بحرية العبادة لكل من الهوجونتيين والكاثوليك، فأرســـل لها البابا بكاردينال فرنسي ليقنعها بحظر عبادة الهوجونتيين في مملكتها، وقال لها: "جلالة الملكة، لقد أضـلّكِ الأشرار حتى يزرعوا ديانة جديدة في نافار، وإذا مضـيتِ قدمًا في هذا الأمر فلن تنجحي أبدًا، ورعاياك لن يناصـــروها، وأعداؤك ســـيوقفونك؛ فليس لجلالتك محيط يحميكِ مثل الملكة إليزابيث ملكة إنجلترا". وأطلق على الهوجونتيين قتلة ومتمردين ومهرطقين. وأضـــاف قائلاً: "لا تَدَعي هؤلاء الناس يفسـدون ضـميرك، وصـلاحك وعظمتك، فأتوسـل إليك بدموع حتى تعودي إلى الحظيرة الحقيقية". فمالت جان إلى الأمام ونظرت مباشـــرة إلى عينيه وقالت بجرأة: "إن حججك الضـــعيفة لن تغير من تفكيري. أنا أخدم الله وهو يعرف كيف يحمي قضيته، فإن رعاتنا لا يعظون عن شيء سوى الطاعة والصبر والتواضع، فاحتفظ بدموعك لنفســـك، وأصـــلي من كل قلبي حتى تعود أنت إلى الحظيرة الحقيقية والراعي الحقيقي".

وأخيرًا تفجر الصـــراع بين الهوجونتيين والكاثوليك، وأدى إلى حرب وهلك الآلاف من كلى الجانبين. وفي معركة جارناك، عندما قُتل قائد الهوجونتيين، اضـطربت القوات وأصـبحوا غير واثقين في قدرتهم على الاسـتمرار في الحرب فأســـرعت جان إلى الميدان مع ابنها هنري وريث العرش، وقادت الرجال إلى النصـر. ولكن جان كانت تكره إراقة الدماء، فأرسـلت إلى ملك فرنسـا تقول: "أنا واثقة في صـلاحك وحبك الأبوي لشـعبك، فأتوسـل إليك حتى تنظر إلى المأسـاة التي سببتها هذه الحرب، فإذا تركت رعاياك يتعبدون ككاثوليك أو مصلحين، فإن كل الأمم ستُحيّي اسمك".

وفي النهاية وبحلول عام ١٥٧١ م، كانت الحرب قد أرهقت كلا الجانبين فوقعا معاهدة ســـلام. ومن أجل دعم الســـلام اقترحت كاثرين دى ماديثي الملكة الأم لفرنســـا بأن يتزوج هنري ابن جان من ابنتها مارجريت، على أنه لو تزوج أمير من الهوجونتيين من أميرة كاثوليكية سيحل السلام. ولكن جان عارضت هذا

الأمر بشـدة، ولكن قادة الهوجونتيين في كل فرنسـا ترجوها أن تقبل هذا الزواج، من أجل إحلال السـلام، وقالوا لها: "ربما تؤدي هذه الزيجة إلى حرية دينية أعظم".

أخيرًا وافقت جان على مضـض، ولكنها حذرت ابنها بأن يبقى أمينًا لكلمة الله، مهما فعلت زوجة المستقبل. وسافرت جان إلى باريس لتهيئ للزواج، ولكن أثناء وجودها هناك مرضت بشدة، واعتقد الكثيرون بأنها قد تسممت. وعلى فراش الموت، طلبت قراءة بعض الأصـحاحات من إنجيل يوحنا وماتت. وكانت تتردد في أذنها كلمات يسـوع: "في العالم سـيكون لكم ضـيق ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم" (يوحنا١٦: ٣٣).

وبعد مرور شـهرين، تزوج هنري من مارجريت في باريس، واجتمع قادة الهوجونتيين من جميع أنحاء فرنسـا لحضـور حفل الزفاف الملكي، ولكن كاثرين دي ماديشي كانت تعتزم التخلص منهم إلى الأبد، فقالت لابنها بأن الهوجونتيين لا بد أن يُمحوا وإلا فلن يستطيع أن يحكم فرنسـا، فاستشـاط تشـارلز غضـبا وصاح: "أقسم بموت الآلهة أريد موت جميع الهوجونتيين بفرنسا. نفذوا هذا الأمر على الفور". وبعد الزواج بأيام قليلة تلقت القوات الفرنسية أمرًا ضـد الهوجونتيين يقول: "اقتلوهم جميعًا بأمر الملك".

فانتشـر رماة السـهام والفرسـان والمشـاة على شـكل مروحي في باريس، لمهاجمة عشرة آلاف هوجونتي، الذين كانوا في زيارة باريس آنذاك، وانضم رعاع باريس إلى الجنود عندما صاحوا: "اقتلوهم. اذبحوا الهوجونتيين!" وخرجت الحشود بوحشـية في الشـوارع، واقتحموا المنازل وكانوا يلقون بهم بغير تردد من أعلى البنايات، وكانوا يركلون الأطفال وكبار السـن بلا إحسـاس وألقوهم في النهر ليغرقوا. وحاول الجنود تنظيف الشـوارع من الجثث فحمَّلوا العربات التي تجرها الخيول بالجثث، وألقوا بها في النهر، ومن كثرتها، تحول الماء إلى اللون الأحمر.

وقعت هذه الحادثة في ٢٣ أغسطس ١٥٧٢ م، في عيد القديس برثلماوس، ولهذا سميت ذكرى هذا اليوم البشع، بيوم مذبحة القديس برثلماوس. واستمر قتل

الهوجونتيين لأسابيع في جميع أنحاء فرنسا، وتم ذبح عشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال.

وأطلقت هذه المذبحة شـرارة الحرب مرة أخرى، واسـتمرت الحرب حتى تُوِّج هنري ابن جان ملكًا على فرنسا. وبالرغم من عدم تمسك هنري بالإيمان المصلَح، إيمان والدته، إلا إنه منح الهوجونتيين حرية العبادة بإصـداره لمرسـوم نانتو، الذي ضمن الحرية الدينية لكل من الكاثوليك والهوجونتيين.

وكانت إحدى الفقرات الكتابية المفضـــلة لدى جان هي المزمور ٣١. وقبل موتها، طلبت قراءته لها. هذا المزمور يشرح جيدًا، كفاحها وإيمانها "لأَنِّي سَمِعْتُ مَذَمَّةً مِنْ كَثِيرِينَ. الْخَوْفُ مُسْـــتَدِيرٌ بِي بِمُؤَامَرَتِهِمْ مَعًا عَلَيَّ. تَفَكَّرُوا فِي أَخْذِ نَفْسِي. أَمَّا أَنَا فَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ يَا رَبُّ. قُلْتُ: [إِلَهِي أَنْتَ].أَضِـئْ بِوَجْهِكَ عَلَى عَبْدِكَ. خَلِّصْنِي بِرَحْمَتِكَ".

...

رينيه

دوقة فيرارا

رينيه دوقة فيرارا ١٥١٠ م – ١٥٧٥ م

في خريف ١٥٣٤، أمر فرنسيس الأول ملك فرنسا باتخاذ إجراءات صارمة ضد البروتستانت الفرنسيين (الهوجونتيين)، فقبض عملاء الملك على الرعاة الهوجونتيين وعذبوهم، وأعلنت الكنيسة أنهم مهرطقون. وحكم الملك عليهم بالموت حرقًا على السواري في عرض ضخم.

وفي٢١ يناير ١٥٣٥، إذا بالملك فرنسيس الأول، الذي كان يرتدي ثيابا حريرية أرجوانية وزوجته الملكة كلاوديا التي كانت تتلألأ بالجواهر الثمينة، إذا به يقود موكبًا ضخما على ظهر جواد في أنحاء باريس، وتبعهم باقي الأسرة الحاكمة وأصحاب المقامات الرفعية، سيرًا على الأقدام، حاملين الشموع المضاءة. وكان رجال الكنيسة يحملون الرفات المقدسة عاليًا. وكانوا يدَّعون أن من ضمن هذه الأشياء إكليل الشوك الذي وُضِع على رأس يسوع، وحجارة موسى التي كُتبت عليها الوصايا العشرة. وبعد الموكب، احتفلوا بمأدبة عظيمة ثم شاهدوا حرق ستة من الهوجونتيين.

فهرب قادة الهوجونتيين إلى ألمانيا وسويسرا ونافارا وفيرارا، التي كانت إمارة صغيرة في شمال إيطاليا. وقد هربوا إلى فيرارا لأن رينيه دوقة فيرارا منحتهم المأوى وأحسنت ضيافتهم. وكانت رينيه ابنة ملك فرنسا الراحل لويس الثاني عشر، وقد تُوِّجَت أختها كلاوديا ملكة لفرنسا. ولم يكن زواج رينيه عام ١٥٢٨ م من الدوق إركول إستيه، دوق فيرارا، مؤسسًا على الحب ولكنه كان ترتيبًا سياسيًّا، فلكي تحتفظ إمارة فيرارا الصغيرة باستقلالها، كانت بحاجة إلى تكوين علاقة صداقة مع فرنسا والإمبراطورية الألمانية والبابا. وتطلعًا إلى تعزيز يد فرنسا على شمال إيطاليا، رتب الملك فرنسيس لزواج رينيه أخت زوجته من دوق فيرارا، إلا أنه بسبب الفروق الشديدة بين الدوق ورينيه في المعتقدات الدينية، انفصلا عن بعضهما. لقد كان الدوق إركول من مؤيدي تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، أما رينيه

فكانت من أتباع المصـــلحين البروتســـتانت وعضـــدت الوعاظ الهوجونتيين. فلقد توفي والدا رينيه وهي صبية صغيرة، وقامت بتربيتها مدام سوبايز، مربية الأطفال التي جاءتها من إنجلترا بنسخة مخبأة من ترجمة ويكليف للكتاب المقدس، وفتحت عيني رينيه على كلمة الله. وفي سن المراهقة التهمت رينيه كل كتابات المصلحين الفرنسـيين، ولاحقًا أُحضـرت مدام سـوبايز إلى فيرارا كعضـو في البلاط الملكي، فكانتا تصليان وتتعبدان وتدرسان الكتاب معًا وتستمعان إلى الوعاظ البروتستانت، الذين كانت تحضرهم رينيه إلى قصرها.

ومع ازدياد الاضطهاد في فرنسا، هرب الكثيرون من الهوجونتيين إلى قصر رينيـه في فيرارا، وكـان من بينهم كليمونـت مـاروت، الـذي كـان واعظًـا ومترجمًـا لسـفر المزامير إلى الفرنسـية، وجون كالفن مؤلف كتاب *قانون الديانة المسـيحية*. وتسببت أنشطة رينيه في إغضاب زوجها، فقام بطرد مدام دي سوبايز من القصر الملكي، ومنع رينيه من السـفر خارج فيرارا، وكان يعترض سـبيل كل رسـائلها، وطرد البروتستانت من قصرها.

وعندما أمر قادة الكنيســة بإلقاء القبض على كالفن وماروت، ســاعدتهما رينيه على الهرب. وعندما اســتدعى البابا الواعظ الإيطالي أورتشــينو ليمثل للمحاكمة في روما، ســاعدته رينيه على الهروب من إيطاليا إلى جينيف حيث عمل مع كالفن. واعتادت رينيه على إرســال النقود إلى اللاجئين البروتســتانت، وأحضـرت أنطونيو بروتشـيللي، العالم الإيطالي، إلى قصـرها ودعمت عمله في ترجمة الكتاب المقدس إلى الإيطالية.

وأرسل كهنة الجيسويت في فيرارا بخطاب إلى البابا يخطرونه فيه بأن الدوقة تتناول اللحم أثناء الصوم، وترفض حضور القداسات، وقد شيدت كنيسة صغيرة خاصـة في القصـر لا تحوي شـيئًا عن الصـلب أو صـور للقديسين، فأرسل البابا بممثل له ليسـتجوب رينيه، ولكنها رفضـت رؤيته وقالت لزوجها: "أنا أضـع ثقتي في الله وليس في غيره". وأحضـــر الدوق المحكمة الكنســـية إلى فيرارا وألقى بالكثيرين من رعاياه البروتستانت في السجن؛ فطلبت رينيه منه أن يطلق سراحهم

وكتبت له: "أتوسل إليك باتضاع شديد أن تطلق المسجونين الذين أرسلتهم إلى المحكمة، وتذكَّر حزن آباء وأمهات وأطفال أولئك الذين سجنتهم". ولكن الدوق تجاهل مطالبها.

وعندما وقع الواعظ الشهير فانينو فانيني في يد الدوق، توسلت إليه رينيه بالدموع حتى يطلق سراحه، فكان فانيني يعظ الجماهير الحاشدة مستخدما ترجمة بروتشيللي الإيطالية للكتاب المقدس، وعندما سافر إلى فيرارا ألقى رجال الدوق إكرول القبض عليه وألقوا به في السجن. وتجمعت الحشود خارج شباك زنزانته ذي القضبان ليستمعوا إلى عظاته من كلمة الله. ولكي يفرقوا الحشود، نقلوه إلى زنزانة داخلية. وكانت رينيه تزوره كثيرًا وتحضر له الطعام والملابس، وبعثت برسائل بالنيابة عنه لقادة الكنائس وإلى ملك فرنسا، ولكن البابا أمر الدوق إركول بحرق فانيني في الحال وتطهير إمارته من كل البروتستانت، واشتكى له من تدخل رينيه بالنيابة عن فانيني.

فكتب له الدوق قائلاً: "إن زوجتي كثيرًا ما تتصرف دون معرفتي وضد إرادتي، وكأمير مسيحي كاثوليكي، فأنا أنوي أن أعاقب فانيني العقاب الذي يستحقه".

عندما وصل خبر إعدام فانيني إلى السجن سأله أحد المساجين: "ماذا سيحدث لأولادك؟" فأجابه: "لهم أعظم وصي". فنظر إليه زميله في السجن متحيرًا وسأله: "ومن هو الوصي عليهم؟" فأجابه: فانيني بابتسامة قائلاً: "ربنا يسوع المسيح".

وأخذ الحراس فانيني من زنزانته إلى موضع الإعدام بأمر الدوق، ودفعوا إليه بصليب خشبي، فقال لهم: "وهل أنا بحاجة إلى قطعة الخشب هذه لتذكرني بمخلصي؟ إن المسيح يملك على قلبي، بل هو محفور فيه". ثم شنق رجال الدوق فانيني وألقوا بجسده في نهر بو.

وبذل الدوق إركول كل ما في وسعه ليبعد زوجته عن هرطقتها طالبًا مساعدة ملك فرنسا؛ فأرسل الملك الفرنسي في الحال الكثير من المحققين إلى

فيرارا، وظلوا لثلاثة أشـهر يعظون رينيه يوميًّا ويسـتجوبونها بقسـوة في معتقداتها وفيما تفعله نيابةً عن البروتسـتانت، فأجابتهم قائلة بأنها ليست من أتباع لوثر ولا كالفن ولكنها مجرد مسـيحية. وعزز تحديها من سـطوة الملك، فحبسـها حبسًـا انفراديًّا في القلعة، ووضـع حارسًـا خارج الباب ومنع بناتها من رؤيتها وأرسـلهن إلى دير. وهددها المحققون بالسـجن مدى الحياة بل وبالموت، إذا لم تتراجع عن موقفها.

وأخيرا وبعد أن أُنهِكَت رينيه والدموع تملأ عينيها، وافقت على الاعتراف بخطاياها لأحد الكهنة وحضـرت القداس وانتهت محنتها وأعاد لها الملك بعضًـا من امتيازاتها، ولكنه أحرق كل كتبها وأحاطها بالجواسيس وأخبرها بأنه لم يصدق إخلاص اعترافها، ولكنه تظاهر بتصـديقها أمام الناس، ليُجنِّب الإمارة فضـيحة الهرطقة. وقال ابنها ألفونسـو بأنه يعتقد بأن والدته كانت تسـتحق الموت حرقًا لأنها مهرطقة. وقضى كل من رينيه والدوق الخمس سنوات الباقية لزواجهما دون أن يتصالحا، إلى أن مات زوجها عام ١٥٥٩.

لقد امتثلت رينيه ظاهريًا، ولكنها أبقت على تواصـلها سـرًّا مع قادة البروتستانت، وأرسلت بالأموال لتساعد البروتستانت المنفيين في فرنسا وسويسرا. وأصبح ألفونسو دوقًا بعد وفاة والده، واضطهد البروتستانت أكثر مما فعل والده. وفي زيارته إلى القصر الفرنسي قال ألفونسو: "أَفَضِّل العيش مع الطاعون عن العيش مع الهوجونتيين". وبعد تتويجه بفترة وجيزة أصدر إنذارًا لوالدته يخيّرها بين ترك إيمانها البروتسـتانتي أو العزل من فيرارا إلى الأبد. واختارت رينيه أن تترك المدينة التي تُوِّجت عليها دوقة لمدة اثنين وثلاثين عامًا وعادت إلى فرنسـا، وقبل أن ترحل كتبت لابنها تقول: "يا بُنيّ، لم أسـتطع أن أبوح لك عن مكنونات قلبي، خوفًا من أن تغلبني دموعي".

ووجدت رينيه فرنسا على شفا حرب أهلية، فلقد صرح برلمان باريس بعقوبة الإعدام لكل من يتعبد كبروتسـتانتي، وقام الجنود والحشـود بذبح الهوجونتيين في أكثر من عشرين مدينة فرنسية؛ فتسلح الهوجونتيون الغاضبون، واقتحموا الكنائس

ودمروا الصـور وحطموا النوافذ، وقتلوا بعض الرهبان والكهنة في بعض المناطق، ولقي ٢٠٠ شخص مصرعهم في إحدى المدن عندما سلب حشد من الهوجونتيين إحدى الكاتدرائيات، فأعلنت رينيه استنكارها للعنف. واستحثت الهوجونتيين قائلة: "علينا أن نقابل الشر بالخير، فالمسيحية تتعارض مع الكراهية، فعلينا أن نسعى للسـلام مع الجميع". وعند عودتها إلى فرنسـا، وضـعت رينيه يدها على ميراثها وامتلكت قلعة مونتارجيس. وبتصـاعد الاضـطراب، مدت خندق المياه ودعمت الجدران وأعدت المدافع ورحبت بالمئات من اللاجئين الكاثوليك والبروتسـتانت، الذين كانوا قد هربوا من إراقة الدماء، وأقامت في قلعتها كنيسـة، حتى يتعبد فيها البروتستانت، وشجعت الوعظ بالأخبار السارة عن يسوع المسيح، في كافة أنحاء المدينة. ومنعت رينيه العنف من كلى الطرفين، وأرسـلت جنودها ليوقفوا السـلب والقتل، سواء على يد الكاثوليك أو الهوجونتيين.

واشـتدت المعركة في أنحاء فرنسـا، وهجمت القوات الكاثوليكية على مونتارجيس، وأمرها أحد القادة بتسـليم قلعتها. وعندما رفضـت، نصـب مدفعا لإطلاق النار، فقالت له رينيه: "فكر جيدًا فيما ستفعله، فلا يوجد في هذه المملكة من يستطيع أن يأمرني سوى الملك، فإذا أتيت، سألقي بنفسي من الثغر وأرى إذا كنت ستجرؤ على قتل ابنة ملك". فتراجع القائد وسحب قواته من المدينة. وهكذا تم إنقاذ القلعة واللاجئين. وقد عُرفت حماية رينيه وحُسن ضيافتها في كل أنحاء فرنسا، وأطلق الهوجونتيون على قلعتها اسم "فندق الرب".

وابتهج جون كالفن بعملها وكتب لها قائلاً: "أعرف أنك كنت كأم مرضـعة لهؤلاء الفقراء وللإخوة والأخوات المضـطهدين، الذين لم يكن لهم مكان آخر ليذهبوا إليه، فالله قد منحك شرفًا عظيما عندما سمح لك بحمل رايته".

وفي عام١٥٧٢ م، بينما كانت رينيه في باريس، أمر الملك بذبح الهوجونتيين في عيد القديس برثلماوس، وجرت الدماء في الشوارع، وذُبح الآلاف، وكانت رينيه تسمع الصيحات والصرخات، ومكثت هي والنساء اللاتي رافقنها

لمدة أسبوع وراء باب مغلق، عليه حارس مسلح، وأسرعت بالعودة إلى مونتارجيس وفتحت أبواب قلعتها لمئات من الهوجونتيين الذين تمكنوا من الهروب لحياتهم.

في العامين التاليين عانت من المرض والألم وفعلت قدر استطاعتها لتبقى على قيد الحياة، وماتت بين أصدقائها المسيحيين، ولكنها كانت منفصلة عن أولادها الذين رفضوا إيمانها. ورفض ملك فرنسا دفن جسدها في سانت دينيس، حيث يُدفن ملوك وملكات فرنسا وأولادهم، فوُضع جسد رينيه في تابوت خشبي بسيط، ودُفنت داخل قلعتها دون مراسيم.

وفي وصيتها تركت عبارة طويلة، تعبِّر عن إيمانها بيسوع المسيح، وختمت بملاحظة لأولادها تقول: "أصلي أن يقرأ أولادي كلمة الله ويستمعوا إليها، حيث سيجدوا العزاء والمرشد الحقيقي للحياة الأبدية".

...

عصر ما بعد الإصلاح
شجاعة باسلة ونهضة رائعة

لقد ساد الاضطهاد والبركات معا في القرن السابع عشر والثامن عشر، وعمل أعداء الحق على القضـــاء على الحرية الدينية، ولكن الروح القدس أنهض عددًا لا حصر له من الناس ليؤمنوا بيسوع المسيح.

*جوستافوس أدولفاس
الملك المحارب

*ريتشارد كاميرون
أسد العهد

*المارجاريتان
شهيدتا سولواي

*جون بانيان
السائح السعيد

*جوناثان إدواردز
لاهوتي النهضة العظيمة

*جورج هوايتفيلد
واعظ النهضة العظيمة

*جون ويسلي
العالم كله أبرشيته

*جون نيوتن
تاجر عبيد خلصته النعمة

جوستافوس أدولفاس

الملك المحارب

جوستافوس أدولفاس ١٥٩٤ م – ١٦٣٢ م

في العشـــرينيات من القرن الســـابع عشـــر، قرر فرديناند إمبراطور ألمانيا الكاثوليكي وملك بوهيميا أن يفني الإيمان البروتسـتانتي، وصـرَّح قائلاً: "أُفضِّـل تقطيعي إربًا على السماح باحتقار كنيسة روما". فسحق البروتستانت في بوهيميا وقتل عشرات الآلاف وشتَّت الباقين، وأضاف قائلاً: "أفضِّل أن أحكم دولة خربة عن دولة ملعونة". وبعدما اكتســـح المدن الحرة لألمانيا الوســـطى، بدأ الجيش الإمبراطوري في الزحف شـــمالاً، فتحرك ملك الدانيمارك ليوقفهم ولكن الجيش الإمبراطوري سـحقهم واحتلَّ البلاد وأغلق الكنائس واسـتولى على الممتلكات؛ وبدا عمل الإصلاح في أوروبا كما لو كان معلقًا بخيط رفيع.

ومن ثم قرر جوســـتافوس أدولفاس دخول المعركة، فقد كان جوســـتافوس مسيحيًّا مكرَّسًا وملكًا على السويد، وكانت خسائر بروتستانت أوروبا تؤلمه، كما أن تقارير قسـوة جنود الإمبراطور كانت تُمرضـه. وفي ٢٠ مايو ١٦٣٠ م، وقف الملك جوســتافوس، اليافع الطول قوي البنية وذو العيون الزرقاء البراقة والشـــعر الذهبي، أمام ممثلي الحكومة في قاعة دايت الكبرى بستوكهولم. وكان يحمل بين ذراعيه ابنته كريستين التي تبلغ من العمر أربعة أعوام. وبالرغم من عمره الذي لم يكن قد تجاوز الخامسـة والثلاثين، إلا أنه كان قد حقق إنجازات عظيمة للسـويد، وذلك بتحقيق الكثير من الانتصارات في ساحة القتال والحكم بالعدل في وطنه.

وقال لهم بصـوت وقور: "الآن أنا أوشـك البدء في أهم صـراع، فلقد أجبرني الإمبراطور فرديناند على اللجوء إلى الحرب، بعد أن أهاننا واضـطهد أصـدقاءنا، إخوتنا في الإيمان الذين تنهدوا طلبا للنجاة. وبمعونة الله لن تذهب تنهداتهم هباءً". عندئذ استطالت الوجوه في القاعة واعتصرهم القلق، عندما تأملوا المخاطرة المرعبة التي كانت تنتظر ملكهم وجيشهم.

فقال لهم: "أنا أدرك المخاطر، ولهذا قبل أن أغادر البلاد، أستودعكم جسدًا وروحا بين يدي الله القدير، ليحميكم وليوحدنا جميعًا في السماء. نعم أستودعكم يا شعب السويد العزيز لحماية الله، وربما يكون هذا الوداع هو الأخير". وعندما أنهى الملك حديثه، انفجر الجميع في البكاء، فدعاهم جوستافوس بصوت مرتفع وقال: "فلنصلِّ الآن"؛ فوقف الجميع وأحنوا رؤوسهم وصلوا قائلين: "أيها الرب، الطف بنا وارحمنا وامنحنا النجاح لعمل أيدينا، وليمجدك هذا العمل".

وحين خرجت الجيوش للحرب، ضربت الرياح العاتية والبحر الهائج القوات السويدية التي كانت تحاول عبور بحر البلطيق، وبعد مرور خمسة أسابيع، وقف كل رجال الملك على أقدامهم على الأراضي الألمانية وركع جوستافوس على الرمل وقادهم في الصلاة قائلاً: "ربي وإلهي، يا من تتحكم في الرياح والبحار، أي شكر وحمدٍ أقدم لك على حمايتك لنا أثناء الرحلة الخطيرة؟ أشكرك من أعماق قلبي، فأنت تعلم يا رب بأني لم أحضر إلى هنا من أجل مجدي الشخصي، ولكن من أجل مساعدة كنيستك المُضطهَدة، فاحمنا وانصرنا في هذا العمل المقدس". ثم وقف جوستافوس وهو يضع سيفه إلى جنبه ورأى الدموع في عيون رجاله فقال لهم: "لا تبكوا، ولكن بالأحرى صلوا لله من كل قلوبكم، فالصلاة الكثيرة تحقق النصر".

وشن جوستافوس هجومًا شاملا، وبالرغم من ازدياد عدد جيش الإمبراطور عن عدد جيش جوستافوس، إلا أن النصر كان حليف الجيش السويدي، وحقق الجيش نصرا وراء الآخر، وأجبر العدو على الفرار وحرر المُضطهَدين. ولكن سرعان ما رد جيش الإمبراطور وانتقم بشراسة وهجم على المدن الألمانية الضعيفة التي تبعد عن الجيش السويدي.

وعندما استولى جيش الإمبراطور على ماجْدبِرج، أمر تيلي القائد الإمبراطوري بإعدام جماعي، وقام بجر الخدام في الشوارع وغطسهم في الزيت وأشعل فيهم النيران، وأمر بإغلاق كنيسة من الخارج مليئة بالنساء والأطفال وأحرقها حتى صارت رمادًا، وأشعل النيران في المدينة كلها. وأخذ الجنود، الذين

انفجروا في الضحك، يمارسون رياضة تقاذف الأطفال وإلقائهم في النيران. وقد تم ذبح ما يقرب من ٣٠ ألفًا من مجموع سكان المدينة الذين بلغ عددهم حوالي ٣٤ ألفًا.

وبكى الملك جوستافوس، لأنه عجز عن الوصول إلى ماجْدبرج في الوقت المناسب لينقذهم، ولكن هذه الحادثة أيقظت البروتستانت الألمان من غفوتهم وأسرع الآلاف ليقفوا بجانب السويديين. وفي ٦ سبتمبر ١٦٣١م، فإن جوستافوس ورجاله وجيش من البروتستانت الألمان وجدوا جيوش تيلي في الساحات التلالية خارج قرية بريتنفيلد، فشكل رجال جوستافوس صفوف المعركة من جانب، وحلفاؤهم الألمان شكلوا الصفوف من الجانب الآخر. وكان صوت ترانيم المزامير مسموعًا من طرف الصف إلى الطرف الآخر من الصف.

بعد أن ارتدى جوستافوس سلاحه كاملاً وامتطى جواده قال: "أنا أعتمد على عدالة قضيتنا أكثر من اعتمادي على ذراعنا وحلفائنا، فنحن نحارب من أجل مجد الله والإيمان الإنجيلي الحقيقي. فلا شك أن إله كل صلاح، الذى عبر بنا البحار والأنهار، وخلال الحصون والأعداء بشكل معجزي، سيقوّينا حتى نحقق النصر، ولهذا سنهاجم بشجاعة، فالله معنا. ولتكن هذه الكلمات هي صرخة حشودنا وبمساعدة القدير سيكون النصر حليفنا". وكان جيش تيلي المتمرس، والذي لا يُهزم، قد سيطر على الأراضي المرتفعة بالمدافع المُهيأة والمصوَّبة، واجتمع مشاة وفرسان الإمبراطور، المدججون بالسلاح، في خطوط عديدة استعدادًا للهجوم.

وسار جوستافوس إلى مركز صفوفه، ونزع قبعته وصلى بصوت مرتفع قائلاً: "أيها الإله الصالح، أنت تملك النصر والهزيمة، فحوِّل وجهك الرحيم إلينا نحن خدامك. لقد أتينا من بلاد بعيدة وتركنا بيوتنا، لنحارب في هذه البلد من أجل الحرية ومن أجل إنجيلك، فمجِّد اسمك القدوس بمنحك إيانا النصر". ثم أمر بالهجوم، وجلجلت أصوات طلقات المدافع في الميدان، وعندما هرع آلاف الجنود عبر الأراضي الجافة المحروثة حديثا، تصاعدت سحابة من التراب حجبت الرؤية

وهجم رجال تيلي سبع مرات على مركز الصفوف السويدية، ولكن في السبع مرات نجح الجيش السويدي في صد الهجوم. ثم عادوا لضرب جيش الصفوف الألمانية البروتستانتية، وفصلوه عن الجيش السويدي، فهرب معظم الألمان في ذعر وبقي الجيش السويدي بمفرده في مواجهة جيش الإمبراطور.

ووجه تيلي كل قوة جيشه لمواجهة الجيش السويدي، فأسرع جوستافوس للجناح الأيسر وأعاد تنظيم قواته، وجرى ذهابًا وإيابا ليستحث جيشه ويشجعه. وبعد صد الهجوم الأول، قاد جوستافوس جيشه ليشن هجمة على الأراضي المرتفعة، ثم استولى على المدافع وأطلقوا النيران على أعدائهم بأسلحتهم؛ فهرب الجيش الإمبراطوري من أرض المعركة في اضطراب، فنزع جوستافوس خوذته وركع على ركبتيه وشكر الله بفرح على النصر العظيم. لقد حرر هذا النصر معظم بروتستانت ألمانيا، ولم يعُد جوستافوس مهدَّدا بأي من جيوش الإمبراطور، فسار بسرعة عبر ألمانيا، وشكل بروتستانت ألمانيا حلفا للحماية تحت قيادته. وظل جوستافوس يحقق مزيدا من الانتصارات لمدة عام، مدعمًا قبضة البروتستانت.

في ذلك الوقت أعاد الإمبراطور فرديناند حشد الجيش الإمبراطوري، وأرسله ليسحق جوستافوس أدولفاس. فاستعد الجيشان للمعركة خارج مدينة لوتزين في صباح ٦ نوفمبر ١٦٣٢ م، وبعد أن أعد جوستافوس جيشه للحرب، بدأوا يرنمون ترنيمة مارتن لوثر التي تتحدث عن الحرب المسيحية: "الله ملجأ لنا وقوة على الدوام" وترنيمة "لا تخف من الخصم أيها القطيع الصغير".

لا تخف من الخصم أيها القطيع الصغير
والذي يسعى بجنون إلى سحقك
لا تخف من غضبه وقوته
وبالرغم من قلة شجاعتك في بعض الأوقات
فانتصاره الظاهري على قديسي الرب
لا يدوم سوى لوقت قصير.

وجثا الجيش كله وصـــلوا للرب مرة أخرى، ثم امتطى جوســـتافوس جواده وسـار عبر صـفوف الجيش وقال لهم: "اسـتعدوا لإظهار شـجاعتكم. أُثبتوا وقِفوا بعضـــكم إلى جانب بعض وحاربوا بشـــجاعة من أجل إيمانكم وبلدكم وملككم، وليحفظكم الله جميعًا". وبعد خطـابـه غطـت ســـحـابـة كثيفـة الميـدان وأخرت جوســتافوس عن البدء في الهجوم، ولكن عندما بدأت الســحابة في الانقشــاع، حوالي الساعة الحادية عشرة، صـرخ قائلاً: "والآن إلى الأمام في اسم الرب! يا يسوع، دعنا نحارب من أجل مجد اسمك القدوس".

وأشـاح جوسـتافوس بسـيفه عاليًا وصـرخ قائلاً: "إلى الأمام!" وقاد الجيش، واشـتدت المعركة على كلى الجانبين، ثم حشـد جوسـتافوس رجاله من أجل شـن هجمة مضـــادة، فصـــاح وهو يعدو بجواده صـــوب العدو قائلاً: "اتبعوني أيها الشجعان". وفي ظل اضطراب المعركة وعودة السحابة، انفصل جوستافوس عن جيشه وأصابت طلقة نارية ذراعه الأيسر ومزقته، فوقع على الأرض وبدأت دماه تنزف فتقدم الجيش الإمبراطوري.

وسألوه: "من أنت؟"

فأجابهم جوسـتافوس: "أنا ملك السـويد واليوم أوقّع بدمي حرية الإمبراطورية الألمانية ودينها!" ففتح الجنود نيرانهم عليه وقتلوه في الحال. وعندما علم جيش السويد بموت ملكهم، غلت دماؤهم في عروقهم وسعوا للانتقام. وبشجاعة وضراوة هجموا على الجيش الإمبراطوري من جميع الجوانب واخترقوا صـــفوف العدو وهزموهم، ولقي عشرة آلاف رجل مصرعهم في المعركة واستمرت الحرب لسنوات عديدة، ولكن جوستافوس عاش ما يكفي لضمان بقاء أراضٍ بروتستانتية حرة قوية في ألمانيا، وتم إنقاذ الإصلاح في أوروبا.

...

ريتشارد كاميرون

أسد العهد

ريتشارد كاميرون ١٦٤٤ م – ١٦٨٠ م

في إحدى أمســـيات عام ١٦٨٠، في الأراضـــي المنخفضـــة المركزية باسكتلاندا، واجهت مجموعتان مسلحتان بعضهما البعض في المستنقعات، وبدا عدد أحد الجانبين أكبر وتسلحه أفضل. أولئك هم الفرسان جنود الملك تشارلز الثاني، والذين ظلوا لشـــهور يتعقبون أعداءهم. وعلى الجانب الآخر وقفت فرقة صغيرة من الرجال، لم يزد عددهم عن ستين رجلاً، مزوَّدين بأسلحة ضعيفة ولم يكونوا جنودا مدربين، بل كانوا مزارعين وتجارا، ولم يكن لدى معظمهم خيول ليمتطوها أثناء المعركة، ولم يكن قائدهم عســـكريًّا ولكنه كان راعيًا. لقد كانوا مؤمني العهد يقودهم ريتشارد كاميرون أسد العهد.

كان مؤمنو العهد اسكتلنديين شجعانًا، رفضوا التنازل عن حريتهم الدينية لملك إنجلترا، وحاول الملك تشارلز أن يضغط على مسيحيي اسكتلاندا ليتعبدوا بأسلوب يناقض تعاليم كنيستهم، ولكنَّ مؤمني العهد أعلنوا بأنه: "لا يوجد غير المسيح رأسًا للكنيسة". وقال أحد وعاظهم للملك: "سيدي، يوجد باسكتلندا ملكان ومملكتان، وهذان هما أنت رئيس الكومنولث ويسوع المسيح الملك ومملكته هي الكنيسة. في مملكة المسيح أنت لست سيدًا ولا رأسًا ولكنك عضوٌ".

ولم يكن ريتشارد كاميرون يحلم بأنه سيقود جيشًا في معركة ضد الملك، فلقد كان يعيش حياة هادئة كمدرس، حتى ذهب إلى إحدى المناطق الريفية واستمع إلى أحد الوعاظ في اجتماع سري. ولقد كان هذا الاجتماع غير قانوني يقوده خادم طُرد من كنيسته لعدم طاعته لأوامر الملك، وهناك سمع ريتشارد كاميرون عن يسوع وأصبح مؤمنًا.

ولم يمضِ وقت طويل حتى أصـــبح كاميرون واعظا علمانيا واســـتحث الآخرين ليُقبلوا إلى المسيح لينالوا غفران الخطايا. ولكن رجال الملك اعتادوا على

أن يقبضـــوا على الخدام ويعذبوهم وأحيانًا يقتلوهم، لذا هرب كاميرون ومئات آخرون عبر بحر هولندا، وهناك درس الكتاب المقدس بتركيز ورُسـم راعيًا. ولكن كاميرون كان قد عقد العزم على العودة إلى بلاده حتى لو أدى ذلك إلى الموت المحقق. وقبل أن يترك هولندا، وضـــع خادم اسـكتلندي يده على رأس كاميرون وصاح قائلاً: "هذه رأس راعٍ مؤمن وخادم ليسوع المسيح، سيخسر رأسه من أجل سيده وسيكون هذا ظاهرًا أمام الشمس والقمر على مرأى من العالم".

وبعد عودته ســرًّا إلى اســكتلندا، ظل كاميرون يعظ بين التلال وفي المسـتنقعات والحقول. ولكن عندما رأى قسـاوة جنود الملك، انضـم وأخوه مايكل وبعض الرجال الشـجعان معًا لمحاربة مُضْـطَهِدِي أسكتلاندا. وبالرغم من بدائية السلاح وقلة التدريب، إلا أنهم أقسموا على الدفاع عن الأسكتلانديين من الرجال والســيدات والأطفال الأبرياء. وقال كاميرون لأتباعه: "لا يحبطكم قلة عددكم، فعندما يأتي المســيح ليرفع شــأن عمله باســكتلاندا، فلن يحتاج لعدد كبير من الرجال ليعملوا من أجله".

ولتوضــيح أهدافهم، ســاروا بشــجاعة إلى ميدان ســانكوير في ٢٢ يونيو ١٦٨٠ م منشدين المزامير ومصلين، وقرأوا هذا التصريح: "نحن نتبرأ من تشارلز ستوارت الذي ظل يحكم، أو بالأحرى يستبد، بعرش بريطانيا لسنوات كثيرة، فليس من حقه الجلوس على عرش اســكتلندا، لأنه كذب وكســر العهد مع الله ومع كنيسته، ونحن تحت لواء ربنا يسوع المسيح، رئيس الخلاص، نعلن الحرب ضد الطاغية وكل رجاله كأعداء ليسوع المسيح".

عندئذ أعلن الملك تشارلز عن مكافأة كبرى لمن يلقي القبض على ريتشارد كاميرون حيًّا أو ميتًا. وبالرغم من مطاردته في كل الدولة، لم يبح أحد للجنود عن مكان كاميرون، الذي ظل يعظ ويخدم حتى أثناء هروبه. وأخيرًا التقى جنود الملك بريتشــارد كاميرون ورجاله، وقبل البدء في المعركة أحنى كاميرون رأســه ورفع صــوته وقاد رجاله في الصــلاة للمرة الأخيرة، طالبًا من الله أن يحمي حياة أولئك الذين لم يستعدوا بعد للموت وقال: "ابقِ الأخضر وخذ الناضج".

والتفت إلى أخيه المخلص وقال: "هلم يا مايكل، لنحارب حتى آخر نسمة، فلقد كنت أتوق إلى هذا اليوم الذي أموت فيه وأنا أحارب أعداء الرب، فهذا هو اليوم الذي سنحصل فيه على الإكليل". وشجع أصدقاءه قائلاً: "تقوَّوْا جميعكم وحاربوا بشجاعة، فأنا أرى أبواب السموات مفتوحة على مصراعيها لاستقبال كل من سيسقط منكم اليوم". ورنموا معًا ترنيمة تسبيح أخيرة للرب. ثم هجم عليهم الفرسان وكانت حوافر خيولهم تدوّي عبر ميدان المعركة وكانت رماحهم وسيوفهم تلمع. وبالرغم من ازدياد عدد جنود الملك عن عدد مؤمني العهد، إلا أنهم قاتلوا بشجاعة، ولكن بانتهاء المعركة كان ريتشارد ومايكل كاميرون والعديد من رجالهم قد لقوا مصرعهم.

فقطع رجال الملك رأس ريتشارد ويديه وأحضروها إلى المجلس بإدنبرج كتذكار، وعندما دخلوا إلى المدينة وضع أحد الجنود رأس كاميرون عاليًا على رأس رمحه وصاح قائلاً: "هذه رأس الخائن المتمرد". وأمر المجلس بتعليق رأس كاميرون ويديه في مكان عالٍ بارز في إدنبرج ليكون تحذيرًا لكل من يجرؤ على مقاومة الملك. وقبل تعليق الرأس واليدين، قام رجال الملك بعمل غاية في القساوة، حيث ذهبوا إلى والد كاميرون، الذي كان ملقى في السجن لمساندته لقضية مؤمني العهد، وألقوا بالرأس واليدين في حِجْرِهِ وسألوه: "هل تعرف هذه؟" فرد وهو يُقَبِّل الرأس واليدين قائلاً: "أعرفها، أعرفها فهي لابني، ابني العزيز". وإذ غلبه الحزن، أجهش بالبكاء وقال: "إنه الرب، صالحة هي إرادة الرب الذي لن يخطئ ولكنه جعل صلاحًا ورحمة يتبعاننا كل الأيام".

حتى أعداء ريتشارد كانوا معجبين بإيمانه وشجاعته، وإيمان وشجاعة والده وأخيه. وقال أحد الذين شاهدوا رأسه معلقا في إدنبرج:" إن هذه رأس ويدا رجل عاش مصلِّيًا وواعظًا ومات مصليًا ومحاربًا".

وظلت أسكتلندا تعاني من الاضطهاد لثماني سنوات بعد موت كاميرون حتى أطاحت النهضة العظيمة بالملك تشارلز الثاني وعائلة ستوارت من على العرش للأبد. ورغم موت الآلاف بسبب إيمانهم، إلا أن حياة وموت ريتشارد

كاميرون، كانت واحدة من أَلمع الأضـواء للمسـيح أثناء أيام الاضـطهاد المظلمة تلك.

...

المارجاريتان

شهيدتا سولواي

مارجاريت ماكلاتشلان ١٦٢٢ م – ١٦٨٥ م
مارجاريت ويلسون ١٦٦٧ م – ١٦٨٥ م

عُرف عام ١٦٨٥ م، في اسكتلاندا "بزمن القتل"، حيث طارد جنود الملك تشارلز الثاني ملك إنجلترا، آلاف الرجال والنساء والأطفال وقتلوهم بأقسى الطرق التي يمكن لأي عقل أن يتخيلها. ولماذا؟ ما هو الخطأ الجسيم الذي ارتكبوه؟ وكيف أدينوا إلى الملك إلى هذه الدرجة؟ كانت هذه هي جريمتهم: لقد أحبوا يسوع المسيح بشدة وآمنوا أنه وحده رأس الكنيسة، وسعوا لعبادته كما أوصاهم الكتاب المقدس. لقد أُطلق على هؤلاء الأسكتلنديين الشجعان "مؤمنو العهد".

وكان هناك اثنتان من مؤمني العهد اسمهما مارجاريت ماكلاتشلان ومارجاريت ويلسون، وكانتا ممن لقوا حتفهم أثناء "زمن القتل" المذكور آنفًا. كانت مارجاريت ماكلاتشلان أرملة فقيرة ذات شعر رمادي، وعُرفت بين جيرانها بالمسيحية الكريمة والمكرسة، وكانت تعيش باتضاع في كوخ صغير. حذرها جنود الملك بأن تتخلى عن إيمانها وألا تعبد الله إلا بالطريقة التي أمر بها الملك. وبالرغم من التهديد والمضايقات، إلا أنها لم تخالف ضميرها. وفي أحد الأيام وبينما كانت ساجدة تتعبد للرب، اندفع الجنود إلى منزلها وأخذوها وألقوا بها في السجن، وهناك عانت من الجوع والبرد، إلى أن جاء يوم محاكمتها.

ورفضت مارجاريت ويلسون، التي كانت تبلغ الثامنة عشرة من عمرها وأختها الصغرى أجنس التي كانت تبلغ الثالثة عشرة، الخضوع لأوامر الملك فيما يتعلق بعبادتهما، فتجنبتا رجال الملك بأن عاشتا في الجبال والغابات والمستنقعات مع آخرين من مؤمني العهد. وقد أمر الجنود أهلهما بعدم زيارتهما أو إمدادهما بالطعام أو الثياب أو المأوى. وفي أحد أيام الشتاء الباردة تسللت الأختان، اللتان كانتا تشعران بالوحدة والبلل والجوع، إلى المدينة لزيارة بعض الأصدقاء، وبينما كانتا تستمتعان بوجبة ساخنة ونار للتدفئة، تم اكتشافهما والقبض عليهما، وألقيت

مارجاريت ويلسون وأختها في السجن وُحبِستا في حجرة اللصوص، وكانت أكثر الزنزانات إظلامًا، لأنها كانت معدة لأشر المجرمين. وانتظرتا شهرين في بكاء وأنين إلى أن جاء يوم محاكمتهما.

وفي يوم ١٣ إبريل ١٦٨٥م، مثلت الفتاتان النحيلتان ومارجاريت ماكلاتشلان أمام المحكمة، فحدَّق بهن القاضي وأعطاهن آخر فرصة للحرية وقال: "هل ستُقسمن بالقسم مُعلناتٍ أن الملك رأسٌ على الكنيسة؟" فأجبنه بهدوء: "لا". فرد عليهن قائلاً: "إذًا فالمحكمة تدينكن بالخيانة، لإنكاركن سيادة الملك على الكنيسة، ولحضوركن اجتماعات عبادة غير قانونية بالمدينة". ولكنهن وقفن صامتات دون التفوُّه بأية كلمة؛ فأمرهن القاضي قائلاً: "اركعن أمام المحكمة حتى أتلو عليكن الحكم". وعندما رفضن أرغمهن الحراس بعنف على الركوع وأعلن القاضي قائلاً: "تدين المحكمة مارجاريت ماكلاتشلان ومارجاريت ويلسون وأجنس ويلسون بتهمة خيانة حكومة الملك، لذا فقررنا الحكم عليكن بالموت حيث ستوثقن بأعمدة مثبتة في الرمل في مياه المد، وستقفن هناك حتى تفيض المياه وتغرقكن".

فتقدم السيد ويلسون والد الفتاتين إلى منصة القاضي، وتوسل إليه بصوت مرتعش بأن يرحم ابنتيه، ولأن أجنس كانت صغيرة السن وافق القاضي على إطلاق سراحها إذا دفع والدها غرامة قدرها مائة جنيه استرليني. وهكذا دفع السيد ويلسون الغرامة الكبيرة عن ابنته أجنس، ثم امتطى جواده وأسرع إلى إدنبرج ليستأنف أمام محكمة أعلى ليسقط الحكم عن مارجاريت.

واصطحبت مجموعة صغيرة من الجنود المارجاريتين من السجن إلى نفق عميق، ليصلوا إلى خليج السولواي المؤدي إلى البحر الأيرلندي، وثبتوا عمودين خشبيين إلى أعماق رمل الأرض التي يغمرها المد، وأوثقوا المرأة الأكبر سنًا على السارية الأبعد عن الشاطئ أما مارجاريت الصغيرة فأوثقوها بالعمود الأقرب من الضفة، وذلك حتى تشاهد مارجاريت الصغيرة السيدة ماكلاتشلان وهي تحتضر أولا. أرادوا أن تلاحظ الموت المرعب للمرأة الأكبر أولاً، لعل هذا يحثها على التراجع. واحتشد أصدقاء المرأتين على الضفاف مصلين حتى يتم الصفح عنهما.

ولم تنطق مارجاريت الكبيرة بكلمة عندما ارتفعت المياه الباردة حولها وكانت تجاهد لترفع رأســـها فوق الأمواج لتلتقط أنفاســـها. فالتفت أحد المنفذين للحكم لمارجاريت الصغيرة بسخرية قائلاً: "بماذا تصفينها الآن؟" فأجابته: "أرى المسيح يصـــارع هناك، فهل تعتقد أننا نحن من نعاني؟ بالطبع لا، بل المســـيح فينا". وسـرعان ما غطت المياه الجسـد الميت لمارجاريت ماكلاتشـلان، وعندما بدأت المياه ترتفع حول مارجاريت الصغيرة أخذت ترنم ترنيمة من مزمور ٢٥ تقول:

لا تذكر خطايا صباي ولا معاصيَّ.
كرحمتك اذكرني أنت من أجل جودك يا رب.
الرب صالح ومستقيم. لذلك يعلِّم الخطاة الطريق
يدرب الودعاء في الحق ويعلِّم الودعاء طرقه.

ولقد ترك معذبوها يديها حرة عندما أوثقوها بالسـارية وسـمحوا لها بإمسـاك الكتاب المقدس، ففتحت الرسالة إلى أهل رومية الأصحاح الثامن وقرأت بصوت مرتفع: " فإني أحسب أن آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعلن فينا". واستمرت إلى آخر الأصحاح، "فإني متيقن أنه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رؤســاء ولا قوات ولا أمور حاضــرة ولا مســتقبلة ولا علو ولا عمق ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصـلنا عن محبة الله التي في المسـيح يسـوع ربنا". وسـرعان ما ارتفعت المياه فوق عنقها، فنزل الجنود وفكوا وثاقها ورفعوها آمرين إياها قائلين: "صلِّ للملك لأنه السلطة العليا على كل شخص في الكنيسة"؛ فأجابت مارجاريت: "أنا أصـــلي من أجل خلاص كل الناس، وأتمنى ألا يُدان أحد". فدفعوا برأســـها تحت الماء ورفعوها مرة أخرى قائلين: "صلِّ للملك واحلفي بالقسم".

ونادى شـــخص من بين الجمع قائلاً: "عزيزتي مارجاريت، قولي ليحفظ الله الملك". فرفعت مارجاريت وجهها الشـــاحب وكانت شـــفتاها قد تحولتا إلى اللون الأزرق وحاولت التقاط أنفاســها وصــلت قائلة: "يارب امنح الملك التوبة والغفران والخلاص، إن كانت هذه مشيئتك المقدسة".

فصـــاح الكثيرون: "لقد قالتها، لقد قالتها، أطلق ســـراحها"، ولكن رئيس الضـباط كان يستشـيط غضـبًا وصـاح: "لتذهب الكلبة إلى الجحيم، نحن لا نريد هذه الصلوات فلتحلفي بالقسم"، فأجابته: "لا، لا، لن أنطق بهذا الحلف الآثم، فأنا واحدة من أولاد المسـيح، دعني أذهب"؛ فسـخر منها أحد الجنود قائلاً: "اشـربي جرعة أخرى". ودفع كتفها بســـلاحه وغمرها تحت المياه للمرة الأخيرة، وماتت هناك لمحبتها للمسيح ورغبتها في أن تتبع كلمته.

...

جون بانيان

السائح السعيد

جون بانيان ١٦٢٨ م – ١٦٨٨ م

"وبينما كنت أسير في برّية هذا العالم، وصلت إلى مكان معيَّن حيث كان هناك عرين، ورقدتُ في هذا المكان لأنام، وعندما نمت حلمت حلمًا، وإذا برجل في ثياب رثة واقفًا في مكان ما، يطل بوجهه من منزله، ممسكا بكتاب في يده، وحاملاً على ظهره حملاً ثقيلاً. فنظرت ورأيته يفتح الكتاب ويقرأ فيه، وعندما قرأ، بكى وارتعد ولم يستطع أن يكمل، فانفجر في بكاء مرير وقال: "ماذا أفعل؟"

هكذا بدأ جون بانيان كتابه "سياحة المسيحي" أحد أكثر الكتب انتشارًا وتفضيلاً، فلقد كان هذا الكتاب يروي قصة مسيحي سافر إلى المدينة السماوية. ولقد كانت هذه قصة رجوع بانيان إلى المسيح، وإليكم قصته.

في أحد الأيام وبينما كان جون بانيان، السمكري المتجول، يميل إلى شباك أحد المتاجر يلعن بصوت مرتفع، قالت له سيدة فقيرة وهي تضع إصبعها على وجهه: "أنت أكثر الأناس شرًّا لأنك تسبُّ بأسوأ الكلمات، فأنت ستُفسد كل شباب المدينة إذا اتخذوك رفيقًا لهم". وكانت ملاحظتها بمثابة طعنة في قلبه، فتركها بانيان خجلاً ولم ينطق بكلمة، ولم يزُل خجله سريعًا، ولكنه جعله ضعيفا وفاقد الثقة في نفسه ومكتئبًا، وأخذ يقول لنفسه: "آه لو عدت إلى صباي مرة أخرى وعلمني والدي أن أتحدث دون استخدام هذه اللعنات الشريرة".

وتعهَّد بانيان بأن يصبح شخصًا جديدًا، فتوقف عن اللعن وبدأ يقرأ في الكتاب المقدس ويتحدث عن الأمور الدينية. كان بانيان فخورًا بإصلاح حياته فقال: "أنا أرضي الله كما يرضيه أي شخصٍ آخر في إنجلترا". وفي أحد الأيام المشمسة بينما كان سائرًا في زقاق في بيدفورد، اقترب بانيان من بعض السيدات اللاتي كن جالسات في أحد الأروقة في استراحة قصيرة من أعمالهن فسمعهن يتحدثن عن الله، وكتب بانيان لاحقًا قائلاً: "لقد اقتربت لأستمع لما يقُلن، فلقد كنت أنا ذاتي متحدثًا نشطًا آنذاك في الأمور الدينية، ولكن في تلك اللحظة كنت

أستمع ولكنني لم أفهم شيئًا، فلقد كنَّ أعلى مني كثيرًا ولم أستطع استيعاب ما يقلن، فلقد كن يتحدثن عن الولادة الجديدة وعن عمل الله في قلوبهن. لقد كن يتحدثن كما لو أن الفرح هو ما جعلهن يتحدثن، فلقد كنَّ يتحدثن بدماثة لغة الكتاب المقدس ومظهر النعمة في كل ما قلن كما لو كن قد وجدن عالما جديدًا".

وتركهن بانيان وهو يضرب على صدره وقد تبخر افتخاره بتديُّنه. ولم يستطع أن ينسى حديث هؤلاء السيدات من فكره، فلقد كان إيمانهن وفرحهن متعارضيْن تماما مع مخاوفه وشكوكه. وشعر كما لو أنه يعاني من برودة الثلج، بينما تستدفئ سيدات بيدفورد الفقيرات تحت أشعة الشمس اللطيفة.

فعاد بانيان إلى هؤلاء السيدات مرة أخرى ليتحدث معهن فقلن له: "أنت بحاجة إلى مقابلة راعينا"، وهكذا أخذوه وعرَّفوه على راعيهن جون جيفورد. كان جيفورد رجلا شجاعًا متقدمًا في السن جنديًّا سابقًا في الحرب الأهلية الإنجليزية، فحيَّاه جيفورد بحفاوة ودعاه للدخول. وسكب بانيان ما بقلبه لجيفورد، فصلى معه الراعي المُسنّ وبدأ يعلِّمه من الكتاب المقدس عن يسوع المسيح. كان هذا الحديث أول الأحاديث الطويلة التي تمت بينهما.

بعد زمن قصير، وبينما كان بانيان يتعبد في كنيسة جيفورد، لمس الرب قلبه وقال فيما بعد عن هذا اليوم: "لقد اقتحمتني هذه الكلمات فجأة: تكفيك نعمتي، تكفيك نعمتي، تكفيك نعمتي"، وتكررت ثلاث مرات، وأعتقد أن كل كلمة كانت جبارة. ثم جاءت هذه الآية من يوحنا ٦:٣٧" ما يعطيني الآب فإليَّ يُقبِل ومن يُقبِل إليَّ لا أخرجه خارجا". فرأيت أن برِّي لا يكون أفضل بسبب قلبي الجيد ولا يكون أرادأ بسبب قلبي الرديء، لأن برِّي كان هو المسيح نفسه، الذي هو هو أمسًا واليوم وإلى الأبد.

وعاد بانيان إلى بيته كما لو كان يسير على الهواء، وقال: "أعتقد أنه بإمكاني التحدث عن محبته ورحمته، حتى للغربان التي تقف أمامي على الأرض المحروثة". وسرعان ما انتخب شعب بيدفورد بانيان ليصبح مسؤولاً عن الكنيسة،

وأرسلوه خارجًا كواعظ متجول للقرى المجاورة. وظل بانيان يكسب عيشه كسمكري، ولكنه كان يمضي الكثير من وقته في الوعظ.

في هذا الوقت أصدر الملك تشارلز الثاني قوانينَ ليجبر الجميع على العبادة بحسب توجيه كنيسة إنجلترا، بغض النظر عن الضمير. ولم يكن الملك يعترف بالوعاظ غير المرتسمين - هؤلاء الذين خارج كنيسة إنجلترا، أمثال بانيان - كخدام حقيقيين للرب. وفي ١٢ نوفمبر ١٦٦٠ م، خرج بانيان ليعظ في بيت ريفي داخل حقل من شجر الدردار، وعند دخوله إلى الكوخ، لم يحيه الناس بالفرحة التي اعتادوا أن يحيوه بها، بل بنظرات ترقب وتحذير من الخطر. فلقد تسرب إليهم خبر بأن القاضي قد أصدر مذكرة للقبض على بانيان إذا حاول أن يعظ، لذا استحثه أعضاء من شعب الكنيسة بعدم المضي قدمًا إلى هذا الاجتماع، وقال له أحد الرجال: "أخي بانيان، هل تعتقد أنه من الحكمة أن تستمر في الاجتماع؟ ربما علينا تأجيله إلى يوم آخر"؛ فأجابه بانيان بحزم: "كلا، لن يحدث هذا، لن يوقفني أحد ولن ألغي الاجتماع لهذا السبب. هلم فلنبتهج، ولا تدعنا نخاف. فالوعظ بكلمة الله عمل جيد جدًّا ولا ينبغي أن نخجل لأننا سنكافأ إذا عانينا من أجله". وامتلأ الكوخ بالناس، وبدأ بانيان بالصلاة، وبينما كان ممسكًا بالكتاب المقدس وعلى وشك البدء في العظة، اندفع ضابط الشرطة ورجاله ولوَّحوا له بمذكرة القبض؛ وأمر الضابط رجاله بالقبض على بانيان.

وبينما كانوا يبتعدون به، قال لشعبه: "من مراحم الله أن نعاني من أجل عمل الصلاح، فمن الأفضل أن نكون المُضطَهَدين عن أن نكون المُضطَهِدين". وفي اليوم التالي وقف بانيان أمام القاضي الذي سأله قائلاً: "لماذا تذهب إلى هذه الاجتماعات وتعظ؟ أنت سمكري، لماذا لا تركز في عملك؟ فقيامك بخدمات دينية غير قانوني". فأجابه بانيان: "أنا استجيب لدعوتي وأعظ بكلمة الله أيضًا، وأنظر لخدمتي وعملي، على أنهما الواجب الذي يجب أن أتممه طالما توفرت الفرصة". فقال له القاضي: "سيد بانيان، لقد قررت أن أرسلك إلى السجن إذا لم تَعِد بالتوقف عن الوعظ ودعوة الناس للاجتماع". فأجابه بانيان: "لن أتوقف عن

التكلم بكلمة الله، وسأستمر في إرشاد وتعزية وتعليم من يرغب من الناس، وأعتقد أن هذا العمل عملٌ غير مؤذٍ، بل يستحق المدح لا اللوم". فسأله القاضي: "ألا تحب زوجتك وأطفالك؟" وإذ كان قلب بانيان ينفطر عندما خطرت له فكرة ترك زوجته وأطفاله الأربعة أجاب: "نعم، وبشدة، ولكن مقارنة بيسوع المسيح، فأنا لا أحبهم على الإطلاق". فأمر القاضي أن يأخذوه إلى السجن.

وأصبح منزل بانيان الآن زنزانة انفرادية باردة، وعندما أُخِذ من بين زوجته وأولاده قال بانيان: "لقد شعرت كما لو كانوا يفصلون لحمي عن عظامي". وجُرِّب بانيان مرارًا بأن يتخلى عن الوعظ ويعود إلى بيته، ولكنه كان يقاوم وتعلق بالوعد المذكور في إرميا ١١:٤٩، "اترك أيتامك أنا أحييهم وأراملك عليَّ ليتوكّلْن". وبدأ يصنع أربطة لأحذية جلدية ليعول أسرته، وكتب أحد عشر كتابًا بما في ذلك قصة إيمانه: *نعمة غنية لأشرّ الخطاة*". وعندما أتيحت له الفرصة وعظ بانيان لعدد كبير من أعضاء كنيسة بيدفورد، الذين تجمعوا في سجنه.

وبعد اثني عشر عامًا، خُفِّفَت القوانين الصادرة ضد الوعاظ غير المرتسمين، وأُطلق سراح بانيان، وألقى بنفسه في الوعظ والكتابة وتنظيم الكنائس الجديدة. ولكن بعد ثلاث سنوات، أبطل الملك رخصة الوعظ التي منحها لبانيان وغيره من الخدام غير المرتسمين، ورفض جون بانيان التوقف عن الوعظ وأُلقِي في السجن لستة أشهر أُخَر. وفي هذه الأثناء كتب كتاب "*سياحة المسيحي*" وهي قصة رمزية عن الأفراح والأحزان والمعارك والانتصارات في الحياة المسيحية. وعندما بلغ التاسعة والخمسين أصيب بانيان بحمى شديدة، وفي فراش الموت أخذ يشجع أصدقاءه بكلمات قليلة، ولكن مؤثرة، من هذه الكلمات قال عن الصلاة: "من الأفضل عندما تصلي أن يكون قلبك بلا كلمات عن أن تكون كلماتك بلا قلب".

وربما كان دخول جون بانيان إلى السموات مثلما وصف في كتاب *"سياحة المسيحي"* عن المسيحي والراجي عند أبواب المدينة السماوية: "وعند دخولهما تغيرت هيئتهما، وكانا يرتديان ملابس تلمع كالذهب، ورنت كل أجراس المدينة مرة أخرى من الفرح وقيل لهما: ادخلا إلى فرح سيدكما".

من يتمتع بالشجاعة فليأتِ إلى هنا
فالمرء هنا سيظل ثابتا. فلتأتِ الرياح أو يتغير الجو
فلا توجد معوقات تجعله يلين
فنيَّته الأولى المعلنة هي أن يصبح سائحًا.
...

جوناثان إدواردز

لاهوتي النهضة العظيمة

جوناثان إدواردز ١٧٠٣ م – ١٧٥٨ م

في منتصـــف إحدى الليالي فُتحت نافذة في الطابق الثاني وخرج منها رأس رجل أخذ يصرخ قائلاً: "ألا تعلمون كم هي الساعة الآن أيها الحمقى؟ عودوا إلى منازلكم وناموا!" فرد عليه قائد فرقة الشباب والشابات صائحا: "عِمتَ مساءً يا سيدي، لماذا لا تأتي لتنضم إلينا في سهرتنا؟" وانفجرت منهم ضحكات صاخبة، بينما كانوا يتناوبون بينهم زجاجة المُسكر. فعاد الرجل للصياح قائلاً: "لقد خرجتم عن نطاق السيطرة أيها الشباب وتحتاجون إلى مخافة الرب في قلوبكم". فرد عليه قائدهم قائلاً: "إن كان القس إدواردز يعجز عن تغييرنا، فبالتأكيد ســـتعجز أنت أيضًا، هلم أيها الرجل العجوز إنها ليلة الجمعة، بإمكانك أن تستمتع يوم السبت أما نحن فسنمرح الليلة". وتوجهوا إلى الحانة وهم ينشدون الأغاني، ولم يعُد أحدٌ منهم إلى منزله إلا مع شروق الشمس، حيث عادوا مترنحين.

لقد شهد صيف ١٧٣٣ م، الكثير من حفلات الخمر والسكر بين الشباب في نورثامبتون بماساشوستس، إذ عاش هؤلاء الشباب من أجل إشباع مرحهم في حفلات السكر والطواف الليلي، وشعر آباؤهم وشيوخ الكنيسة بالقلق عليهم، ولكن ليس مثل جوناثان إدواردز، الشـــاب البالغ من العمر ٢٩ عاما والذي كان راعيا لكنيسة نورثامبتون؛ فقد اشتاق جوناثان إدواردز أن يتذوق شباب نورثامبتون ما قد اختبره في السادسة عشرة من عمره، عندما قرأ تيموثاوس الأولى: "وَمَلِكُ الدُّهُورِ الَّذِي لاَ يَفْنَى وَلاَ يُرَى، الإِلَهُ الْحَكِيمُ وَحْدَهُ، لَهُ الْكَرَامَةُ وَالْمَجْدُ إلى دَهْرِ الدُّهُورِ. آمِينَ"، إذ فجأة ملأ قلبه شـــعور بالفرحة بالرب وقال: "عندما قرأت تلك الكلمات، غمر روحي شعور بمجد الله وفكرت في مقدار السعادة التي لا بد وأن أشعر بها عندما أستمتع بالله وأعيش معه في السماوات".

وظل إدواردز يخدم في كنيسة نورثامبتون لست سنوات، ولكن عمله هناك كان مُحبِطًا بسبب قساوة القلوب. وبدا المراهقون والبالغون في غاية البعد عن الله. لقد كان إدواردز يعرف أنه على المؤمن الحقيقي أن يولد ولادة ثانية بإيمان حيّ وبقلب جديد. وفي أوائل عام ١٧٣٤ م، ألقى إدواردز سلسلة من العظات عن الإيمان، وبدأ الشباب البالغون في الانتباه إلى هذه العظات، وبدأوا يمكثون بعد الاجتماع ليناقشوا العظات.

وفي يوم من الأيام جاءته شابة، كانت واحدة من أكثر فتيات المدينة تمردًا، وطرقت على بابه، واندهش بسرور ورحب بها ودعاها لتدخل إلى مكتبته، وقالت له: "أيها الراعي، لقد سحقتني أثقال خطاياي في الأيام الماضية وعندما اعتقدت بأنه لا يوجد أمل، هدأ الرب قلبي ورفعني". وبينما هما يتحدثان سويًا، تأكد إدواردز بأن المسيح قد لمسها، وقال لها: "أنا أومن أن الرب قد أعطاكِ قلبًا جديدًا". وتغيرت حياتها في الحال، وتحوّلت أنانيتها إلى محبة، ولم تفتها خدمة أو اجتماع صلاة. وقال إدواردز: "إنَّ خبر تغير هذه الشابة كان بمثابة ومضة بَرْق لقلوب الشباب في جميع أنحاء المدينة".

واندفع الشبان والشابات، ومن بينهم أشر خطاة نورثامبتون، مسرعين للتحدث إليها، وأولئك الذين كانوا يسخرون من القس إدواردز ويثيرون الشغب في خدماته، يتمسكون الآن بكل كلمة في عظاته، وسرعان ما شعر جميع شعب المدينة، بجميع أعمارهم، أن خطاياهم قد أثقلتهم، فأخذوا يصرخون ليسوع طالبين المغفرة، ولم يكن هناك من يتحدث عن شيء سوى عن أمور الله.

وفي المدينة كان الجيران يجتمعون ليلاً للصلاة وقراءة الكتاب، فقال إدواردز: "لم يكن هناك وقت مملوء بمثل هذه البهجة والمحبة. لقد كان هذا الوقت وقت فرح للعائلات، وذلك بسبب خلاص الرب. وفرح الآباء بأبنائهم لولادتهم الثانية، والأزواج بزوجاتهم والزوجات بأزواجهن". وفي غضون ستة أشهر، وجد أكثر من ثلاثمائة شخص المغفرة في يسوع المسيح، وامتدت النهضة إلى عدة

مدن أخرى في ماســاشــوســتس وكونيكتيكت، وقد كان هذا هو فجر النهضــة العظيمة.

لكن كثيرين في نيوإنجلاند كانوا يقاومون هذه النهضـــة بشـــدة، فلقد أدانها بعض الرعـاة من على منـابرهم، وكـان الانتقـاد أن جونـاثـان إدواردز يحرك المشـــاعر. وقال المنتقدون: "إن هذا العمل في الحقيقة ليس من الله". لكن الرعاة المؤيدين لإدواردز في إنجلترا وأمريكا، مثل إسـحق واتس كاتب الترانيم المشـهور، اســتحث إدواردز لكتابة تقرير عن تلك النهضـــة، ونفذ إدواردز مطلبه. وفي عام ١٧٣٧ م كانت "*القصـة الحقيقية عن عمل الله العجيب*" تُقرأ بشـغف على جانبي الأطلنطي، وألهمت هذه القصة جورج هوايتفيلد وجون ويسلي وآخرين.

وبمرور الوقت انطفأت نار النهضـــة، ولكن عندما حضـــر جورج هوايتفيلد، الواعظ الإنجليزي، في أكتوبر ١٧٤٠ م، بدأت النهضـــة في الاشـتعال مرة أخرى وانتشـرت حتى وصـلت إلى المسـتعمرات الأمريكية، وانسـحقت أرواح عشـرات الآلاف وأقبلوا ببكاء إلى المسيح من خلال عظاته.

ولم يمضِ وقت طويل على وصـــول هوايتفيلد إلى أمريكا، حتى أرســـل له إدواردز بخطـاب كتب فيـه: "خلال رحلتك إلى نيوإنجلاند، ألا ترغب في زيـارة نورثامبتون؟ فبركات الســماء تلازمك أينما تذهب، وكم أتمنى إذا كانت إرادة الله، أن تحل هذه البركة على هذه المدينة. أرجوك أن تحضـــر وتســـدي لي معروفا بالإقامة في منزلي".

وقَبِل هوايتفيلد الدعوة بل واستمتع بها بشدة. ولقد تأثر بشدة بعلاقة المحبة القوية بين جوناثان وزوجته ســـارة حتى أشـــعلت رغبة الزواج بداخله. وكتب هوايتفيلد عن عائلة إدواردز في جريدته: "لم أر مثل هذا الثنائي الرائع".

بزيارة هوايتفيلد، فاضـت كنيسـة نورثامبتون بالشـعب الذي احتشـد للاسـتماع لهوايتفيلد الشـهير، فلقد وعظ عن المسـيح بقوة وعاطفة، حتى أنه في ختام العظة كان الجميع يبكون بمن فيهم إدواردز، وهكذا اشتعلت النهضة مرة أخرى واستمرت إلى ما يقرب من عامين.

في أثناء النهضـــة، كان إدواردز يعظ في كنائس أخرى في نيوإنجلاند، وفي أحد أيام الآحاد صباحًا، وبالتحديد يوم ٨ يوليو ١٧٤١ م، وقف على منبر كنيسة إنفيلد، كونيكتكوت، وكانت إنفيلد قد أُهملت أثناء شـــهور النهضـــة، وتعلقت كل الأعين بجوناثان إدواردز وهو يصـــعد درجات المنبر، وبدا بطوله الذي يزيد عن ١٨٠سم يفوق طول كل الحاضرين وقال: "استمعوا إلى كلمة الله". ثم بدأ يقرأ من تثنية ٣٢:٣٥ "لِيَ النَّقْمَةُ وَالجَزَاءُ. فِي وَقْتٍ تَزِلُّ أَقْدَامُهُمْ. إِنَّ يَوْمَ هَلاَكِهِمْ قَرِيبٌ وَالمُهَيَّآتُ لهُمْ مُسْـــرِعَةٌ". ثم وضـــع كتابه المقدس جانبًا والتقط ورقة الملاحظات لعظته وبدأ يقول: "في هذه الآية يحذرنا الله من الهلاك المفاجئ الذي قد يصـيب الأشرار، فلا يوجد ما يحمي الأشرار من الجحيم في أي وقت إلا رضـا الله. أيها الخطاة، تذكَّروا الخطر الرهيب الذي أنتم فيه، لقد أذنبتم إلى الله، ولا يوجد ما يستطيع أن يحميكم من السقوط في نار الجحيم غير يده ، وهذا ينطبق على كل من ليس في المسيح بينكم".

فما كان من الرجال والنســـاء إلا أن تنهدوا وبكوا مقرّين بخطاياهم عند ســماعهم لهذه الكلمات. وصـــرخ البعض متســائلاً: "أنا ذاهب إلى الجحيم! ماذا يمكنني أن أفعل لكي أخلص؟" فهدَّأ إدواردز من روعهم وقال: "لديكم الآن فرصـة غير عادية، فاليوم يفتح لكم الرب أبواب الرحمة ويقف مناديًا الخطاة المســاكين. فالكثيرون يسـرعون إليه وقلوبهم ممتلئة بمحبة من أحبهم وغسـلهم بدماه. كل من هو ليس في المسيح، ليستيقظ الآن ويهرب من الغضب الآتي".

ومع انتهاء عظته ذاب الكثيرون من البكاء وارتعد بعضـــهم خوفًا. واســتمر إدواردز لفترة طويلة يتحدث ويصـلي مع النفوس المضـطربة، وبعد إنهاء مهمته، كان الكثيرون منهم قد اطمأنت قلوبهم وآمنوا بالمســـيح. ولقد اســـتخدم الله هذه العظـة وعنوانها " *الخطاة في يد إله غاضـــبٍ*" لتغيير إنفيلد، ولتأثيرها القوي أصبحت أكثر العظات شهرة في أمريكا.

وظل إدواردز يخدم شـعب كنيسـته لأعوام، وربَّى أسـرة كبيرة، وكتب الكثير من الكتب. وكان الرعاة والعلمانيون في أمريكا وأوروبا يعجبون بكتاباته اللاهوتية،

ولكن المشـــاكل كانت تُعَد له في نورثامبتون، فلقد كان هناك رجال ونســـاء لا يحبونه ولا يحبون عظاته. وتفجرت المشـكلة عام ١٧٤٩ م، حول عشـاء الرب، فلعدة سـنوات كانت كنيسـة نورثامبتون تسـمح للناس بتناول الخبز والخمر، حتى وإن لم يكن لهم إيمان شخصي بيسوع المسيح، وقد كان إدواردز يؤمن بأن التناول من مائدة الرب لا يسـتحقه سـوى من أعلن صـراحة عن إيمانه المخلِّص بيسـوع المسيح. وعندما اتخذ إدواردز خطوات لتغيير سياسـة الكنيسـة نحو عشاء الرب، اتهمه أعداؤه بأنه يصـــدر الأحكام على الناس، وبأنه مثير للانشـقاق، وبدأوا في نشـر الأكاذيب عنه. وأخيرًا صـوَّت شـعب كنيسـته لعزله، بعد أن خدم في هذه الكنيســـة لثلاثة وعشـــرين عامًا كخادم مكرس. والآن يُقرأ في ســـجل كنيســـة نورثامبتون ما يلي: "في ٢٢ يونيو ١٧٥٠ م، تم فصل القس جوناثان إدواردز".

وفي عظة الوداع لم ينتقد ولم يُلق باللوم على أحد، ولكنه اســـتحثهم برقة ليعيشـــوا للرب، وأنهى عظتـه بهـدوء قـائلاً: "وأخيرًا يـا إخوتي أودعكم، فكونوا كاملين، متحدي الفكر، عيشـــوا في ســـلام، ولتكن محبة الله وســـلامه معكم، وليباركم الله براعٍ أمين، واذكروني في صـــلواتكم، ولا تنســـوا اجتماعنا المرتقب المهيـب في يوم الرب العظيم". وفي ذلـك الأحـد، عـاد الكثيرون إلى منـازلهم حزانى، متمنين لو لم يكونوا قد صوَّتوا لفصل راعيهم.

وأصبح إدواردز مُرسلا لهنود هوساتونيك بستوكبريدج، التي كانت مستعمرة صـغيرة على حافة غابات ماسـاشـوسـتس. وظل يعمل لسـبعة أعوام بين الهنود الحمر وكتب في تلك السنوات العديد من الكتب. ودعته فيما بعد كلية نيوجيرسي (برنسـتون لاحقًا) ليكون عميدًا لها، ولكنه مات إثر إصـابته بمرض الجدري بعد وصـوله إلى هناك بشـهرين. وبينما كان على فراش الموت التفت إلى ابنته لوسـي وقال لها: "وبالنسبة لأولادي ستُتركون الآن بلا أب، الأمر الذي أتمنى أن يحثكم على البحث عن الأب الذي لن يخذلكم".

وكتب طبيبه للسيدة إدواردز بأن زوجها واجه الموت باستسـلام هادئ بهيج صـابر للإرادة الإلهية. وأضـاف: "فالبنسـبة لزوجك فقدْ فقدَ الموتُ شـوكته بكل

تـأكيـد". وبـالرغم من معـانـاة إدواردز من آلام رهيبـة وتوَرُّمـات مزعجـة في حلقـه، منعته من القدرة على البلع، إلا أنه احتمل ذلك بسلام وفرح. وبعدما أرسل رسائل المحبة لأسرته وأصدقائه، نظر حوله في الغرفة وقال: "والآن أين يسوع الناصري، صديقي المخلص الذي لم يخذلني أبدًا؟"

...

جورج هوايتفيلد

واعظ النهضة العظيمة

جورج هوايتفيلد ١٧١٤ م – ١٧٧٠ م

في أواخر أيام شـتاء ١٧٣٤ م، كان هناك مدرس جامعي يقود شـخصًـا حاملاً حقيبة سوداء، حتى دخل به إلى غرفة صغيرة في الطابق الثالث، وقال له المدرس: "إن جسـده يفنى هباءً أيها الطبيب". وفتح باب الغرفة بهدوء وهمس قائلاً: "أخشـى أن يكون قد أصـيب بالجنون". وكان ملقى هناك جورج هوايتفيلد البالغ الواحد والعشـرين عاما من عمره، طالبًا بجامعة أكسـفورد، وكان يجاهد لالتقاط أنفاسه ووجهه شاحب، وكانت إحدى يديه ملوَّنة ببقعة سوداء كبيرة ناتجة عن لسعة الجليد، وكانت عيناه غائرتين محمرَّتين وجسده الهزيل مبلل بالعرق.

فقال له الطبيب: "أيها الشـاب، لقد دمرت صـحتك، فيبدو أنك لم تأكل منذ أسـابيع. كيف وصـلت إلى هذا الحال؟" فشرح له هوايتفيلد بصـوت مرتعش كيف سـعى لإنقاذ روحه من خلال إنكاره لذاته، وشـجعه على هذا "النادي المقدس"، وهو جمعية دينية بأكسـفورد يقودها جون ويسـلي وتشـارلز ويسـلي. اتبع أعضـاء هذا النادي نظامًا صـارمًا للصـلاة والصـوم، وسـرعان ما تفوق هوايتفيلد على أصدقائه في إنكاره لذاته، فكان يرتدي ثيابًا رثة وكان يمضـي ساعات عديدة كل صـباح في الصـلاة خارج المنزل في جو من التجمد، وكان يقتات على قطع صغيرة من الخبز الخشن والشاي المرمري. وسخر منه أقرانه وأطلقوا عليه "الرجل المجنون" وكانوا يلقون بكتل الطين عليه. وهدده مدير الكلية بالفصـل، وحتى أعضـاء النادي المقدس قالوا له بأنه قد تمادى في الأمر كثيرًا. وبالرغم من كل هذا، ظل يعاني من الشعور بالذنب على خطاياه، ولم يشعر بأنه يقترب من الله.

وقال هوايتفيلد للطبيب: "لقد شـعرت هذا الصـباح بضـعف شـديد حتى إنني صـعدت درجات السـلم إلى غرفتي بصـعوبة. فأمره الطبيب بحزم قائلاً: "سـيد هوايتفيلد، عليَّ أن ألزمك بملازمة الفراش، فإذا لم يحصـل جسـدك على تغذية كافية وراحة فإنك سـتلقى حتفك". وظل هوايتفيلد لأسـابيع في سـريره يحاول أن

يستعيد قوَّته ولكنه كان يشعر بالإحباط، وملأه الشك بأن خطاياه لن تُغفر أبدًا. ولكنه حينئذ عثر على كتاب يسمى "*حياة الله في روح الإنسان*". وغيَّر هذا الكتاب أفكاره عن الله وغفران الخطايا رأسًا على عقب، فلقد كان هوايتفيلد يؤمن بأن الإنسان ينال رضا الله من خلال أعماله الصالحة، ولكن بعد قراءة هذا الكتاب قال: "لقد أراني الله بأنه عليَّ أَن أُولَدَ ثانيةً وإلا سأُدان ! وعرفتُ أن الشخص قد يذهب إلى الكنيسة ويصلي ويتناول من مائدة الرب، إلا إنه يظل غير مؤمن". وبينما كان الكتاب لا يزال في يده، وقع هوايتفيلد على ركبتيه وصلى قائلاً: "يارب إذا كنت أنا غير مؤمنٍ أو إذا كنت مؤمنًا غير حقيقي، عرِّفني كيف تكون المسيحية حتى لا أُدان في النهاية".

ولم تمضِ أيام كثيرة حتى أدرك أنه لا يستطيع فعل شيء لينال الخلاص، وأنه لا يوجد غير رحمة الله التي تستطيع أن تخلصه، وأصبح واثقًا من غفران المسيح لخطاياه. وعبَّر عن مشاعره قائلاً: "غمرني فرح لا يمكن وصفه عندما زال عني ثقل خطاياي، وعندما دخلت محبة الله الغافرة إلى روحي المضطربة. وقد كانت أفراحي مثل تيار جارف فاض على الضفاف، وشعرت أن المسيح يعيش فيّ وأنا فيه".

وأصبحت دراسة الكتاب هي هوايته ولذته وقال: "بدأت أقرأ الكتاب المقدس وأنا على ركبتيَّ وأصلي على كل كلمة وسطر، فلقد كان هذا هو الطعام والشراب الحقيقيَيْن لروحي، ولقد حصلت على المعرفة الحقيقية من خلال قراءة كلمة الله في شهر واحد، أكثر من المعرفة التي حصلت عليها من كل كتابات البشر". وعندما استعاد صحته كرَّس عدة ساعات كل يوم لزيارة المسجونين والفقراء والمسنين، وبكلمات بسيطة عرَّفهم عن محبة الله للخطاة؛ فآمن الكثيرون بيسوع المسيح. وعندما أتم هوايتفيلد دراسته الجامعية أصبح خادمًا في كنيسة إنجلترا.

وبارك الرب عمله منذ البداية، والكنائس التي ظلت لسنوات خاوية، أصبحت تموج بالناس أينما وعظ في إنجلترا. وفي بعض الأوقات لم يكن بمقدور الناس أن يجدوا مكانا من كثرة العدد. وقال هوايتفيلد: "لقد كان مدهشًا أن ترى الناس

متسلقة درابزين شرفة الأرغون العليا، وقد تسلقوا واجهات الكنيسة مما جعل جو الكنيسة حارًا، حتى أن بخار الماء الصادر عن التنفس قد يتساقط مثل المطر من أعمدة الكنيسة، وكنت أشق طريقي بينهم بصعوبة لأصل إلى المنبر.

لقد رجع الآلاف ليسوع المسيح لغفران خطاياهم، واصطف الشغوفون بطلب الغفران، من الصباح إلى منتصف الليل للتحدث معه. وكانت عظاته المطبوعة تُباع مباشرة بعد طباعتها. وتشكلت مجموعات دراسة الكتاب المقدس في المدن والقرى أينما وعظ. لم تشهد إنجلترا مثل هذه الأيام قبلاً.

ولكن لم يكن الجميع سعداء بخدمة هوايتفيلد، فقد شعر قادة الكنيسة بالغيرة من شعبيته، وأطلقوا عليه "مثير الرعاع"، وتذمر الرعاة لأن أعضاء الكنيسة لا يستطيعون إيجاد مكان عندما يعظ هوايتفيلد، وأغلق الكثير من الرعاة كنائسهم في وجهه.

وعندما بدأ هوايتفيلد يواجه صعوبات في إيجاد كنيسة تُفتَح له، قرر بأن يعظ في الهواء الطلق، وكانت فكرته في غاية الجُرأة، لأن قادة الكنائس اعتبروها فكرة غير مناسبة بل وأيضا خطية، إيمانًا منهم بأن الوعظ في الميادين قد يثير الجموع ويقودهم للتصرف الجامح. وبالوعظ في الهواء الطلق، خاطر هوايتفيلد بمواجهة حكام كنيسة إنجلترا، ولكنه كان قد عقد العزم على الوعظ بكلمة الله مهما كانت التَبِعات؛ فبدأ بالوعظ في الهواء الطلق في كينجزوود، وقد كانت مقاطعة منجم فحم كبيرة بالقرب من بريستول، فلقد أراد أن يعظ هناك منذ أن أخبره أحدهم قائلاً: "لست بحاجة للذهاب إلى أمريكا لتعظ الوثنيين، فهناك الكثيرون منهم في كينجزوود". ولقد كانت كينجزوود موطنًا لآلاف من عمال المناجم، الرجال والنساء والأطفال، الذين كانوا يعملون في ظلمة وخطر المناجم، فلقد عاشوا في جهل وفقر. وتحاشى الأغراب كينجزوود وذلك خوفا على حياتهم لأنها مكان العنف، ولم تُبنَ فيها كنيسة أو مدرسة، ولم يكن المجتمع الإنجليزي يبالي بعمال المناجم. ولكن هوايتفيلد كان يفكر بشكل مختلف فقال: "إن قلبي يتمزق من أجل عمال المناجم المساكين، فهم مثل الخراف التي بلا راعٍ".

وفي أحد الأيام شـــديدة البرودة من شـــهر فبراير، وكان يوم ســـبت، دخل هوايتفيلد في الممرات الضـــيقة لكينجزوود، وفغر عمال المناجم أفواههم عندما وجدوا بينهم خادمًا متعلمًا حســـن المظهر واقفًا بينهم يقول: "طاب يومكم"، ويمد يده إلى أحدهم ليصـــافحه، فإذا بالرجل الذي كان مغطى من قمة رأســـه إلى أخمص قدميه بتراب الفحم، يرفع يده بتردد ويصـافح هوايتفيلد، تاركًا طبقة سـوداء من غبار الفحم على يد هوايتفيلد. فابتسم هوايتفيلد وقال: "سأعظ في الثانية اليوم على التل في روزجرين، ويشرفني أن أراكم بين الحاضرين".

ونشر الكلمة في الشوارع، وطرق الأبواب، ووقف عند مداخل المناجم، داعيًا الجميع للحضـــور. وبحلول الســـاعة الثانية، كان هناك أكثر من مئتي عامل منتظرين أمام الرابية العشـبية، حيث اتخذ هوايتفيلد منصـته. لقد شـكلت كلماته سـحبًا كثيفة رمادية اللون في الهواء البارد، عندما بدأ يعظ قائلا: "أيها الأصـدقاء، منذ زمن بعيد وقف الرب على منحدر تل، يشـبه هذا التل الذي نقف عليه الآن، وبين جموع تشـــبه هذه الجموع وعلَّمهم قائلاً: "طُوبَى لِلْمَسَـــاكِينِ بِالرُّوحِ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَات" (متى٥:٣).

ولقد أذابت هذه الرسالة قلوب الكثيرين، ولأول مرة أدركوا أن المسيح أحبهم، وشعروا بأن هوايتفيلد يكن لهم محبة صادقة. وتركهم هوايتفيلد وقد غمرته الفرحة، واعدًا إياهم بالعودة خلال أيام قليلة، وقال: "مبارك الله، أنا أومن بأنني لم أكن يومًا مقبولاً أمام الســـيد مثلما كنت واقفًا لأعلّم هؤلاء المســـتمعين في الميدان المفتوح. قد ينتقدني البعض، ولكن إذا حاولت إرضـــاء البشـــر لن أكون خادمًا للمسيح".

وفي مســـاء أحد أيام الأربعاء، وقف مرة أخرى على التل في كينجزوود وقد غمرته أشـــعة الشـــمس هذه المرة، واجتمع ما يقرب من ألفي عامل منتظرين في صـمت تام. وأعلن لهم هوايتفيلد بصـوت قوي، اسـتطاع الجميع سـماعه بسـهولة قائلاً: "الحق أقول لكم، لن يســـتطيع أحد أن يرى ملكوت الله، إلا إذا وُلد ثانية". وظل لسـاعات يعظ عن محبة المسـيح وعن عجائب موته على الصـليب، وقال:

"وبعد كل هذا هل تعتقدون بأن الله سيُبعد أي خاطئ يأتي إليه؟ لا! اطرحوا عنكم مثل هذه الأفكار المخزية واتركوا خطاياكم التي جاء يسوع ليموت عنها، واسمعوه يقول: "إِنْ كَانَتْ خَطَايَاكُمْ كَالْقِرْمِزِ تَبْيَضُّ كَالثَّلْجِ. إِنْ كَانَتْ حَمْرَاءَ كَالدُّودِيِّ تَصِيرُ كَالصُّوفِ".

وبانتهاء العظة كان المئات من عمال المناجم يبكون، وأصبحت وجنتاهم السوداء المغطاة بالفحم مخططة بالأبيض من دموعهم، وظل العمال يحضرون للأسابيع التالية، ليستمعوا إلى هوايتفيلد وهو يعظ في كينجزوود. وآمن الكثيرون بيسوع المسيح، وحولت قوة الله هذا المجتمع بشكل عجيب، واختفى السُكْر والمقامرة والعنف. وبدأت اجتماعات الصلاة في الانعقاد في كل الأحياء، وتم تأسيس مدرسة.

كان هوايتفيلد يعظ في الخلاء في كل بريطانيا وأمريكا، مشعلاً نار نهضة عظيمة في الإيمان بالمسيح، وشجع خدام آخرين للوعظ في الميادين، بمن فيهم صديقاه القديمان تشارلز ويسلي وجون ويسلي، اللذان قاما بدورهما بإرشاد الآلاف إلى المسيح. وقبل موته عن عمر يناهز الخامسة والخمسين، كان هوايتفيلد قد وعظ أكثر من ثمانية عشر ألف عظة، لآلاف من المستمعين في إنجلترا واسكتلندا وويلز وأمريكا. ولا عجب في أن يُطلَق على جورج هوايتفيلد، أعظم مبشر منذ أيام بولس الرسول.

...

جون ويسلي

العالم كله أبرشيته

جون ويسلي ١٧٠٣ م – ١٧٩١ م

في ديسمبر ١٧٣٧ م، وبعد فشل جون ويسلي الشديد كخادم في جورجيا، وقف على ظهر السفينة المبحرة من شاطئ كارولينا إلى إنجلترا وقال: "لقد ذهبت إلى أمريكا ليتجدد الهنود الحمر ولكن آه! من سيجددني أنا؟ من سيخلصني من قلبي غير المؤمن؟" وظل ويسلي لعدة سنوات يحاول الحصول على رضا الله، من خلال إنكاره لذاته والالتزام بالقوانين الدينية. وشكّل هو وأخوه تشارلز ويسلي مجموعة دينية بجامعة أكسفورد، أطلق عليها "النادي المقدس". وبالرغم من دراسة هذه المجموعة الدينية للكتاب المقدس وصلاتهم وصيامهم وإعطاء الأموال للفقراء ورعايتهم للمرضى، إلا أن تدريباتهم الصارمة وأعمالهم الصالحة لم تعمل على منحهم السلام.

لقد أبحر جون وتشارلز ويسلي إلى برّية المستعمرات الأمريكية ليعظا، ولكن كثيرا ما كان جون ويسلي يسأل نفسه إذا ما كان هو شخصيا قد عرف الله. وبينما كان على ظهر السفينة، قابل بعض المرسلين المورافيانيين والذين كانوا من مسيحيي ألمانيا، الذين أيقنوا أنه لا يستطيع أحد أن يخلِّص نفسه بأعماله الصالحة. وعندما رأى جون ويسلي إيمان المورافيانيين، الذي لم يستطع أن يراه في نفسه، سأل أحدهم قائلاً: "هل لديك نصيحة يمكن بها أن تعرِّفني كيف يجب أن أخدم الله في أمريكا؟" فأجابه المورافياني بلهجة ألمانية غليظة: "أخي، عليَّ أن أسألك أولا سؤالين وهما: هل يشهد روح الله لروحك بأنك ابن لله؟ فنظر جون ويسلي في عينيه نظرة طويلة ولم يقل شيئًا. فعاد الرجل ليسأله: "هل تعرف يسوع المسيح؟" فأجابه جون ويسلي: "أنا أعرف إنه مخلص العالم". فأومأ المورافياني برأسه وقال: "هذا صحيح، ولكن هل تعرف أنه خلصك؟" فأجاب ويسلي بصوت خافت: "أنا أرجو أنه مات ليخلصني". فعاد المورافياني ليسأله: "ولكن هل

اختبرت ذلك بنفسك؟" فتوقف ويسلي للحظات ثم أجاب مترددًا: "نعم"، ولكنه كان يخشى أن تكون إجابته غير صحيحة.

وبعد مضـــي ســـنتين محبطتين في أمريكا، قرر جون ويســـلي العودة إلى إنجلترا، ولكن خلال هذا الوقت العصـــيب، فهم ويســـلي حالة قلبه الحقيقية أمام الله. وعندما كان مبحرًا إلى وطنه، كتب في صحيفته: "وهذا ما تعلمته في أقصى الأرض–أن قلبي كله شـــرير، ولا يوجد بي ما يُسِـــرُّ الله، ورجائي الوحيد أني إذا بحثت عن المســـيح ســـأجده وأوجد فيه، وليس لي بري الخاص بل بر الله الذي يأتي بالإيمان".

وقابله أخوه تشـارلز في لندن بعدما غادر أمريكا ببضـعة أشـهر، وبحث كل من جون وتشـــارلز عن الراعي المورافياني بيتر بويلير، الذي كان يزور لندن، وسـأل بويلير تشـارلز قائلا: "هل ترجو أن تخلص؟" فأجابه تشـارلز: "نعم". وعاد ليسـأله: "ولأي سـبب ترجو ذلك؟" فأجاب: "لأنني قد بذلت قصـارى جهدي لأخدم الله"؛ فهز بويلير رأسـه وبدأ جون يتحدث عن الأعمال الصـالحة كطريق إلى الله، ولكن بويلير قاطعه قائلاً: "أخي، يا أخي، لا بد وأن تتخلص من أفكارك هذه". فسـأله ويسـلي: "هل عليَّ أن أتوقف عن الوعظ؟ وكيف يمكن أن أعظ الآخرين، وأنا نفسي غير مؤمن؟" فأجابه بويلير: "بالطبع لا". فسأله جون: "ولكن بمَ أعظ؟" فأجابه بويلير: "عظ عن الإيمان حتى تناله، ثم بعد أن تؤمن ستعظ عن الإيمان". وبعد مرور عدة أسابيع، حصل تشارلز على الإيمان الحي في يسوع المسيح، بعد قراءة تفسير مارتن لوثر لرسالة غلاطية. فقال: "لقد وجدت الآن السلام مع الله، ورأيت أنني بالإيمان وحده خلصت".

وبعد ثلاثة أيام حضـر جون اجتماع دراسـة الكتاب المقدس، في منزل أحد المورافيانين، وقال جون ويسلي: "في المساء ذهبت على مضض إلى اجتماع في شارع ألديرسجات، وبدأ أحدهم يقرأ من مقدمة لوثر لرسالة بولس إلى أهل رومية، وفي الساعة التاسعة إلا ربع، وبينما كان يصف التغيير الذي يحدثه الله في القلب من خلال الإيمان بالمسيح، شعرت بدفء غريب في قلبي، وشعرت بأنني آمنت

بالمســـيح بالفعل، والمســـيح وحده منحني الخلاص، وتأكدت بأنه قد حمل عني خطاياي وخلصـني من ناموس الخطية والموت". وأسـرع جون ويسـلي وأصـدقاؤه ليخبروا تشـــارلز ويســـلي، واندفعوا إلى غرفته وأعلن جون: "أنا أومن!" وفرحوا جميعًا وصلوا ورتلوا الترنيمة التي كان تشارلز قد كتبها منذ أيام قليلة مضت.

ووعظ كل من جون وتشـــارلز بقوة جديدة، ولكن رعاة لندن اســـتاؤوا من حماســتهم ورســالتهم فأغلقوا كنائســهم في وجوههم، لذا بدأوا يعظون في المنازل والسـجون والمستشـفيات، داعين الجميع ليقبلوا إلى يسـوع المسـيح بالإيمان. وفي ذات الوقت كان صـــديقهم جورج هوايتفيلد يعظ لجماهير غفيرة في الهواء الطلق. واســـتحث هوايتفيلد جون ويســـلي على الوعظ في الخلاء حتى لا يعوقه قادة الكنائس. ولقد أراد هوايتفيلد، الذي عقد العزم على ترك لندن متجهًا إلى أمريكا، أن يتولى ويســلي مســئولية الوعظ الذي بدأه في كينجزوود، فوافق ويســلي وأتى ليشـــاهد هوايتفيلد وهو يعظ هناك وقال ويســـلي: "في البداءة جاهدت لأقبل هذه الطريقـة الغريبـة من الوعظ في الخلاء، لأنني كنت مؤمنـا بـأن خلاص النفوس خارج الكنائس يشكل خطية".

وفي اليوم التالي، غادر هوايتفيلد وبدأ ويسلي يعظ في الهواء الطلق، ووقف متوترًا على تل صـغير، وبدأ يعظ إلى ثلاثة آلاف نفس، وأقبل الكثيرون منهم إلى يسـوع المسـيح لغفران خطاياهم، وقال أحد الرجال عن ويسـلي: "بمجرد أن صـعد على المنصـة، مرر يده على رأسـه وحوَّل وجهه إلى المكان الذي كنت أقف فيه، واعتقدت بأنه ثبَّت عينيه عليَّ، وعندما تحدث اعتقدت أن كل رسالته كانت عني، وعندما انتهى قلت: " هذا الرجل يستطيع أن يخبر بأسرار قلبي".

وسافر ويسلي في كل أنحاء إنجلترا، وتحدث إلى أعداد أكبر من الجماهير، ووصـف ويسلي ردود أفعالهم في صـحيفته قائلاً: "كثيرون من الذين سمعوا، بدأوا يدعون الله بصـــرخات عالية ودموع غزيرة، والبعض انهاروا ولم تبقَ فيهم قوة". وبدأ قادة المدن يخافون من تجمع الحشـــود، وامتعض قادة الكنائس من التركيز على الإيمان الشخصي بيسوع المسيح.

وعندما كان ويســلي يعظ في أحد الأيام بالقرب من مدينة باث، أوقفه رجل رفيع المستوى وسأله: "بأي سلطان تفعل هذا؟" فأجابه ويسلي: "بسلطان يسوع المســـيح". فقال له الرجل وقد احمرّ وجهه: "ولكن هذا الاجتماع غير قانوني". فأجابه ويسلي: "إن الاجتماعات غير القانونية، هي تلك التي تثير الشغب وليس هذا الاجتماع". فرد عليه الرجل قائلاً: "ولكنني أقول بأنه غير قانوني، كما أن عظاتك تثير ذعر الناس، وأريد أن أعرف لماذا حضـــر هؤلاء الناس إلى هنا؟" فتقدمت من بين الجمع امرأة عجوز، وردت عليه قائلة: "فلتعتنِ أنت بجسدك، أما نحن فنعتني بأرواحنا، فلقد أتينا إلى هنا لنحصـــل على غذاء لأرواحنا". فوقف الرجل صامتًا ومحدقًا في الأرض، واستمر ويسلي في وعظه.

كثيرًا ما كانت الجموع صـعبة وعنيفة، وتحدث ويسـلي عن إحدى المناطق قائلاً: "بعد انتهائنا من العظة وخروجنا، استقبلنا الناس بالسخرية وبعض الحجارة وكتل الطين". وفي إحدى المرات، وبينما كان ماشـيًا خلال بريستول ليعظ، ثارت بعض الغوغاء عليه، وقال ويســلي: "لقد كان الشـــارع ممتلئًا من أوله إلى آخره بالناس الذين أخذوا يسبُّون ويلعنون، وكانوا على استعداد لابتلاع الأرض من كثرة العنف والغضب". وعندما استعدت الجماهير للانقضاض على ويسلي، استدعى المحافظ الشـــرطة التي أعادت الأمن. في مرة أخرى ذهب بعض المشـــاغبين للاستماع لوعظه، وعندما استمعوا إلى العظة آمنوا بيسوع المسيح.

واعترض الكثيرون من أصـدقاء ويسـلي على وعظه في الهواء الطلق، وقال لـه أحدهم: "كيف تبرر ذهابك إلى أبرشـــيات خدام آخرين لتعظ؟ كيف تجمع المسـيحيين الذين ليسـوا تحت رعايتك، ليرنموا المزامير ويصـلوا ويسـتمعوا إلى تفاســـير الكتاب المقدس؟" فأجابه ويســـلي: "أنا أنظر إلى العالم كله على أنه أبرشيتي، وأعتقد أنه من المناسب بل من الصلاح أن أعلن عن الخلاص لكل من يرغبون في الاستماع إلى الأخبار السارة".

وكثَّف ويسـلي مجهوداته في المناطق التي كان يعيش أغلب أهلها في الفقر والجهـل، وبقبول النـاس للمســـيح، بـدأ ويســـلي في جمع الأموال لبنـاء دور

الاجتماعات ودور الأيتام والمدارس. ولكن جون ويسلي لم يكن يمكث في مكان واحد لوقت طويل، لكنه أخذ يسافر من مكان إلى آخر، على ظهر حصانه ليعظ الناس، وسرعان ما أدرك أن الناس بحاجة إلى التعليم المستمر والتشجيع حتى ينموا في الإيمان. وشبَّه ويسلي الوعظ دون رعاية، بعملية غزل حبل من الرمل؛ لذا قام بتدريب القادة ليتلمذوا المؤمنين الجدد، وليعلِّموهم قراءة الكتاب المقدس وليصلوا ويخدموا الآخرين. وأُطلق على كل من اتبع أساليب ويسلي "الميثودست" أي الإصلاح، ونظمت مجموعات الإصلاح "الميثودست" في المنطقة، على أساس دوائر تحت رعاية وعاظ ممتطي الخيول، والذين أُطلق عليهم "ممتطو الدوائر".

وفي خلال خمسين عامًا هي مدة خدمته، تحرك ويسلي مسافة تزيد على ٢٥٠.٠٠٠ ميل، وخدم أكثر من ٤٠.٠٠٠ عظة. أما تشارلز ويسلي الواعظ المخلص أيضًا، فقد اشتهر بكتابة الترانيم، فكتب ٧٠٠٠ ترنيمة، من بينها: "مع ملاك الله جند لرعاة قد ظهر"، و"المسيح اليوم قام".

وحتى بلغ عمر الثامنة والثمانين، لم يكف جون ويسلي عن العمل وقال: "أنا الآن رجلٌ عجوز، فاسد من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، ولكن الرب باركني ولم أتراخَ في العمل، فيمكنني الوعظ والكتابة". وعندما كان على فراش الموت قال لأصدقائه: "أفضل ما في الأمر أن الله معنا!"

...

جون نيوتن

تاجر عبيد خلصته النعمة

جون نيوتن ١٧٢٥ م – ١٨٠٧ م

ضــربت العاصــفة القوية المياه الباردة لشــمال المحيط الأطلنطي، وأثارت نوءًا، فالرياح التي بلغت ســرعتها ثمانين ميلا في الســاعة، والأمواج التي بلغ ارتفاعها ثلاثين قدما ضــربت ســفينة التجارة الإنجليزية جريهوند، حتى أوشــكت على الغرق، وتَحطَّمت الأشرعة والسواري. ومع كل موجة مزبدة، فاضت المياه على ســطح المركب جاذبة معها العديد من الرجال. وجاهد البحارة للوصــول إلى المضخات لسد التسرب.

كان جون نيوتن، البحار الذي بلغ من العمر الثانية والعشــرين عامًا، مبللا ومرتجفًا ملازما لمقبض دفة السفينة، باذلا قصارى جهده ليبقي السفينة فيِ حالة مستقرة. وجعله الخوف من الموت أن يفحص حياته، فملأته ذكريات عصيانه لله باليأس لأنه ســخر ولعن الله لســنوات كثيرة وقال في نفســه: "أنا أغرق تحت ثقل خطاياي في المحيط وإلى الأبد".

لقد كانت حياة نيوتن في بدايتها سعيدة وواعدة، فكان والده بحارًا وكان بعيدًا في معظم الأوقات، ولكن والدته التي كانت مســيحية مكرســة، أغرقته بالحب وملأت عقله الصــغير بقصــص وآيات من الكتاب المقدس وترانيم إســحق واتس، وكانت كثيرًا ما تقول له: "عندما تكبر ستكون خادمًا أمينًا للرب".

وعندما بلغ نيوتن الســابعة من عمره، ماتت والدته وهكذا حُرم من التربية الروحية. ولم يمضِ وقت طويل حتى تزوج والده من سيدة أخرى، لم تكن تهتم به أو بالرب، وتلاشى الضوء المسيحي من البيت. وكان غالبًا ما يُترك جون بمفرده في المنزل، فتشــبَّع بالصــفات الســيئة التي اكتســبها من جيرانه، واســتبدل إيمان والدته بالكذب واللعن، الذي تعلمه من أصــدقائه. وكره نيوتن حياته في المنزل والمدرســة، لذا توســل إلى والده أن يأخذه إلى البحر. وعندما بلغ نيوتن الحادية عشرة، بدأ العمل كصبي في كابينة سفينة والده. وتأقلم بسرعة على حياة البحر

وأساليب البحارة الشريرة. وبعد بضع سنوات، ترك سفينة والده وبدأ يعمل على سفن أخرى، إلى أن انتهى به الأمر أن يعمل على سفينة تجارة عبيد.

لم يكن نيوتن يبالي بالرجال والنساء والأطفال الأفارقة، الذين حطمت تجارة العبيد حياتهم. وكان نيوتن يكبلهم بالقيود، ويعبئهم مثل السردين أسفل ظهر السفينة، وكان الكثيرون منهم يموتون قبل الوصول إلى شواطئ العالم الجديد، من القذارة والمرض. لقد كان يعتبرهم هو وباقي البحارة، مجرد بضاعة مثل قصب السكر أو شمع العسل.

وبمرور السنوات، أصبح نيوتن بحارًا متمرسًا ومشاغبًا، وبدأ يحتقر رؤساءه، وأخذ يؤلف أغاني مبتذلة، سخرت من القبطان والسفينة، وملأ طاقم السفينة الجو بهذه الأغنيات الشريرة. واعترف نيوتن فيما بعد بالقول:"لم أرتكب الخطايا بيد رفيعة فقط، ولكني اعتدت على إغواءِ الآخرين في كل مناسبة".

لقد كرهه رؤساؤه، فلقد أدى سلوكه السيئ في عدة مرات، إلى انتقادات عامة، فَعُرِّيَ ظهر نيوتن ورُبطت يداه وقدماه إلى قضبان من الخشب وجُلد على ظهره ومُزِّق جسده، حتى خارت قواه وفقد وعيه. وفي موقف ما، لكي يهرب من القبطان القاسي، ذهب إلى قبطان آخر في أفريقيا على متن سفينة تجارة عبيد، وانتهى به الأمر إلى أَسْرِهِ هو شخصيًّا كعبد. وفي الأوقات التي لم يكن نيوتن يعمل فيها، كان يُحبس ويعيش على حصة قليلة من الأرز والسمك النيئ، وخشي أن تنتهي حياته كعبد بائس على الشواطئ الأفريقية.

وبدأ والد نيوتن يقلق على ابنه، فطلب من قباطنة السفن التي كانت تغادر إنجلترا أن يبحثوا عنه، فقابلته سفينة جريهوند التجارية، على شواطئ غرب أفريقيا وقال له القبطان: "والدك قلق عليك، ونحن نرحب بانضمامك إلينا والعودة إلى إنجلترا". فانضم إليهم نيوتن وبدأت رحلة العودة إلى إنجلترا شمالاً، وبالقرب من الوطن، ضربتهم رياح عاتية وأمواج البحر الشديدة. وهكذا وجد نيوتن نفسه موثقًا بمقبض دفة السفينة جريهوند، التي على وشك الغرق، وشعر بأنه محطم مثل السفينة التي تتقاذفها الرياح. في هذه اللحظة، تحولت أفكاره إلى المسيح لأول

مرة منذ سنين عدة، وتساءل: "لقد مات المسيح عن الخطاة، ولكن هل سيغفر خطاياي الكثيرة والرهيبة؟ لقد رفضت حقيقة الله التي علمتني إياها والدتي، فهل يمكن أن يغفر لي؟"

وعندما انتهت نوبته على السفينة وخمدت الرياح قليلاً، وجد كتاب العهد الجديد وبدأ في القراءة. وقد ألهمته الآية المذكورة في لوقا ١١: ١٣ ليضع حياته بين يدي الله: " فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحري الآب الذي من السماء يعطي الروح القدس للذين يسألونه". فقال نيوتن في نفسه: "إذا كان هذا الكتاب صادقًا، فالوعد المذكور في هذا الكتاب لا بد أن يكون صادقًا أيضًا. لقد وعد بأن يمنح الروح القدس لكل من يسأله، إذن عليَّ أن أصلي، وإن كان هذا من الله، سيحقق وعده". وصلى بدموع طالبًا الغفران والحياة الجديدة.

وظلت السفينة طافية، وعندما لمس نيوتن الأرض مرة أخرى، كان شخصًا جديدًا، وذهب على الفور لحضور الكنيسة ولتناول عشاء الرب، ونذر بأن يخدم الله. وقد درس نيوتن الكتاب المقدس بجد، كما قرأ أفضل الكتب المسيحية التي وجدها، وكوَّن صداقات مع جورج هوايتفيلد وآخرين من القادة المسيحيين.

ولم يمضِ وقت طويل حتى شعر نيوتن بدعوة الله له للالتحاق بالخدمة وذلك بتشجيع من أصدقائه، واجتاز اختبارات الرسامة لكنيسة إنجلترا، وبدأ يرعى في "أولني" المدينة الفقيرة التي تقع شمال لندن. وقال عن هذه البلدة: "لقد أرسلني الله إلى هنا، ليس لاكتساب شخصية المتحدث، ولكن لربح الأرواح للمسيح".

وبسبب رعايته المليئة بالمحبة وصلواته وزياراته، ربح قلوب شعب "أولني"، وبدأ اجتماع صلاة يعقد في وسط الأسبوع، علاوة على اجتماعات الآحاد المسائية في منزله. وبالرغم من عدم إنجابه للأطفال، كان نيوتن وزوجته يحبان الأطفال وقال: "أريد أن أتحدث إليهم، وأن أشرح لهم الكتاب المقدس بطريقتهم الطفولية"؛ فأسس اجتماعًا للأطفال الذين فرحوا بقصصه المثيرة وبنماذج السفن

التي كان يصـنعها من الورق. وسـرعان ما بدأ يجتمع حوله أكثر من مئتي طفل كل أسبوع، ليتعلموا عن الأمور الإلهية.

وبدأ نيوتن يسـتخدم موهبته الشـعرية، فألف مئات الترنيمات، وفي بعض الأوقات كان يكتب ترنيمة أسبوعيًّا لاجتماع الصلاة. وأكثر الترنيمات المحبوبة: "النعمة العجيبة" و"أعمالك المجيدة تتحدث" و"ما أحلى اسم يسوع على مسمع المؤمنين".

وكتب نيوتن قصة خلاصه، التي أصبحت من أفضل المبيعات في إنجلترا وأمريكا. وعمل نيوتن بلا كلل ليوقف تجارة العبيد في الإمبراطورية البريطانية، فكتب الكتيّبات وشـهد أمام البرلمانات، وألهم بعض رجال الدولة مثل ويليام ويلبرفورس، لاستخدام نفوذهم ليوقفوا تجارة العبيد.

ورغم شـهرته واتسـاع دائرة معارفه، لم يفقد نظرته بأنه كان خاطئًا لكنه مخلَّص بالنعمة. وفي فراش الموت قال لأحد أصدقائه: "لقد فقدت ذاكرتي تقريبًا، ولكنني لا زلت أذكر أمرَيْن، وهما أنني خاطئ أثيم وأن الله مخلِّص عظيم". وكتب الكلمات التي نقشت فيما بعد على شاهد قبره:

جون نيوتن
الذي كان ملحدًا ومتحررًا،
خادم العبيد في أفريقيا،
خلُص برحمة الله ومخلصنا يسوع المسيح
وأُعيد ثانية وغُفرت له خطيته،
وعُيِّن ليعظ عن الإيمان
الذي طالما سعى ليدمره.

وتُوفي نيوتن عندما بلغ الثانية والثمانين، وبقيت حياته التي تغيرت، وترنيمات الحمد التي كتبها، شاهدة على نعمة الله العجيبة.

نعمة عجيبة! ما أروع الصوت
الذي أنقذ بائسًا مثلي

لقد كنت ضالاً، أما الآن وُجِدت
وكنت أعمى والآن أبصر.
...

الإرساليات الحديثة

البشارة إلى أقصى الأرض

في القرن الثامن عشر والتاسع عشر التهبت قلوب مسيحيي بريطانيا وإنجلترا، بدعوة الله، لتبشير جميع الأمم بالأخبار السارة عن يسوع المسيح، فأرسلوا رواد المرسلين إلى أقاصي الأرض.

*ديفيد برينيرد

مبشر هنود أمريكا الشمالية

*وليام كاري

أبو الإرساليات الحديثة

*ديفيد ليفنجستون

مرسل مكتشف

*جون باتون

شاهد آكلي لحوم البشر

*هادسون تيلور

مؤسس إرسالية الصين الداخلية

*إمي كيرمايكل

أم الأطفال المنبوذين

ديفيد برينيرد

مبشر هنود أمريكا الشمالية

ديفيد برينيرد ١٧١٨ م – ١٧٤٧ م

في إحدى الليالي المظلمة من ربيع ١٧٤٥ م، شق رجل وحصانه طريقهما على طول ضفة نهر ساسكويهانا. كان ذاك هو ديفيد برينيرد المبشر، البالغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، إذ جال يبشر الهنود القاطنين في القرى المتناثرة على طول النهر. كان يسافر تحت الأمطار الغزيرة والرياح العاتية، ولم يكن يحصل على كفايته من الراحة، فكان يتوسد الأرض، مما أجهده. وهاجمته حمى شديدة، جعلته يتلوى من ألم معدته ورأسه، وبدأ يعاني من سعال شديد أدى إلى خروج الدم من فمه. وفكر في نفسه قائلاً: "إذا لم أعثر على ملجأ في أسرع وقت، فسألقى حتفي في هذه المنطقة الموحشة".

كان ديفيد قد قضى بين الهنود سنتين، وبالرغم من عظاته التبشيرية وصلواته وأعمال المحبة التي لا تُحصى، فإن الهنود ظلوا متمسكين بعبادة الأصنام، واحتساء الخمر وأعمال العنف والخرافات. والآن يبدو أن عمله سينتهي بموته المبكر، فضغط على حصانه ليتقدم إلى الأمام بأقصى ما يمتلكه من قوة، وصلى قائلاً: "إلهي، أنا على أتم استعداد للموت لأكون مع المسيح، ولكنني أتوق للعيش حتى أرى خلاص الهنود". حينئذ رأى أمامه كوخًا خشبيًّا بين الأشجار، فنزل من على حصانه وأخذ يترنح حتى وصل إلى الباب. وسمح له التاجر الهندي، الذي كان يعيش هناك، بالدخول وقدم له الطعام وهيأ له سريرًا. وبعد عدة أيام من الراحة، اختفت الحمى واستعاد صحته وامتطى جواده عائدًا إلى منزله، على حدود بنسيلفانيا بين هنود ديلاوير.

وبعدما عاد سالمًا إلى كوخه الصغير، بدأ يُنسَكُ إلى الأماكن الهادئة ليصلي صلواته الليلية وهو ساجد في المستنقع الرطب قائلاً: "مبارك أنت أيها الآب السماوي. لقد حفظتني سالمًا عبر مئات الأميال، ولقد استعدت صحتي". ثم صرخ

إلى الله من أجل الهنود قائلاً: "إلهي، طأطىء السموات وانزل، واعمل أعمالاً عجيبة بينهم".

وبعد مضي وقت قصير، سار برينيرد ومترجمه الهندي ثمانين ميلاً في الاتجاه الجنوبي الشرقي، وتوغلا في غابات نيوجيرسي ليبشرا بالأخبار السارة عن يسوع المسيح، لقبيلة هندية تعيش بالقرب من منطقة يُطلق عليها كروسويكسانج. وعندما وصل هناك، لم يقابل سوى القليل من النساء والأطفال، حيث أن تلك القبيلة كانت تعيش في مستوطنات صغيرة متناثرة على طول عدة أميال. ومن خلال مترجمه الهندي بدأ يعظهم، ولدهشته لم يهزأ المستمعون منه، بل على العكس فقد أنصتوا إليه باهتمام. ومع انتهاء عظته قال لهم: "أتمنى أن أزوركم مرة أخرى غدًا". فقامت السيدات في الحال وانتشرن في جميع الجهات. فسألهم برينيرد: "إلى أين تذهبن؟" فأجبنه: "لنخبر أصدقاءنا بأن يأتوا ليستمعوا إلى كلمة الله". وهكذا أخذ يعظهم كل يوم، وكان عدد السامعين يتزايد ولم يعترض أي منهم على ما كان يقوله، ولكنهم تعلَّقوا بكل كلمة. ولم يسبق لبرينيرد أن رأى هنودًا متقبلين رسالة يسوع المسيح إلى هذا الحد.

وبعد مرور اثني عشر يومًا، وبينما كان يُعد نفسه للعودة إلى بيته بديلاوير، جاءته امرأتان هنديتان تبكيان، وقالت له إحداهما: "أتمنى أن يغيِّر الله قلبي". وقالت له الأخرى: "أريد أن أجد المسيح". ثم اقترب منه رجل مُسِنٌّ وقد اغرورقت عيناه بالدموع وهو يسأل: "ما الذي سيحدث لروحي المسكينة؟" فوعدهم برينيرد بالعودة سريعًا إن شاء الله. وفي الطريق الذي اتخذه شمالاً، صلى قائلاً: "يا أبتاه، أنت وحدك الذي تستطيع أن تفتح آذان هؤلاء المساكين عبدة الأصنام، وتجذب قلوبهم إليك، فغيِّرهم يا رب بنعمتك المخلِّصة".

وبعد شهر، عاد مرة أخرى إلى كروسويكسانج ووجد تحرّكًا عظيمًا لروح الله في المكان، فلقد كان الهنود شغوفين أن يجدوا السلام مع الله، حتى أنهم أوقفوا احتفالاتهم الوثنية ولم يتناولوا أي طعام، قبل أن يطلب برينيرد البركة. وعندما وعظهم من الآية: "هذه هي المحبة، ليس أننا نحن أحببنا الله، بل أنه هو أحبنا

وأرسل ابنه كفارة لخطايانا"، قلما وُجِدت عيون لم تدمع بين الجموع الذين اجتمعوا في ذلك المساء حول برينيرد.

والرجال والنساء والشبان والشابات، الذين كانوا يبكون على الأعمال الشريرة التي قاموا بها، سألوه قائلين: "ماذا نفعل حتى نخلص؟" وصرخوا: "ارحمني، ارحمني!" وآمن الكثيرون بيسوع المسيح لغفران خطاياهم، وكانوا يأخذون أيدي أصدقائهم ببهجة قائلين: "تعالوا وسلِّموا قلوبكم ليسوع المسيح، فهو صالح، تعالوا واستمتعوا به".

وعن عمل الله بين الهنود قال برينيرد: "لقد كان مثل رياح عاتية عظيمة هبت علينا". وسرعان ما آمن كل هنود المنطقة تقريبًا، وقدموا عبادة قلبية لله. وكتب برينيرد يقول: "لقد اعتقدت كثيرًا بأنهم على استعداد لحضور عبادة تدوم أربع وعشرين ساعة بفرح إذا استطاعوا، فأنا لا أعرف جماعة من المسيحيين، يسود بينهم حضور الله والمحبة الأخوية مثلما رأيت فيهم".

وعاد ديفيد برينيرد إلى بيته، طالبا من الله أن يسكب نعمته على قلوب أهل ديلاوير القاسية، مثلما فعل مع هنود كروسويكسانج. وكان رجل شرير يعيش في ديلاوير بالقرب من كوخه، بالقرب من أحد تفرعات نهر ديلاوير. كان هذا الرجل كاهنًا هنديًّا للسحر والعبادة الروحية، ولقد كان يحث الناس على الابتعاد عن تعليم برينيرد. وبالرغم من كونه رجلا سكيرا وقاتلا، إلا أن الهنود كانوا يخشعون لغنائه واهتزازاته ورقصه، فقد كان يصيح قائلاً: "استمعوا إليَّ، لأن قوة الأرواح تعيش فيَّ".

في بعض الأوقات كان برينيرد يتمنى لو أن الله ذبح ذلك الكاهن، فلقد بدا كما لو كان يقضي على أي شوق لدى الهنود نحو يسوع المسيح، إذ كان مثل الماء الذي يُسكب على أول شعلة للنار فيطفئها، ولكن عندما عاد برينيرد من كروسويكسانج، استمع الكاهن إلى عظاته بتنهد ودموع وقال لبرينيرد: "أشعر بكلمة الله في قلبي، الذي سكنته الشياطين سابقًا". وآمن بيسوع المسيح، وتحوّل تكبره وغضبه إلى تواضع ولطف. وأخذ يقول للآخرين: "إذا كان الله يستطيع أن يغسل

خطاياي، فبإمكانه أن يغفر لكم أيضًا". وأصبح هذا الرجل أقرب صديق لبرينيرد، وكان يسافر معه عندما كان يعظ القبائل المجاورة. وفي أحد أيام شهر فبراير الباردة، وبينما كان يعظ جماعة هندية بالقرب من النهر، وقف أحد البوو (الكهنة) وصرخ قائلاً: "كُف عن الأكاذيب واخرج من هنا وإلا سألقي عليك وعلى أصدقائك بتعويذة شؤم". وقبل أن يجيبه برينيرد، سار صديقه الهندي ووقف في مواجهة البوو (الكاهن) وقال: "نحن لا نخاف من سحرك، فلتلقِ بتعاويذك. ليس لك سلطان لإيذائنا، فمنذ زمن ليس ببعيد كنتُ واحدًا من البوو وكرهت أيضًا كلام الواعظ، ولكني وبعد وقت، شعرت بكلمات الله في قلبي، واختفى سلطان الشيطان من داخلي، وامتلأ قلبي بالسلام والحب". ومد يده نحو الرجل المُسن قائلاً: "وستغيرك كلمة الله أيضًا حين تشعر بها في قلبك".

في تلك الليلة كتب برينيرد في مذكراته عن صديقه يقول: "مجدًا لله على التغيير العجيب الذي حدث في هذا الرجل، فما قيل عن بولس قد تحقق أيضًا فيه، فهو يبشر بالإيمان الذي حاول قبلاً تدميره".

وخلال العام والنصف التاليين انتشرت النهضة إلى قبائل أُخَر، وكان برينيرد يمضي عشرين ساعة أسبوعيًا على صهوة حصانه، ويقطع آلاف الأميال ليعظ ويعلم ويعمد الهنود. وكان كثيرًا ما يعاني من أمراض مستمرة كالسعال والصداع الرهيب. وعندما أصبح ضعيفًا، ولم يكن بمقدوره الوعظ، امتطى جواده عائدًا إلى نيوإنجلاند، ليتلقى الرعاية الطبية، وليغيّر الجو أملاً في التعافي. أحيانًا كان يشعر بقليل من التحسن عندما يسافر، ولكن عندما وصل نورثامبتون بماساتشوستس، وبالتحديد منزل جوناثان إدواردز، خارت قواه، فاعتنى به إدواردز وعائلته لأشهر عديدة، إلى أن شارف على الموت. وكتب برينيرد عن الوقت الذي قضاه هناك قائلاً: "لقد كان يشبه جزءًا صغيرًا من السماء". وكان برينيرد مصدر تشجيع لإدواردز، فقال إدواردز عنه: "لقد وجدته شخصًا روحيًّا عميقًا تفيض صلواته من كل قلبه".

وخلال سنوات خدمته، كان برينيرد يحتفظ بمذكراته، التي عبَّر فيها عن شكوكه وصراعاته وأفراحه. ولم يقصد أن يقرأها آخرون، ولكن وهو على فراش الموت، حثه أصدقاؤه على أن يَسمح بنشرها كشهادة عن نعمة الله. وبعد الكثير من الإلحاح وافق، ولكنه قال: "ولكن بشرط أن توضع بين يدي جوناثان إدواردز ليقرر الأجزاء التي ستكون أكثر تمجيدًا للرب".

وقبل موته قال برينيرد: "لقد أوشكت على الوصول إلى الأبدية، فأنا أشتاق أن أكون هناك، وكل ما أتمناه هو أن أمجد الله في السماوات". ومات برينيرد في صباح ٩ أكتوبر ١٧٤٧ م، وكان قد بلغ التاسعة والعشرين عامًا. وراجع جوناثان إدواردز مذكراته، وتولى نشرها عام ١٧٤٩ م وقُرِئت "*حياة ومذكرات ديفيد برينيرد*" في أمريكا وأوروبا. وألهمت هذه المذكرات، الكثير من المبشرين، منهم وليام كاري وديفيد ليفينجستون لسنوات عديدة، ليخدموا الله على مثال ديفيد برينيرد. ولاتزال هذه المذكرات إلى يومنا هذا تتحدى المسيحيين ليتبعوا الرب بقلب كامل.

...

وليام كاري

أبو الإرساليات الحديثة

وليام كاري ١٧٦١ م – ١٨٣٤ م

في عام ١٧٨٧ م كان هناك صانع أحذية فقير، يعمل في ورشة بكوخه في أطراف قرية إنجليزية بمولتون. وكانت يداه الخشنة المصبوغة تشكل الجلود بمهارة، ولم يكن وليام يصنع حذاء، لكنه كان يحيك بالجلد رسم جزيرة من جزر البحر الجنوبي، على خريطة جلدية للكرة الأرضية، حيث رُسمت أراضي العالم أجمع بألوان مختلفة من الجلود، ووُضعت جميعها بدقة في الحجم والموقع.

وقد غطت أحد حوائط الورشة بالكامل خريطة من الورق، مرسومة يدويًّا، وقد وضع عليها كاري علامات لكل أمة في أنحاء العالم، بعدد سكانها وحالتها أمام الله، سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين أو عبدة أصنام. وبينما كان يعرض الخريطة والكرة الأرضية المصنوعة من الجلد، لكل من يأتي إلى مشغله، كان يذرف الدموع على ملايين البشر، الذين يلقون حتفهم دون يسوع المسيح. وكان يشير إلى أمة وراء الأخرى ويقول: "وهؤلاء عبدة أصنام وهؤلاء عبدة أصنام وهؤلاء عبدة أصنام..".

إلى جانب صناعة الأحذية، كان وليام كاري يخدم في الكنيسة المعمدانية بمولتون كواعظ، وكان يرشد الناس إلى المسيح، ويسافر بلا كلل ليعظ القرى المحيطة؛ وقد ألقى أحد أصدقائه عليه باللوم لإهماله صناعة الأحذية من أجل عمله التبشيري، فرد عليه كاري: "أهمل عملي؟ إن عملي يا سيدي هو امتداد ملكوت المسيح، فأنا لا أصنع الأحذية أو أصلحها، إلا لتساعدني على تحمل نفقاتي".

وآمن بالرب الكثيرون من الذين استمعوا إلى كاري، ولكنه كثيرًا ما كان يشرد بذهنه بعيدًا، في النفوس الضائعة في المناطق الأخرى، الذين يعيشون دون البشارة السارة بيسوع المسيح. وعندما بلغ كاري الثانية والعشرين، قرأ كتاب "*رحلة كابتن كوك*"، ذلك المكتشف الإنجليزي الذي أبحر حول العالم، ليرسم مسارات البحار،

وليضم الأقاليم للعرش البريطاني، وكتب عن شعوب الأراضي التي اكتشفها، ولم يستطع كاري ترك الكتاب حتى انتهى منه.

إن قراءته عن خطايا وتعاسة شعوب العالم التي تعيش دون المسيح، أشعلت رغبته ليصبح مبشرًا، وبعدها لم يكن ينهي صلاته، إلا بعد أن يطلب من الله من أجل خلاص الوثنيين، وذلك بالرغم من عدم اقتناع الكنيسة في تلك الأيام بالحاجة إلى نشر رسالة المسيح في البلاد البعيدة. كما قرأ كاري عن جون إليوت وديفيد برينيرد، الخادميْن اللذيْن بشرا هنود أمريكا الشمالية، وقد أصبحا بطليْن في الإيمان وفي قضية الإرساليات العالمية.

لقد كانت كنيسة كاري تنتمي إلى جمعية نورثامبتون المعمدانية، وكان خدام الجمعية يجتمعون كل عام ليشجعوا بعضهم وليصلوا معًا. وفي أول اجتماع يحضره كاري، طلب منه الرئيس أن يقترح موضوعًا للمناقشة، فوقف كاري أمام المجموعة وقال: "لنناقش معا إذا ما كانت الوصية التي أعطاها الله للرسل ليعلِّموا جميع الأمم، ليست مُلزمة لجميع الخدام اللاحقين حتى انتهاء العالم".

فرد عليه خادم أكبر بصوت أجش: "اجلس، اجلس أيها الشاب! أنت شخص متحمس، فإذا أراد الله أن يغيِّر الوثنيين، سيقوم بهذا دون أن يستشيرك أو يستشيرني". ولكن كاري رفض التخلي عن فكرته، فألح على الخدام، كل بمفرده، على الحاجة الملحة لإرسال بعثات تبشيرية. فقال أحد الخدام فيما بعد: "لقد نظرنا إلى هذا الأمر على أنه خطة غير عملية ولم نشجعه عليه، ولكنه لم يكُفّ عن ذلك، فتحدث إلينا واحد تلو الآخر، حتى أثر علينا".

وفي اجتماع الخدام عام ١٧٩١ م، حاول كاري مرة أخرى، وقدم مقالة من سبع وثمانين صفحة بعنوان" *تحقيق في التزام المؤمنين باستخدام الوسائل لتجديد الوثنيين*". وفي مقالته، قدم جدلاً مُقنعًا عن الإرساليات العالمية، فكتب يقول: "علينا أن نكون توَّاقين للخروج إلى العالم أجمع، من أجل المسيح حتى تُفتح كل الأبواب المغلقة. إن التجار البريطانيين يحتشدون في شبه القارة الهندية وبلاد الفرس

والصين وجرينلاند. ويتوغل تجار العبيد الملعونون في عمق أفريقيا، فهل نحن المؤمنين أقل عزيمة وجرأة من هؤلاء؟"

وفي الاجتماع التالي للجمعية، ألقى كاري العظة الافتتاحية، واستشهد بآيات من الكتاب المقدس، شجع بها الخدام على إنشاء جمعية الإرساليات، وتحداهم بعبارة لا تُنسى: "توقعوا أمورًا عظيمة من الله، وحاولوا عمل أشياء عظيمة من أجل الله". وبالرغم من شدة تحرك مشاعر الخدام، إلا أن خوفهم وشكوكهم عادت إليهم، فرفضوا اتخاذ هذه الخطوة؛ فشعر كاري بخيبة الأمل، وشد أندرو فولير من ذراعه، وهو راعٍ له تأثيره، وصاح به قائلاً: "ألا يوجد شيء آخر نستطيع فعله؟"

فنُخِس فولير متأثرًا بكلام كاري، واستحث الخدام على إعادة النظر في الأمر، فامتلأوا بالحماسة وتشجعوا وصوَّتوا لإنشاء جمعية للإرساليات؛ وفي أقل من عام، كانت الجمعية قد أرسلت إلى الهند اثنين من المبشرين، هما جون توماس ووليام كاري.

وعندما علم والد كاري بخططه قال: "هذه الحماقة لا تخرج إلا من شخص مجنون". ولكن كاري كان على قناعة كاملة بمهمته فقال: "أنا واثق تمامًا بأن إرادة السماء تحتم عليَّ الذهاب".

وبعد قضاء خمسة أشهر في عرض البحر، وصل كاري وزوجته وأولاده وجون توماس إلى كالكوتا بالهند، وشعر كاري بالأسى من أجل الهندوس الواقعين في فخ نظام الطوائف القاسي، حيث سلَّموا، دون نقاش، بأن حياتهم يحكمها القدر، وبأن هناك حياة أفضل تنتظرهم في المستقبل، من خلال إعادة تجسد أرواحهم. كانوا يسجدون لأصنام، تمثل آلاف من الآلهة الحقيرة المتنازعة، ورأى كاري الرجال وهم يلقون بأنفسهم على مسامير كبيرة، ليتمزق لحمهم وعظامهم، وآخرين مرفوعين في الهواء على خطاطيف، مغروسة في ظهورهم ويتأرجحون في الهواء؛ كل هذا لإرضاء الآلهة. وكانوا يقدمون الإجلال كل صباح لنهر الجانجز. ونذرت بعض النساء العاقرات بالتضحية بطفل للنهر المقدس إذا وهبهم أطفالا، فأُلقي بعدد لا

حصر له من الأطفال في النهر، حيث غرقوا أو أكلتهم التماسيح وفاءً لنذور الأمهات.

وفي إحدى الأمسيات شاهد كاري بعينيه حرق إحدى أرامل قبيلة ساتي وقد كانت هذه العادة من الممارسات الشائعة في الهند، فذهب إلى عدد من الذين كانوا مجتمعين على ضفة النهر وسأل: "لماذا تقفون هنا؟" فأجابوه: "لنحرق جثة رجل ميت وزوجته".

ورأى السيدة مرتدية ثوبًا أبيض بجانب كومة كبيرة من الخشب، ترقد عليها جثة زوجها المُتَوفَّى. وحاول كاري بكل قوته أن يقنعهم بأنهم يرتكبون جريمة قتل بحرق المرأة، ولكنهم دفعوه بعيدًا قائلين: "إن هذا العمل مقدس عظيم، فإذا كنت لا ترغب في رؤيته اترك المكان". فرد عليهم بجرأة قائلاً: "بل سأبقى وأشاهد هذه الجريمة وسأشهد عليها أمام عرش الله". وبينما كانت المرأة تصعد بهدوء على الكومة، صاح بها كاري قائلاً: "لا تلقي بحياتك في التهلكة، فلن يصيبك مكروه إذا رفضتِ أن تُحرَقي"، ولكن المرأة تجاهلت توسلاته ورقدت إلى جانب جثة زوجها، وتم تغطيتهما بكومة كبيرة من أوراق الشجر الجافة، وضغطوا على الأوراق بأعمدة من خشب البامبو، مما منع حركة المرأة. وعندما أشعلوا النيران، بدأ الناس في صياح الفرح لشيفا إله الدمار. وإذا كانت المرأة قد صاحت، فلم يكن ليُسمع صوتها من ضجيج الحشد المجتمع، وتركهم كاري وهو يرتعد، وقد أعياه رعب المنظر.

وبذل كاري مجهودًا كبيرًا لتعلم اللغة البنغالية المستخدمة في تلك المنطقة من الهند، وفي زمن قليل تعلم ما يكفي ليقدم عظة بسيطة. وفرح الناس في الكثير من القرى بوعظه، ولكن كانت تنقصهم الشجاعة لطاعة تلك العظات، وكانوا يقولون: "نحن نرغب في اتباع تعاليمك بقلوبنا، ولكننا لن نستطيع أن ننفذ ذلك لأنه انتهاك لتراثنا". إذًا، لا بد وأن يعتنق البراهميون الإيمان أولاً.

كان البراهميون أعلى طائفة، كما كانوا الروحيين للمنطقة وكان من الصعب الوصول إليهم بالرسالة المسيحية، وقد كانوا في بعض الأوقات يستأجرون قطّاع

الطرق، ليسخروا من عظات كاري ويقذفونه بالحجارة، فكان غالبًا ما يعود إلى منزله، ووجهه مرضوض وتسيل منه الدماء.

ودرس كاري الكتابات المقدسة للهندوس، وفاجأ البراهميين بمعرفته بدينهم، واستمر كل يوم، ولأكثر من ستة أعوام، في تقديم معاناة يسوع المسيح وموته على الصليب من أجل الخطاة، ورغم ذلك لم يؤمن أحد بالمسيح.

منذ وصوله الأول إلى الهند، كان كاري يصلي حتى يرسل الله المبشرين لينادوا بالبشارة السارة عن يسوع المسيح، وكتب لجمعية الإرساليات يقول: "الهند بحاجة إلى عشرة آلاف خادم للإنجيل، ألا ينبغي على كل كنيسة أن تعد الخدام وترسلهم إلى الخارج؟"

وفي السنة السادسة له في الهند، انضم إليه مبشران، هما "جاشوا مارشمان" و"ويليام وارد"، وعمل الثلاثة كرجل واحد واتخذوا شعارًا لهم عبارة كاري: "توقع أشياء عظيمة من الله، وحاول عمل أشياء عظيمة من أجل الله". ونظموا سويًّا مبنى للإرسالية بسيرامبور، وهي مدينة تحت الحكم الهولندي وكانت تبعد قليلاً عن كالكوتا. ولم يمضِ وقت طويل على وصول مارشمان ووارد، حتى قبل المسيح نجار هندوسي يدعى كريشنا بال. وأخبر كريشنا زوجته ونسيبته وأحد أصدقائه عن المسيح، فآمنوا هم أيضًا، وقال: "لقد أزال الله عنا خطايانا، والآن هو كل شيء لنا، ومن اليوم فصاعدًا، فإن لعنات وبركات البراهميين لا قيمة لها".

وكسر كريشنا وآخرون نظام الطائفة، بتناولهم الطعام مع المبشرين، فسخر منه جيرانه الغاضبون، وهددوه وضربوه. وفي إحدى الليالي، وبعدما حاصروا منزله وجروه خارجا، وجد كاري زوجة كريشنا تسير على الطريق مرتعبة وباكية، فهدأ من روعها والدموع تسيل من عينيه، وقال لها: "إن أمانتكم مع المسيح قد جلبت عليكم هذا الكرب، وسيحتفظ الله بدموعك في زقِّه، ولن يتخلى عنك أبدًا".

وخططت الجماهير لقتل "كريشنا بال" وعائلته في تلك الليلة، ولكن الحاكم الهولندي علم بهذه المؤامرة وقام بحمايتهم. وبدأ كريشنا ينادي بالأخبار السارة لجيرانه، فآمن الكثيرون بيسوع المسيح. ولكن أعضاء من الطوائف العليا سخروا

منه قائلين: "ما أهمية أن ينتهك الطائفة نجار أو عامل نظام؟ هل آمن أي من البراهميين؟"

ولكن خلال بضعة أشهر، انتهك أحد البراهميين الطائفة، ورافق كريشنا وباقي المرسلين، وعندما أخبر أصدقاءه من الطائفة العليا عن إيمانه بيسوع المسيح، لعنوه وقذفوه بالروث، فقال لهم: "إن اللعنات من أجل المسيح تلذ لي". وتحمَّل كل من قبل المسيح من الهندوس السخرية والتهديدات وأعمال العنف، فأُلقِي رجل خارج المدينة، بعد أن ملأوا عينيه وفمه وأذنيه بالطين، وتم خطف الكثيرين وقتل واحد على الأقل، ولكن عدد المؤمنين ظل في النمو. وكتب كاري في إحدى رسائله يقول: "منذ ثمانية عشر شهرًا، كنا نفرح بشدة لو أكل معنا واحد من الهندوس، أما الآن ففي بعض الأوقات يصعب علينا إيجاد مكان لكل من يأتون إلينا".

واستثمر كاري معظم وقته في ترجمة الكتاب المقدس، حتى يستطيع الناس قراءة كلمة الله بأنفسهم. كان يسهر الليالي ويستيقظ مبكرًا، وكثيرًا ما كان يتجاوز وجباته الغذائية ليستمر في العمل. وقال أحد مساعديه من المترجمين الهنود: "أي نوع من الأجساد يمتلك السيد كاري؟ أنا لا أستطيع أن أفهمه، فلا يبدو عليه الجوع أو التعب أبدًا، ولا يترك شيئًا إلا بعد أن ينتهي منه". وتمكن كاري، ومساعدوه المترجمون الهنود، من ترجمة الكتاب المقدس إلى ست لغات وترجمة العهد الجديد إلى أكثر من ثلاثين لغة. وعندما سُئِل كاري كيف تعلَّم كل هذه اللغات أجاب: "لن يعرف الناس ما يستطيعون عمله إلا بعد أن يحاولوا القيام به، فأنا أستطيع أن أكدح وأن أثابر، وهذه هي موهبتي الوحيدة، أما الله الذي يستطيع أن يعمل من خلال صانع أحذية ما عمله معي، فيمكنه أن يبارك أي واحد ويستخدمه".

وألهمت غيرة إرسالية وليام كاري الكثير من المجموعات المسيحية المختلفة ليرسلوا المرسلين. وخلال بضعة سنوات من رحيله إلى الهند، أسست كنيسة إنجلترا واسكتلندا الميثودوست (الإصلاح) هيئات للإرسالية الأجنبية وجمعية لندن الإرسالية، والعديد من الجمعيات الإرسالية الأمريكية؛ وكتب أحد مؤرخي الكنيسة يقول: "لقد انتشرت الشعلة التي أضاءها وليام كاري من تل إلى آخر، مثل نيران

المنارة حتى أدركت الإشارة كل كنيسة مسيحية، واستجابت للدعوة". ولهذا أُطِلق عليه "أبو الإرساليات الحديثة".

وعندما رقد كاري في فراش الموت، في عمر يناهز الثانية والسبعين، زاره صديق وأحصى كل الإنجازات التي تممها كاري في حياته كمرسل، فصوَّب له وليام كاري ما قاله بصوت ضعيف قائلاً: "لقد كنتَ تتحدث الآن عن وليام كاري، وعندما أرحل، لا تتحدث عن وليام كاري، بل تحدث عن مخلِّص وليام كاري".

...

ديفيد ليفنجستون

مرسل مكتشف

ديفيد ليفنجستون ١٨١٣ م – ١٨٧٣ م

واجهت قبيلة باخاتله بجنوب أفريقيا مشكلة عصيبة في فبراير ١٨٤٤ م، حيث كانت الأسود تهجم على حظائر الماشية لتأكل الغنم والبقر. وقد كانوا يعتقدون بأن الأسود مسحورة، فأخبروا ديفيد ليفنجستون، المرسل المسيحي الذي يبلغ من العمر الثانية والثلاثين، والذي كان يعيش بينهم قائلين: "لقد سلمتنا القبيلة المجاورة لقوة الأسود". وبالرغم من معرفة قبيلة باخاتله، بأنهم لو قتلوا أسدًا واحدًا من مجموعة من الأسود، فستترك باقي الأسود المنطقة، إلا أن خوفهم من الأرواح الشريرة التي تسكن الأسود، جعلهم غير راغبين في قتل أحد الأسود ليحموا قطعانهم.

فقال لهم ليفنجستون: "تشجعوا، وأنا سأساعدكم لتتخلصوا من هذه الوحوش"، فوافق الرجال وخرجوا ومعهم ليفنجستون ببندقيته، وتسلح أهل المنطقة بالسهام، ووجدوا الأسود عند تل صغير مكسو بالأشجار، فشكلوا دائرة حول الأسود، وصعد أهل القبيلة التل ببطء، ولكن عندما بدأت الأسود تهجم، تفرق الرجال ولم يستخدموا أسلحتهم، فلم يطلق ليفنجستون الرصاص، خوفًا من إصابة أحد الرجال. وعندما عادوا إلى القرية، لاحظ ليفنجستون أسدا رابضا خلف شجرة، على بعد حوالي ثلاثين ياردة، فصوَّب بندقيته وأطلق طلقتين؛ فصاح رجال القبيلة: "لقد أصيب! لقد أصيب!" وقفزوا ورفعوا أيديهم وقالوا: "لنذهب كي نرى". وذهبوا حيث الأسد، وبينما كان ليفنجستون يفحص ذيل الأسد المصاب من خلف الأشجار، صاح بهم: "انتظروا حتى أضع طلقات أُخر بالبندقية". وبينما كان يضع الطلقات، سمع صيحة فأدار رأسه ورأى الأسد المجروح يهجم عليه. وسقط ليفنجستون، والأسد معًا على العشب الطويل، وعضَّ الأسد ذراع ليفنجستون وأخذ يهزه كما يهز الكلب الفأر. وعندما حاول أحد الرجال طَعْنَ الأسد، ترك ليفنجستون وعض رِجْلَ رجُلٍ وكتفَ آخر قبل أن يسقط فجأة صريعًا، متأثرًا بجراح الرصاص.

ولقد هشمت تلك العضة كتف ليفنجستون، الذي رقد عدة أيام وقد شارف على الموت، من نَزْف الدم ومن الحمى، ومرت عدة أشهر قبل أن يستعيد قواه. وسألوه فيما بعد: "فيمَ كنت تفكر عندما كان الأسد ممسكًا بك بين فكيه؟" فأجابهم وهو يغمز بعينيه: "كنت أتساءل بأي جزء مني سيبدأ". وبالرغم من قدرته على المزاح حول الهجوم، إلا إنه كان يعاني من آلام مبرحة لفترة طويلة، ولم يعد بمقدوره أن يرفع ذراعه فوق كتفه.

وبالرغم من الخطر والمشقة، كان ليفنجستون يحب حياته وعمله بأفريقيا. وكشاب، ألهمته حياة المرسلين الرواد، مثل وليام كاري وهنري مارتن. لقد درس ليفنجستون الطب والكتاب المقدس، لأنه أراد أن يشفي أجساد ونفوس أولئك الذين لم يعرفوا يسوع المسيح. وقال ليفنجستون: "لم يكن لدى الله سوى ابن واحد، وكان مرسلاً وطبيبًا، وأتمنى أن أحيا وأموت في هذه الخدمة". وبينما كان يدرس في لندن، تقابل مع الدكتور روبرت موفات، وهو مرسل إلى جنوب أفريقيا، وسأله ليفنجستون: "هل تعتقد بأنني سأستطيع المساعدة في أفريقيا؟" فأجابه موفات: "بالطبع، إذا ذهبت شمالاً إلى المقاطعة الشاسعة غير المستعمَرة، فلقد وقفت صباحًا في أحد الأيام، ورأيت الأدخنة المتصاعدة من آلاف القرى التي لم تطأها أقدام مبشر قبلاً".

وعندما وصل ليفنجستون إلى أفريقيا الجنوبية، توسل إليه المرسلون هناك حتى يبقى بالقرب من مراكز الإرساليات المؤسسة، ولكن ليفنجستون قال لهم: "إن اشتياقي هو الذهاب إلى الشمال، حيث لم يذهب أي مرسل من قبل، وحيث يسود الظلام"؛ لذا انتقل ليفنجستون إلى داخل أفريقيا، وعندما وصل إلى قبيلة باكوين، وجد الناس ورئيسهم سيشيل، شغوفين بالاستماع إلى رسالته، فقال لهم: "إن ابن الله قد نزل من السماء ليموت عنا، وكل من يؤمن بيسوع المسيح سيعيش معه في السموات". كما حذرهم قائلاً: "ولكن يوم الدينونة آتٍ لا محالة، وكل من يموت بدون غفران، سيُفقد إلى الأبد". وقال له سيشيل: "من عادة أمتنا عندما تأتي إلينا أفكار جديدة، أن نسأل أسئلة عنها، فهل لي أن أسألك عن بعض الأمور عن

ديانتك؟" فأجابه ليفنجستون: "بالطبع أرجوك". فسأله سيشيل: "لقد أخبرتنا عن يوم الدينونة الآتي، فهل كان أسلافكم يعرفون بهذه الدينونة الآتية؟" فأجابه ليفنجستون: "نعم كانوا يعرفون، فالكتاب المقدس يقول لنا بأن الله سيجلس على عرش أبيض عظيم ليحاكم كل الناس، وهؤلاء الذين لم يعرفوا يسوع المسيح، سيلقَوْن في جهنم للأبد". فأجابه سيشيل، وقد شحب وجهه وبدأت يداه ترتعشان: "إن حديثك هذا أفزعني، وجعل كل عظامي ترتعش، لقد خارت قواي، فقد كان أسلافي يعيشون في نفس الزمان الذي كان أسلافك يعيشون فيه، فكيف لم يرسلوا لهم عن هذه الأشياء الرهيبة قبلاً؟ لقد ماتوا جميعًا في الظلام، دون أن يعرفوا إلى أين كانوا ذاهبين". عند ذلك شعر ليفنجستون بالحزن العميق في قلبه، لأن المسيحيين لم يأتوا إلى هذه الشعوب قبل ذلك، فأجابه ليفنجستون: "أنا حزين لهذا التأخير، ولكن سيأتي اليوم الذي يعرف فيه العالم أجمع الأنباء السارة عن يسوع المسيح"؛ فوقف سيشيل ورفع ذراعه، وأشار شمالاً إلى صحراء كالاهاري الشاسعة وقال: "لن تستطيع عبور هذه الأرض لتصل إلى القبائل البعيدة". ولقد أشعلت كلمات سيشيل قلب ليفنجستون. ومنذ تلك اللحظة، بدأ في التخطيط لعبور صحراء كالاهاري، ليبشر القبائل الشمالية بيسوع المسيح. ولقد استدعى ليفنجستون مسيحيين من القبائل الجنوبية، ودربهم ليصبحوا معلمين وطنيين ليذهبوا إلى القبائل الشمالية برسالة يسوع المسيح؛ ولكن رسالته أغضبت البويريين، الجماعة المنحدرة من المستعمرين الهولنديين، الذين كانوا قد استقروا مؤخرًا في المنطقة، واعتبروا السكان السود عبيدهم؛ وقد كان بعض البويريين، يجبرون سكان المنطقة على العمل دون أجر.

وفي أول مقابلة لليفنجستون مع قائدهم قال له قائدهم: "عليك أن تعلِّم السود بأنهم ليسوا متساوين معنا". وأضاف آخر منهم: "أنت تضيع وقتك هباءً، فبإمكانك أن تعلِّم القردة مثلما تعلِّم الأفارقة"؛ فقال لهم ليفنجستون: "إذن لنُجرِ اختبارًا لنرى مَن الأفضل في القراءة، المواطنون الذين يساعدونني أم أنتم". ولكن البويريين رفضوا الخضوع للاختبار.

وبعد مرور بضعة أشهر من الإعداد، فكَّر ليفنجستون بأنه حان الوقت ليعبر صحراء كالاهاري، ليتواصل مع القبائل الشمالية البعيدة. وقرر اثنان من الصيادين الإنجليز الانضمام إليه، ومع بعض المرشدين الوطنيين، انطلقوا خلال كالاهاري.

وأرسل رئيس على حافة الصحراء برسالة إلى ليفنجستون يسأله: "إلى أين ستذهب؟ فالشمس والعطش سيقتلانك، وبعدها سيلقي كل الرجال البيض باللوم عليَّ لأني لم أنقذك". فأرسل ليفنجستون بهدية إلى هذا الرئيس قائلاً: "لا تقلق، فالبيض لن يلقوا باللوم على أحد سوانا إذا لقينا مصرعنا".

واستمروا لأسابيع في طريقهم شمالاً، عابرين كالاهاري في الجو الحارق. وفي بعض المرات كانوا يرتحلون ليومين أو ثلاثة دون ماء، وكانوا يوشكون على الموت من العطش حتى يجدوا نبع ماء، إلى أن وصلوا إلى نهر واسع وعميق، تبعوه لثلاث مائة ميل حتى وصلوا إلى شواطىء بحيرة شاسعة، كان أهل المنطقة يطلقون عليها "نْجامي". وعندما وصل الخبر إلى إنجلترا بأن ديفيد ليفنجستون عبر صحراء كالاهاري، واكتشف بحيرة "نْجامي"، كرمته الجمعية الجغرافية الملكية وملكة إنجلترا.

لم تكن رحلته عبر صحراء كالاهاري هي الوحيدة من نوعها، ولكنها كانت أولى سلسلة رحلاته، فلقد كان الوقت الذي يمضيه في الاستكشاف، أكثر من الوقت الذي كان يقضيه في الوعظ، فقاد بعثة استكشافية إلى نهر زامبيزي، الذي أَطلق عليه "طريق الله السريع إلى الداخل". وقد كان أول رجل أبيض يكتشف شلالات فيكتوريا. وذاع صيت ليفنجستون بعد نشر الكتاب الذي وصف فيه اكتشفاته ومغامراته وشعب أفريقيا وأرضها. وكان بإمكانه أن يعود إلى إنجلترا كبطل قومي ورجل غني، إلا إنه قال: "لا زلت أفضِّل الفقر وخدمة التبشير عن الغنى والراحة، وهذا هو اختياري".

ولم يكن أصعب ما واجهه ليفنجستون أثناء رحلاته هو نقص الماء أو هجوم الوحوش، ولكن رؤية بشاعة تجارة العبيد، وقال عنها: "من المستحيل أن تبالغ في مدى شر تجارة العبيد، فما شاهدته يُمرِ ِض النفس، حتى أني أصارع لأطرده من

ذاكرتي، ولكن مشاهد العبودية تعود إليَّ تلقائيًا وتجعلني مرتعبًا من قساوتها"؛ وصلى قائلاً: "أيها الإله القدير، المعونة! ولا تترك هؤلاء القوم البائسين لتاجر العبيد والشيطان".

وفي إنجلترا انتقد البعض ليفنجستون قائلين بأنه ليس صوابًا بأن يقضي مرسلٌ معظم وقته في الاكتشافات؛ ولكنه عارضهم بقوله: "إن أهدافي هي المساعدة في القضاء على تجارة العبيد، وأن أُحضر كلمة الله السماوية للشعب الساكن في الظلمة". فقد كان يؤمن بأنه بإعداد الطرق التي تؤدي إلى داخل أفريقيا، فإنه يمهد الطريق لمرسلين آخرين ليتبعوه. كان يتمنى بأن تنتهي تجارة العبيد في أفريقيا بعدما عرَّف العالم بشناعتها، وعندما تُفتح دواخل أفريقيا إلى السفر والتجارة المشروعة.

وحيثما توجَّه ليفنجستون كان يسعى إلى تحرير أسرى تجارة العبيد. وفي رحلته الاستكشافية لزامبيسي، أسرع إلى عدد كبير من المواطنين المساقين خلال الغابات إلى سوق العبيد، وكتب عنهم يقول: "لقد رأينا صفًّا طويلا من الرجال والنساء والأطفال، متجمعين ويسيرون حول التل إلى الوادي، يقودهم مسلحون بالبنادق، وكانوا يحيطون بهم من أول الصف ومنتصفه وآخره. ولكن عندما رأَوْنا، اندفعوا إلى الصحراء مثل المجانين تاركين العبيد وراءهم. لقد جروا بسرعة حتى إننا لم نلمح سوى قبعاتهم الحمراء ونعال أقدامهم. وانشغلنا نحن في تحرير النساء والأطفال، وكانت مهمتنا أصعب في تحرير الرجال، حيث أحاط بعنق كل رجل عصا يبلغ طولها ستة أقدام، متقاطعة مع قضيب حديدي عند الرقبة. لقد حررنا الرجال واحدًا تلو الآخر. وقد أشعل الرجال الذين تم تحريرهم النيران في العصي التي كانت تحيط بأعناقهم وطهوا وجبة لهم ولأبنائهم. لقد بدت الحرية لهم جميلة جدًّا، كحُلم وليست حقيقة.

وظل ليفنجستون يستكشف طوال حياته الباقية، محتملاً الحمى والأمطار الغزيرة واعتداءات الحيوانات وتهديدات القبائل ومصاعب أُخَر لا حصر لها. وعندما سُئل كيف قدَّم كل هذه التضحيات؟ أجابهم بالقول: "لم أقدِّم أية تضحية،

ولا ينبغي علينا أن نتحدث عن أية تضحيات، عندما نتذكر التضحية العظمى التي قدمها المسيح، عندما ترك عرش الآب في المجد ليبذل نفسه عنا".

وقبل بضعة أسابيع من موته، عن عمر يناهز الستين، كتب في جريدته: "لا يوجد شيء على الأرض يجعلني أترك عملي في يأس، فأنا أشجِّع نفسي بالرب وسأمضي قُدمًا". ومات ليفنجستون وهو يصلي، حيث وجده مساعدوه راكعًا بلا حراك على جانب السرير، ورأسه منكس بين يديه. وبعد وفاته، تبعه المئات من المرسلين إلى وسط وجنوب أفريقيا، وقَبِل الكثير من الأفارقة يسوع المسيح.

...

جون باتون

شاهد آكلي لحوم البشر

جون باتون ١٨٢٤ م – ١٩٠٧ م

إن مياكي قائد حرب آكلي لحوم البشر، اندفع بغضب بوجهه المخطط بالطلاء الأحمر والأسود، وعنَّف رجاله، وأهاجهم وهو يصيح قائلاً: "إن ميسي وعبادة يهوه قد جلبت الكثير من المتاعب لأرضنا". وأضاف قائلاً: "من منكم سينضم إليَّ لمحاربة ميسي وأصدقائه الذين يتعبَّدون معه؟" فقفز رجال القبيلة الذين كانوا يثبِّتون الريش في جدائل شعرهم، وصاحوا ولوَّحوا برماحهم. وأضاف قائلاً: "لنطبخ جسده قبل أن تغرب الشمس، ونعطيه لكل قرية بالجزيرة". وأسرع رجال القبيلة خلال الغابات لقتل ميسي، وكان صدى صيحاتهم الرهيبة يدوِّي في الجزيرة.

كان ميسي هو الاسم الذي أطلقه مواطنو الجزيرة على جون باتون، المرسل الاسكتلندي إلى "تانا"، وهي جزء من سلسلة جزر جنوب المحيط الهادئ، والذي أطلق عليه نيوهيبرايدز (فانواتو). وكان جون باتون يشاهد ويستمع ويصلي، من كوخه المعلق فوق شجرة كستناء، حيث كان يختبئ من رجال القبيلة.

وقد ظل جون باتون يبشر شعب تانا بالأخبار السارة عن يسوع المسيح لثلاث سنوات، ولكن محاربي تانا العدوانيين، لم يقبلوا الكلمة بفرح، بل تمسكوا بأصنامهم الحجرية ومعتقداتهم الخرافية وشعائرهم. ولم تكن عبادتهم تنبع سوى من الخوف. وكانت هناك دائرة مفرغة من الحروب والقتل والانتقام، قد ألقت بسحابة مظلمة على الجزيرة، فقد كان القوي يترك الضعيف والشيخ ليموتا، وكان الأزواج يعاملون زوجاتهم كإماء. كان ضرب الزوجة وقتلها شائعًا هناك، وكانوا يكرمون الكَذَبة واللصوص والخونة، على أنهم رجال أقوياء، وكانت أعظم متعة لهم هي قتل عدو وأكله.

ولكن باتون اتخذ موقفًا قويًّا ضد ضرب النساء وقتلهن، بالرغم من تحذير المرسلين في الجزر المجاورة أن هذا يعني موته المحقق، إلا إنه لم يستسلم. وفي إحدى المرات، عندما كان يتوسل لوضع حد لسوء معاملة السيدات، قال له أحد

الرؤساء: "إذا لم نضرب نساءنا، فلن يعملن أبدا، كما أنهن لن يخفننا أو يطعننا، ولكن عندما نضربهن ونقتلهن ونأكل اثنتيْن أو ثلاثة منهن، ستخشى الباقيات، ويسلكن باتضاع لعدة سنوات قادمة".

ولم يعد باستطاعة باتون حصر المرات التي حاول فيها شعب تانا قتله، ففي إحدى المرات، هاجم محاربان منزله عازميْن على سحق جمجمته بهراواتهما الحربية؛ ولكن كلاب باتون وثبوا في وجهيهما وأنقذوا حياته. وفي مرة أخرى كمن له أحد آكلي لحوم البشر، وألقى عليه ثلاث سهام، ولكنهم أخطأوه. وكثيرًا ما كان يهرب لحياته من موت محقق. وفي أحد الأيام سمع ثغاءً غريبا صادرا عن عنزاته، فأسرع للتحقق من الأمر، فوجد نفسه محاطا بعصابة من الرجال المسلحين الجاهزين للانقضاض عليه. فتحدث إليهم بلطف وحَزْم قائلاً: "إذا قتلتموني، سيعاقبكم الرب يهوه على هذه الخطية الشنعاء. أنا أحبكم وأريد لكم الخير، فإذا قتلتموني، ستكونون قد قتلتم أعز صديق لكم". ثم بدأ يصلي بصوت مرتفع من أجلهم ومن أجل جميع شعب تانا. وعندما انتهى من صلاته، كان الرجال قد غادروا المكان.

وفي إحدى المرات، أحاطت مجموعة من محاربي "مياكي" منزله ليقتلوه، ولكن جاءهم نبأ بأن سفينة حربية إنجليزية تبحر نحو الميناء، فهرب رجال القبيلة في ذعر. وقال باتون: "أومن أن نفس اليد التي منعت الأسود من لمس دانيآل، منعت هؤلاء المتوحشين من أذيتي".

ولكن الموت هاجم بيت باتون في تانا، فبعد وصول باتون وزوجته بستة أشهر، وضعت الأم ابنهما الأول، ولكن في غضون أسابيع قليلة لقي الاثنان حتفهما إثر الإصابة بحمى شديدة، فدفنهما في قبر مرتفع مغطى بالمرجان الأبيض المسحوق. ورغم وطأة شعوره بالوحدة والأسى وحضّ أصدقائه على ترك الجزيرة، إلا أنه ظل في تانا، إيمانًا منه بأن الله يريده هناك.

أما الآن، ومن مخبإه فوق شجرة الكستناء وسعي المحاربين لقتله، فقد أدرك باتون بأن الوقت قد حان للمغادرة، فأخذ كتابه المقدس وبعض صفحات الترجمة

"التانيَّة" وبطَّانية، وهرب من الجزيرة، في الوقت الذي وصلت فيه سفينة إنجليزية، فترك تانا. وبعد مرور عدة أعوام، جاب فيها باتون حول العالم، وعيَّن فيها بعض المرسلين الجدد وجمع الأموال من أجل تأسيس إرسالية نيوهيبرايدز، وتزوج مرة أخرى، عاد إلى الخدمة، ولكن ليس إلى تانا، حيث أنها ظلت خطيرة، ولكنه ذهب إلى آكلي لحوم البشر، في "أنيوا" أقرب جزيرة إلى "تانا". وبالرغم من تهديداتهم واستجابتهم الباردة لرسالته، إلا أنه كان يعتني بمرضاهم، وأتقن لغتهم وظل يخبرهم عن يسوع المسيح. وبالتدريج نما اهتمامهم بكلامه، وآمن بعض منهم بالرب، ثم جاء الحدث الذي تسبب في تغيير كل من بالجزيرة تقريبًا.

كانت أنيوا جزيرة مرجانية مسطحة، يندر سقوط المطر عليها، وكان الناس كثيرًا ما يمرضون طوال العام من قلة مياه الشرب النظيفة؛ فقرر جون باتون حفر بئر، بعد الصلاة لينجحه الرب، بالرغم من خوفه أن تكون المياه، غير صالحة للشرب إذا وُجدت.

وفي صباح أحد الأيام قال باتون لأحد الرؤساء ذي الشعر الرمادي والبشرة المجعدة: "سأحفر بئرًا عميقة في الأرض، لنرى إذا كان الله سيعطينا ماء عذبًا من أسفل الأرض". فنظر له الرجل وعيناه متسعتان وقال له: "المطر لا يأتي إلا من فوق، فكيف تتوقع من جزيرتنا أن تفيض بالمطر من أسفل؟" فقال له: "إن الماء العذب في وطني، يأتي مندفعًا من الأرض، وأتمنى أن يحدث هذا هنا أيضًا". فقال له الرجل بأسى: "آه يا ميسي، إن عقلك يسير في اتجاه خاطئ، وإلا ما كنت ستتحدث بهذا الكلام". في اليوم التالي اختار باتون بقعة بالقرب من بيت الإرسالية، وأخذ معه فأسا ومجرفة ومطرقة وعتلة، وبدأ مهمته الشاقة بالحفر في الطين والمرجان، وكان يحرز تقدما بطيئًا تحت الشمس الاستوائية الحارقة. ونظم الرئيس العجوز لرجاله نوبات ليراقبوا باتون.

كان الرئيس العجوز يقول لرجاله: "يا له من مسكين ميسي، فهكذا يبدأ الجنون، ولا يمكنك أن تطرد فكرة من أذهانهم، راقبوه وتأكدوا بأنه لن يحاول قتل نفسه". وأخذ باتون يجاهد يومًا وراء الآخر لحفر البئر، وجُرحت يداه وأُنهِكت

عضلاته، ثم ثبَّت بكرة بسيطة، وربط حبلا مثبَّت به دلو لإزالة الطين كلما توغل في الحفرة.

في هذه الأثناء كان الرئيس يتوسل إليه قائلاً: "دعك من هذا الجنون، فلا يوجد مطر في العمق في أنيوا، فإذا وصلت إلى ماء، ستغرق في البحر وستلتهمك أسماك القرش". وعندما وصل بالحفرة إلى ثلاثين قدمًا، وجد أن التربة رطبة، فابتهج باتون ولكنه في نفس الوقت، كان يخشى أن يكون الماء مالحًا. في ذلك المساء، أقبل على مخاطرة كبيرة واضعًا ثقته في صلاح الرب، وقال لرجال القبيلة: "تعالوا إلى البئر غدًا، وأنا أرجو بل وأومن، أن يرسل لنا الله ماء المطر من باطن الأرض"؛ فاجتمع الرئيس ورجاله عند الفجر حول البئر، عندما قفز باتون وبدأ في الحفر لقدميْن أُخريَيْن، فاندفع الماء وملأ قاع الحفرة، وتذوق باتون الماء بيده، فجثا على ركبتيه ليحمد الرب، فلقد كان الماء عذبًا. ثم ملأ إبريقا وأخذه لرجال القبيلة المنتظرين، وأعطاه للرئيس العجوز، الذي غمس إصبعه في الماء بحذر، ووضع بعض القطرات في فمه، ثم صاح بوجه مشرق: "مطر، نعم إنه مطر، ولكن كيف حصلت عليه؟" فأجاب باتون: "يهوه، إلهي أعطاه لنا من أرضه استجابة لعملنا وصلواتنا. اذهبوا وانظروا وهو ينبُع". فحدق الرجال واحد تلو الآخر في البئر، وتملكتهم الدهشة من "مطر الرب".

وقال الرئيس العجوز متعجبا: "ميسي، عجيب هو عمل الرب يهوه! فلم يساعدنا أي من آلهة أنيوا بهذه الطريقة قبلاً، لقد انقلب العالم رأسًا على عقب منذ أن أتى يهوه إلى أنيوا! ميسي هل ستستحوذ على ماء هذا البئر بمفردك، أم ستسمح لنا بمشاركتك إياه؟" فأجابه باتون بابتسامة عريضة: "بل سأسمح لك ولكل شعبك بأن تشربوا منه، وبأن تأخذوا منه ما تريدون، فأنا أومن بأنه سيوجد دائمًا ما يكفينا جميعًا، وكلما استخدمناه كلما تجدد ماؤه، فهذه هي الطريقة لكثير من عطايا الله للناس، ومن أجل هذا نحمد اسمه".

فأخذ الرئيس العجوز باتون من يده جانبًا، وهمس في أذنه قائلاً: "ميسي، أعتقد بأنني أستطيع مساعدتك الأحد القادم، فهل تسمح لي بالوعظ عن البئر؟"

ووافق باتون، وذاع الخبر في جميع أنحاء الجزيرة، بأن الرئيس ناماكي سيلقي العظة يوم الأحد؛ فاجتمع جمع غفير وقد ملأهم الشغف، وعندما وقف الرئيس ليتحدث هدأ الجميع، وارتجف صوته من شدة انفعاله، وهز سلاحه لينتبه الجميع إلى كلماته، فقال: "أصدقائي شعب أنيوا، استمعوا إلى كلماتي، منذ أن جاء ميسي إلينا، كان يتحدث عن أشياء كثيرة عجيبة لم نكن نستطيع استيعابها، وظننا أنها أكاذيب، فلقد قال: إن يهوه يحبنا وأرسل ابنه يسوع المسيح لندخل إلى السماء، وقال إن يهوه يستطيع أن يرسل لنا المطر من باطن الأرض، ولكننا ضحكنا عليه، لكننا الآن نحن نصدق كلامه، فبقوة الله استطاع ميسي أن يخرج المطر من باطن الأرض. وإذا كان الله يهوه يستطيع أن يرسل المطر من الأرض، فلماذا لا يرسل لنا ابنه من السموات؟ والآن أنا رئيسكم أومن بأنه عندما أموت سأرى الإله يهوه الذي لا يُرى، كما قال لي ميسي، مثلما رأيت المطر وهو يخرج من باطن الأرض، فأنا ناماكي أؤيد يهوه!"

في نفس اليوم جمع الرئيس العجوز، والكثير من شعبه، أصنامهم وحرقوها وذهبوا إلى باتون، مشتاقين أن يتعلموا عن الله. في السنوات التالية آمن معظم شعب أنيوا بيسوع المسيح، وترجم باتون الكتاب المقدس إلى لغتهم وعلمهم القراءة. ولم يعد باتون أبدًا إلى تانا، ولكنه عاش حتى شاهد آخرين يعيدون بدء عمله هناك، وابتهج عندما عرف أن بعضًا من شعب تلك الجزيرة المظلمة قد قبلوا الرب.

واتبع العديد من أولاد باتون وأحفاده وأحفاد أحفاده، طريقه في خدمة المسيح في جزر جنوب المحيط الهادئ.

...

هادسون تيلور

مؤسس إرسالية الصين الداخلية

هادسون تيلور ١٨٣٢ م – ١٩٠٥ م

اجتمع جمع غفير حول هادسون تيلور متلهفين لسماع رسالته، وكان هذا أمرًا غير عادي، حيث أن الصينيين لم يهتموا كثيرًا بالاستماع عن يسوع المسيح، منذ وصول تيلور إلى شانغهاي منذ ثمانية عشر شهرًا في مارس ١٨٥٤ م؛ فلقد جعله مظهره، بشعره الأصفر وملابسه الإنجليزية، مختلفًا عن مستمعيه. كان تيلور يرتدي صُدرة مزدوجة ومعطفا إنجليزيا به صفوف من الأزرار من الأمام والخلف، أما الرجال الصينيون، فكانوا يحلقون شعور رؤوسهم تاركين ذيل حصان طويل من الخلف، وكانوا يربطونه بشريط من الحرير. واستمع الناس إليه بانتباه، ولكن كان هناك شخص واقف في المقدمة، بدا عليه الانتباه، وقد انتبه إلى كل كلمة. وانبهر تيلور باهتمام الرجل، واستدار نحوه في ختام رسالته وسأله: "حسنا أيها المحترم، ما رأيك فيما قد استمعت إليه؟" فأجابه الرجل وهو ينحني له: "أجل، أجل، ما تقوله صحيح جدا بلا شك، ولكن أيها المعلم الأجنبي المحترم، هل لي أن أسألك سؤالاً؟" فابتسم تيلور ابتسامة عريضة، فلقد جاء إلى الصين خصيصًا لهذا السبب، فأجابه: "اسأل من فضلك"؟ فقال له الرجل: "لقد كنتُ طوال الوقت أتأمل في ردائك، ولكن لم يتضح الأمر في ذهني، فالثوب الأنيق الذي ترتديه يحتوي في أحد جانبيه على عدد من الأشياء الدائرية، تبدو مثل الأزرار، ومن الناحية المقابلة، هناك فتحات في القماش، ربما تكون مصممة لتدخل بها الأزرار؟" فأجابه هادسون: "أجل إنها مصممة لهذا الغرض". وقد حزن في قلبه وتهدَّل كتفاه، عندما أدرك أن اهتمام الرجل كان بمعطفه وليس بيسوع المسيح.

واستطرد الرجل قائلاً: "إن الغرض من هذا التصميم الغريب مفهوم، فلا بد أنه صُمم ليغلق المعطف الأنيق في الأجواء الباردة أو عند هبوب الرياح، ولكن أيها المعلم الأجنبي، ما لا أستطيع استيعابه، هو الغرض من الأزرار المثبتة في منتصف الظهر". وانضم إليه الناس متسائلين: "أجل لماذا؟ ماذا عن تلك الأزرار

التي في المنتصف؟" ولم يستطع هادسون تيلور أن يعطيهم سببًا مقنعًا للثلاثة أزرار عديمة الفائدة الموضوعة لتزيين المعطف. وفي الوقت الذي بدأ فيه الجمهور بالانصراف ظلت الكلمات: "في منتصف ظهر" ترن في أذنه، فمن الواضح أن ملابسه الإنجليزية قد أعاقت رسالته.

وبعد وقت قصير وبينما كان يجلس، واضعًا ساقا فوق الأخرى، ويأكل طبقًا من بيض البط مع الأرز المحمَّر باستخدام القضبان، نظر إليه العديد من الصينيين وقال أحدهم: "انظروا كيف يستخدم القضبان بشكل جيد؟" وأضاف آخر: "أيها المعلم المحترم، إذا حلقت رأسك وارتديت زِيَّنا، ستكون مثلنا"؛ فقرر تيلور أن يبدو مثل الصينيين، فحلق رأسه تاركًا ذيل حصان في النهاية، وصبغه باللون الأسود. وعندما وضع الثوب الحريري واحتذى الحذاء الصيني، بدا صينيًّا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

وفي اليوم التالي عندما خرج ليعظ، كان التغير الذي حدث في الناس ملحوظًا، فلقد استقبلوه هذه المرة كضيف محترم وليس كأحد الأجانب، وركزوا فيما كان يقول بدلاً من التركيز في ملابسه. وبالرغم من ترحيب الصينيين بمظهره الجديد، فإنه قابل معارضة شديدة من الإنجليز من أعضاء مؤسسة المستوطنة الدولية بشانغهاي، الذين ضحكوا عليه وتجنبوه، بل وقالوا عنه: "إنه يسيء إلى الهيبة البريطانية في عيون المواطنين". وتقزَّز من مظهره بعض المُرسلين الآخرين وظنوا أنه قد فقد عقله. ولكن تيلور لم يغيِّر من موقفه وقال: "علينا أن نسعى لنجعلهم مسيحيين لا ليصبحوا إنجليزًا".

بعد ذلك عندما عرض الزواج على إحدى الشابات الإنجليزيات من مؤسسة المستوطنة الدولية، رفض الأوصياء عليها أن يدعوها تفكر في الأمر، وقالوا لها: "إنه ليس رجلا فاضلا بل جعجاعًا، كما أنه يرتدي ملابس صينية". وبالرغم من النقد اللاذع الذي تعرض له من أهل وطنه، إلا أنه شعر بأن الرب يبتسم له، فاستمر في طريقه وكتب لوالديه يقول: "لابد أن أنتظر الله وأثق به، وكل شيء سيصبح على ما يرام".

وعمل هادسون تيلور لساعات طويلة في الوعظ والاهتمام بالمرضى ومساعدة الفقراء، والبحث عن طرق جديدة ليعمِّق معرفة الصينيين بالأخبار السارة عن يسوع المسيح. ولكن سرعان ما أعياه عبء عمله وأُجبِر على العودة إلى وطنه ليستعيد صحته.

هناك في لندن في مكتبته الصغيرة، كان يعلق على الحائط خريطة كبيرة للصين. وفي كل يوم عندما كان ينظر إليها، كان يجد عينيه تبتعدان عن المدن الساحلية وتتجهان إلى المناطق الشاسعة في الصين الداخلية، حيث يعيش الملايين دون معرفة أي شيء عن الرب يسوع المسيح؛ ذلك لأن المرسلين قد مُنعوا من الخروج خارج حدود بعض المدن الساحلية القليلة. وعندما تملّك هادسون الشعور باحتياج الصين الداخلية الشديد، ذهب لزيارة قادة جميع جمعيات الإرساليات بانجلترا، وتوسل إليهم قائلاً: "عليكم أن تفتحوا الصين الداخلية أمام الإنجيل"، ولكنهم رفضوا طلبه قائلين: "ليس لدينا ما يكفي من المُرسلين، كما أن هذا الأمر مكلف جدا، ومع الحرب الأهلية التي تدور في الصين، لن نستطيع أن نتوغل إلى الداخل، حتى لو كان لدينا المال والرجال".

ولكن تيلور رفض الاستسلام، فسافر عبر البلاد، واستحث الناس في اجتماعات الصلاة وفي الكنائس قائلا: "إن إمبراطورية الصين أكبر من إنجلترا بمائة وأربع مرات، وهناك أكثر من أربعة ملايين يعيشون في تلك الأراضي الواسعة، ومع ذلك لم يقبل المسيح سوى بضعة آلاف، ولا يوجد في الأراضي الداخلية مرسل واحد، وهناك مليون شخص يموتون كل شهر بدون الله".

وفي تجمع كبير لقادة الكنيسة الإنجليزية والأسكتلندية، روى قصة أثرت بشدة في المستمعين فقال: "في أحد الأيام، وبينما كنت مبحرًا على متن سفينة صينية، رأيت شابا صينيا يسقط من على سطح المركب في المياه الضحلة القذرة، فقفزت من فوق سطح السفينة على أمل العثور عليه ولكنني لم أنجح، فنظرت حولي بارتباك، ورأيت بالقرب مني قارب صيد يحتوي على شبكة مثبت بها خطاطيف، وكنت على يقين بأن هذه الشبكة تستطيع أن تنقذه؛ فقلت لهم: "تعالوا وألقوا

بالخطاف في هذه المنطقة بسرعة، فهناك رجل يغرق". فأجابوني قائلين: "ليس هذا بالأمر السهل". فقلت لهم: "لا تحدثوني عما هو سهل! فهناك رجل يغرق". فقالوا: "نحن مشغولون بالصيد ولن نستطيع المجيء". فقلت لهم: "دعكم من الصيد، فسأعطيكم أكثر مما تكسبونه من الصيد، ولكن أرجوكم فلتأتوا الآن". فسألوني: "كم ستدفع لنا؟" فأجبتهم: "لا يوجد وقت لمناقشة هذا الأمر الآن! تعالوا وإلا ستضيع الفرصة، سأعطيكم خمسة دولارات". فأجابوني: "لن نقوم بهذه المهمة بهذا الثمن، أعطنا عشرين دولارًا وسننقب عنه". فأجبت: "ليس لديَّ هذا المبلغ، ولكن تعالوا بسرعة وسأعطيكم كل ما معي!" فسألوا: "كم معك؟" فأجبت: "لا أعرف بالضبط، حوالي أربعة عشر دولارًا". وأخيرًا تحرك القارب ببطء، وألقوا بالشبكة، وفي أقل من دقيقة رفعوا جسد الشخص المفقود. وبدأ الصيادون يطالبون بالمال بغضب، فيما كنت أحاول أن أجعله يتنفس، ولكن كل مجهوداتي باءت بالفشل فلقد كان الشاب قد مات.

وبالرغم من عدم تفوه أي شخص من السامعين بكلمة، إلا أن تيلور استطاع أن يرى في وجوههم العابسة غضبًا بارًّا بسبب اللامبالاة الباردة للصيادين، فاستطرد تيلور قائلاً: "نحن ندين هؤلاء الصيادين، عبدة الأصنام، ونلومهم على موت هذا الشاب، لأنهم كانوا يستطيعون إنقاذه ولكنهم لم يفعلوا، ولكن ماذا عن الملايين الذين نتركهم للهلاك الأبدي؟ وماذا عن الوصية الواضحة (اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها؟)"

وبعدما انتهى تيلور من حديثه، أسرع الكثيرون ليتعهدوا بالمعونات المادية، وسرعان ما انضم سبعة رجال ونساء إلى هادسون تيلور وزوجته ماريا. وهكذا وُلدت إرسالية الصين الداخلية.

كانت إرسالية الصين الداخلية، مختلفة عن جميع الإرساليات الأُخر، فلقد احتفظت بمقر الرئاسة في الصين، وكانت تطالب كل المرسلين بأن يرتدوا الملابس الصينية وأن يحلقوا شعورهم على الطريقة الصينية، ومنعتهم من مطالبة الكنائس أو الأشخاص بإعانات مالية مباشرة. وقد عبَّر تيلور عن هذا قائلاً: "لقد شعرت

أنه من الأفضل أن نترك أنفسنا مفتوحين، لنستقبل الهبات المالية بحسب ما يصنع الله في قلوب أولاده ليرسلوها إلينا". وعندما كان يقلق أحدهم بشأن المال، كان يقول له: "الله متكفل بعمله".

وعند عودة تيلور إلى الصين عام ١٨٦٦، ذهبت عائلته مع ثلاثة مرسلين آخرين إلى يانجشاو، حيث لم يكن هناك غريب قد عاش قبلاً. وبعد وصولهم بوقت قصير، وزع زعماء المدينة بيانات تحذير في جميع أرجاء المدينة تقول: "احذروا الأجانب!" ونشروا الأكاذيب التي تقول إن المرسلين خطفوا الأطفال وأكلوهم. وفي أحد الأيام، استدعاه أحد المسئولين وقال له: "أنا أعرف خططكم جيدًا، فأنتم تعتزمون خداع قلوبنا، ثم الاستيلاء على جميع الأرض".

وفي إحدى الليالي، هاج الشعب الصيني بعد أن استمعوا إلى إشاعة تقول بأن المرسلين قد اختطفوا أربعًا وعشرين طفلاً، فأحاط آلاف من المشاغبين ببيت الإرسالية، حاملين مشاعل في أيديهم، وبدأوا في إلقاء الطوب على النوافذ وهم يصرخون "الشياطين الأجانب!" وأدرك تيلور أن أملهم الوحيد في النجاة، هو استدعاء القوات من لدى حاكم المدينة ليفُض الحشود؛ فصلى صلاة قصيرة، وذهب مع رجل آخر لطلب المساعدة. فصرخ أحدهم وهو يشير إليهم قائلاً: "الشياطين الأجانب يحاولون الهرب". وبالكاد استطاع تيلور وصديقه الوصول إلى المدينة، هاربَيْن من مجموعة من الرجال الغاضبة، الذين كانوا يقذفونهما بالحجارة. وعندما وصلا، خارت قواهما داخل مبنى مجلس المدينة، وكانت الدماء تسيل منهما، وصاحا: "أنقذونا! أنقذونا". وتركهما رئيس مجلس المدينة إلى ما يقرب من ساعة، بينما كانت أصوات الغوغاء ترن في أرجاء المدينة. وقال له رئيس مجلس المدينة بابتسامة ماكرة: "سيد تيلور، أخبرني بما فعلته بهؤلاء الأطفال". فأجابه تيلور بانحناءة: "سيادة الحاكم، نحن نعيش في مدينتكم بشكل قانوني، ولم نقترف أي خطأ، وأنت مسؤول عن الحفاظ على القانون والنظام، وستُحاسَب إذا ما فُقدت أي روح". وبعد كثير من التردد، وافق الحاكم على إرسال بعضٍ من رجاله، ولكن تيلور كان يخشى أن يكون الوقت قد تأخر. وعندما عادا مع الحراس المسلحين،

وجدا أن بيت الإرسالية قد احترق جزئيا ووجدا الأثاث متهشمًا والكتب محروقة ومبعثرة حول فناء المنزل، وقد سرق اللصوص معظم ممتلكاتهم، ولم تكن هناك أية علامة على وجود حياة بالداخل. ولكن في وسط حالة الشغب، قفزت ماريا والأطفال وباقي المرسلين من النافذة بالطابق الثاني، واختبأوا في بيَّارة البئر ثم أفلتوا إلى غرفة خلفية بمنزل أحد الجيران، حيث وجدهم تيلور مصابين ولكن على قيد الحياة. وفي وقت متأخر من تلك الليلة، وبعد مغادرة الحراس، جاء اللصوص لسرقة ما تبقى من ممتلكاتهم، فخرج هادسون إلى فناء البيت ووقف على كرسي مكسور وقال: "لقد جئنا من بلاد بعيدة من أجل مصلحتكم، فإذا كنا نريد أن نلحق بكم الأذى فهل كنا سنأتي غير مسلحين؟ أو مع نسائنا وأطفالنا؟ سرقتم ممتلكاتنا بدون سبب، وحاولتم حرق منزلنا، والآن تعودون بجشع لتسرقونا وتلحقوا بنا المزيد من الضرر، مع أننا لم نرفع عليكم عصا، ولم نلقِ عليكم حجرًا، وحتى إن آذيتمونا، لن نرد لكم الشر بالشر، ولكن إلهنا الذي نضع ثقتنا فيه، قادر على حمايتنا وعلى معاقبتكم إذا أغضبتموه". فانسحب اللصوص في خجل.

وفي اليوم التالي طلب منهم قائد حرس المدينة أن يغادروا يانجشوا، وقال لهم: " إن رجالي لا يستطيعون تهدئة الناس. سأرسلكم بعيدًا تحت الحراسة بالقوارب، وعندما ننتهي من ترميم المنزل سندعوكم للعودة".

وقضى المبشرون الثلاثة أشهر التالية، بعيدًا في الصلاة حتى يليّن الرب قلوب الناس في يانجشوا. وعند عودتهم، وجدوا الشعب مستعدا للاستماع عن يسوع المسيح، وهؤلاء الذين كانوا يحاولون قبلاً قتلهم، جلسوا الآن عند أرجلهم ليتعلموا منهم. وسرعان ما وضع الكثيرون من أهل المدينة ثقتهم في يسوع المسيح من أجل غفران الخطايا. في تلك الأثناء، رسم تيلور خططًا لإرسال المزيد من المرسلين إلى الصين الداخلية.

في السنوات التالية، أرسلت إرسالية الصين الداخلية مرسلين من الرجال والنساء إلى جميع محافظات الصين؛ وقبل وفاة هادسون تيلور عن عمر يناهز

الثانية والسبعين، كان هناك ما يزيد عن ألف مُرسل في الصين الداخلية، وقد جذب الله مئات الآلاف من الصينيين من خلال مجهوداتهم.

...

إمي كيرمايكل

أم الأطفال المنبوذين

إمي كيرمايكل ١٨٦٧ م – ١٩٥١ م

في طفولتها علمتها والدتها أن تطلب أي شيء من الله، لأنه وعد بأنه يسمع ويستجيب. وهكذا ركعت إمي، البالغة من العمر ثلاث سنوات، إلى جانب السرير وصلت بحرارة قائلة: "إلهي الحبيب، أرجوك اجعل لون عيني أزرقا بدلاً من البني، آمين". وبهذه الكلمات صعدت إلى فراشها ونامت واثقة بأنها ستستيقظ بعيون زرقاء متألقة. وفي الصباح أسرعت إمي إلى المرآة، لتكتشف بأن عيونها لا تزال بنية كما كانت؛ وبينما كانت خيبة الأمل تملؤها، فجأة أدركت بأن الإجابة بـ "لا" مثلها مثل "نعم" وتعلمت درسًا قيّمًا، أن الله يستجيب إلى الصلوات ولكن غالبًا ما تكون إجابته بـ "لا".

لقد قام السيد كيرمايكل وزوجته بتربية أولادهما الأربعة وبناتهما الثلاث تربية حازمة رصينة، ولكن بنظرة مبتهجة للعالم، فلقد وضعا القواعد السلوكية بوضوح، وكانا يعاقبان أولادهما على الفور، عن عدم الطاعة. وكان على الأولاد أن يتقبلوا كل العقوبات بأدب وبقولهم: "أشكرك يا أبي" أو "أشكرك يا أمي". وكان هناك جرس يدعو الأسرة لقضاء وقت في التأمل، فكان والد إمي يقرأ الكتاب المقدس، ويخبر الأطفال قصصا عن الشهداء من الرجال والنساء الذين ضحوا بكل شيء حتى يبقوا مُخلِصين للمسيح.

وكان موت والد إمي المفاجئ اختبارا لإيمانها، وبرغم صعوبته، إلا أنها لم تُصَب بالشك والغضب، ولكنها استخدمت حزنها لتخدم الآخرين بإخلاص، خاصة في التخفيف عن عبء والدتها في رعاية إخوتها الصغار.

وحدث تحوُّل آخر أعظم في حياة إمي، ففي صباح أحد أيام الآحاد المطيرة والرياح العاتية، وبينما كانت في طريقها إلى الكنيسة مع عائلتها، قابلوا امرأة عجوز تحمل حملا ثقيلاً، فأشفقت هي وإخوتها عليها، وحملوا عنها حملها وساروا معها؛ فاستاء أعضاء كنيستها الوجهاء عندما شاهدوا هذا المنظر. وبالرغم من شعور

إمي وإخوتها بالخجل والإحراج، إلا أنهم ساروا متعثرين مع المرأة العجوز. وفجأة لمعت الكلمات التي ذكرت في كورونثوس من خلال قطرات المطر من السماء: "وَلَكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَبْنِي عَلَى هَذَا الأَسَاسِ ذَهَبًا، فِضَّةً، حِجَارَةً كَرِيمَةً خَشَبًا عُشْبًا قَشًّا، فَعَمَلُ كُلِّ وَاحِدٍ سَيَصِيرُ ظَاهِرًا، لأَنَّ الْيَوْمَ سَيُبَيِّنُهُ. لأَنَّهُ بِنَارٍ يُسْتَعْلَنُ، وَسَتَمْتَحِنُ النَّارُ عَمَلَ كُلِّ وَاحِدٍ مَا هُوَ".

وكتبت إمي فيما بعد هذه الكلمات: "إن الوميض الذي يصيب بالعمى أتى وذهب؛ فلقد كان كل شيء عاديًّا حولنا، وواصلنا دون أن أقول شيئًا لأحد، ولكنني علمت بأن هناك شيئًا قد حدث غيَّر قِيَم الحياة، ولم يعد هناك شيء ذو قيمة سوى الأمور الأبدية". وتحرك قلب إمي نحو أطفال الحي، فنظمت لهم برنامجا أسبوعيا لدراسة الكتاب المقدس والترتيل والصلاة. وأحبت إمي السيدات الفقيرات المنبوذات من معظم أعضاء الكنيسة، وكانت الحواجب ترتفع، دلالة على الدهشة، عندما كانت تدخل إمي الكنيسة مع السيدات "اللاتي تنتمين للجانب المُخزي من المدينة".

وإلى جانب أولئك الذين كانوا بحاجة إلى المسيح في مجتمعها، كانت إمي تصلي من أجل الملايين التي لا تحصى من الآسيويين، الذين كانوا يعيشون في ظلام الوثنية والمعتقدات الخرافية. وكانت تشعر كما لو أن يد الله تدفعها إلى حقل الإرساليات البعيدة. ولكن ماذا عن والدتها الأرملة؟ هل ستتركها؟ فكتبت إمي لوالدتها خطابًا طويلا، تصف لها عن رغبتها في خدمة المسيح في آسيا؛ فردت عليها والدتها قائلة: "إمي الغالية، لقد أعارني الرب إياكِ كل هذه السنوات، فهل أستطيع أن أرفض عندما يطلبك الآن لتذهبي عني؟ بالطبع لا يا إمي، فالرب لك وأنت له، ليأخذك أينما يشاء وليستخدمك حسب مشيئته". فشكرت إمي الله بدموع الفرح على رد والدتها، وخلال فترة قصيرة، تحديدًا في عام ١٨٩٥ م، تركت وطنها واتجهت إلى جنوب الهند.

لقد طغت على أحاسيس إمي رؤيتها للفقر والمناظر الغريبة والأصوات والروائح التي يعيش فيها الهنود، وعبوديتهم للأصنام وتقدمات البخور والزهور

والطعام، لصور خشبية أو معدنية، وعدم تعاطفهم مع الفقراء. كما أنها لاحظت أن نظام الطوائف الصارم، قد ألقى بالظلام الروحي على البلاد.

لقد كان نظام التصنيف، هو أساس الديانة الهندوسية، فلا بد وأن يولد كل شخص تحت ظل طبقة معينة وفي مكانة اجتماعية محددة، وهناك يبقى. ويفرض عليك هذا التصنيف الشخص الذي ستتزوج به، كما يفرض عليك عملك ومكان إقامتك. وعندما علمت إمي المزيد عن هذا النمط من الحياة، كسرت قساوته قلبها.

وفي أحد الأيام، عندما كانت في زيارة لأحد أكواخ الأسر الفقيرة، رأت إمي صبيًّا صغيرًا يعاني آلامًا مبرحة إثر إصابته بمرض في عينيه. فلم يكن ينام وكان يبكي باستمرار، ويحُكّ عينيه المتورمتين المحمرتين. وعادت لزيارة هذه الأسرة بعد شهرين ووجدت الصبي وقد أوشك على الموت ولا يزال يبكي من عينيه الملتهبتين. فتوسلت كيرمايكل إليهم قائلة: "أرجوكم، خذوه إلى المستشفى، فبإمكانهم أن يساعدوه هناك". فأجابها الأب بصرامة: "لا، لن نستطيع أن نفعل ذلك، فالذهاب إلى المستشفى يتعارض مع تصنيفنا". فسألتهم: "وهل ستتركونه يعاني إلى أن يموت أو يصاب بالعمى؟" فأجاباها وهما يهزان أكتافهما: "وماذا نستطيع أن نفعل؟ هل نكسر تصنيفنا؟" فصلَّت إمي ثم تركت المنزل وهي تبكي، ولم تستطع أن تكف عن التفكير في المعاناة التي لا لزوم لها للصبي الصغير. لقد جعل نظام التصنيف الهندوسي اعتناق المسيحية عسيرا على أي رجل أو امرأة، فتى أو فتاة؛ فقبولهم للمسيح يعني انتهاكهم لنظام التصنيف، فكل من كان يقبل المسيح كان يُهدَّد بالقتل، والبعض منهم قُتل بالفعل، فكانت فتاة تفكر في اعتناق المسيحية فقال أبوها: "سأحرقها بالنار قبل أن تفعل ذلك".

كانت المخاطر تحيط بالمبشرين أيضًا، ففي إحدى المرات، عندما قبلت إحدى الفتيات المسيح وهربت لتختبئ في بيت الإرسالية، أحرقت أسرتها مدرسة الإرسالية، وكانت التهديدات تحيط بهم من كل جانب. وفي أحد خطاباتها إلى وطنها كتبت إمي تقول: "صلوا حتى نستطيع نحن جنوده المكرسين بالخارج، أن نلقي بقفازات طفولتنا ونحارب". وكانت كيرمايكل تتمنى أن تقضي أيامها في

السفر، لتخبر الناس عن يسوع المسيح، أو لتقيم اجتماعات تبشيرية، ولكن جاءتها فتاة تدعى بيرليز، تبلغ من العمر سبعة أعوام، غيَّرت مسار حياتها.

كانت والدة بيرليز قد أرسلتها إلى معبد هندوسي كـ "خادمة للآلهة"، ولكن بيرليز لم ترغب في المشاركة في أعمال المعبد الشريرة، فهربت من المعبد وعادت إلى والدتها وتوسلت إليها حتى لا تعيدها إلى هناك، ولكن والدتها خشيت من غضب الآلهة، فأجبرتها على العودة إلى المعبد. ولكن بيرليز رفضت البقاء، وبالرغم من وضعها تحت المراقبة الشديدة، إلا أنها تمكنت من الهروب مرة أخرى، ووجدت طريقها إلى منزل كيرمايكل بالإرسالية بدونافور، وتوسلت إليها حتى تمكث لديها. ووصفت الطفلة الصغيرة لكيرمايكل الأعمال الشريرة التي تُجرى في المعبد، فقالت لها إمي وهي تحتضنها: "بيرليز، لك مكان بيننا". وهكذا بدأ عمل كيرمايكل في إنقاذ الأطفال الذين تم نذرهم للمعابد، وسرعان ما بدأت في لعب دور الأم لعشرات الأطفال.

هناك مثل هندي قديم يقول: "الأطفال يوثقون أقدام أمهاتهم". ووجدت كيرمايكل أن هذا المثل حقيقي، ففي بادئ الأمر كانت تشعر بالإحباط عند تغيير حفاظاتهم وتنظيف أنوفهم وإعداد الوجبات الكثيرة وهدهدة الصغار منهم حتى يناموا. وتساءلت كيرمايكل: "هل من الصواب التحوُّل عن ما يبدو ذا فائدة عظيمة-مثل (الرحلات التبشيرية والاجتماعات المسيحية المعتادة وغيرها) - إلى مربية أطفال؟"

ولكن بعد مرور بعض الوقت، كانت إمي مسبيَّة بصورة المسيح وهو مؤتزر بالمنشفة وواقف ليغسل أرجل التلاميذ، فلم يكن السيد ينظر إلى الخدمات المتواضعة على أنها خدمات صغيرة غير هامة. وهكذا تركت إمي الأطفال "ليوثقوا أقدامها" عن طيب خاطر، من أجل محبة من ثُقِبت قدماه. وكان الأطفال ينادونها بـ "أما" وتعني "أمِّي" وكانت هي تناديهم "براعم اللوتس". وعندما زاد عدد الأطفال، بنوا لهم مدرسة وعيادة طبية. وبالرغم من إصرار إمي على النظام والطاعة، إلا أنها سعت لتملأ حياتهم بالبهجة، فكانت تقول: "لا بد وأن تحيط الضحكات بالأطفال" فكانت تضحك وتلعب معهم وملأت المنزل بالترنيم. وكانت تعلِّمهم كيفية

زراعة الورود في الحديقة، وذلك بإعداد التربة وبذر البزور وريّها، فكانت الزهور الجميلة تحيط بالمنزل طوال العام، وذلك بسبب الجو الدافئ في جنوب الهند.

وظلت كيرمايكل خمسين عامًا تربي الأطفال من أجل الرب، وكتبت كتبًا عن الأطفال، وعن الأحزان والأفراح التي تمر بحياة المؤمن. ولا تزال العشرات من كتبها تطبع، لتلهم المؤمنين ليتبعوا خطوات يسوع المسيح. وماتت إمي عن عمر يناهز الثالثة والثمانين، ودُفنت في الأرض التي كانت تعمل بها. وتحقيقًا لرغبتها، لم يوضع شاهد قبر ليدل على موضع دفنها. واستمرت مؤسسة دونافور في تكملة عمل كيرمايكل، ووفرت مكانًا للأطفال المحتاجين.

...

العصر الحديث

تأييد المسيح

في الــ ١٥٠ عامًا الأخيرة، تأثرت الكنيسة بعدم إيمان العالم الحديث، ولكن الله أقام لنفسه شهودًا جسورين ليؤيّدوا المسيح وصحة الكتاب المقدس. من هؤلاء:

* تشارلز سبرجين
أمير الوعاظ
* مسيحيو الصين
في ثورة الملاكمين
* أبراهام كويبر
لاهوتي ورجل دولة
* ج. جريشام ماكين
جسور من أجل الحق
* سي. إس. لويس
مؤلف نارنيا
* ريتشارد ورمبراند
عُذِّب من أجل المسيح

تشارلز سبرجين

أمير الوعاظ

تشارلز سبرجين ١٨٣٤ م – ١٨٩٢ م

في عام ١٨٤٣ م، بمدينة ستامبورن بإنجلترا، كان باب مكتبة القس سبرجين مفتوحًا جزئيًّا، فاسترق النظر الصبي الصغير، تشارلز سبرجين الذي يبلغ تسعة أعوام، حيث كان جدّه يضع رأسه بين كفيه ويتنهد بعمق بينما كان حاجباه مقطَّبَيْن. فلقد كان القس سبرجين جالسًا حزينا على توماس رودز، أحد أعضاء كنيسته المرتدِّين، والذي أدار ظهره للكنيسة وقضى كل وقته في الشراب حتى الثمالة في الحانة المحلية.

وعندما رأى الصبي الصغير جدّه الذي كان بطله، في هذه الحالة، حزن قلبه. وعندما فكر في السيد رودز، ضاق صدره وارتجف صدغاه، وعقد العزم أن يفعل شيئًا. فاندفع إلى الغرفة وقال لجدّه: "سأقتل رودز العجوز، أجل سأقتله". فجدّه الذي صُدم بهذا الاندفاع، حاول أن يهدئ من روعه وقال: "اهدأ يا عزيزي. من غير اللائق أن تتحدث بهذا الأسلوب، وإذا اقترفت أي خطأ ستقبض الشرطة عليك". فأجابه تشارلز: "لن أقترف أي خطأ يا جدّي ولكني سأقتله، أجل سأقتله".

وخرج تشارلز من المنزل وسار في الممر المليء بالأتربة متوجها إلى الحانة، ونظر إلى الغرفة المزدحمة بالداخل، من خلال نافذة متسخة. ورأى السيد رودز جالسًا مستلقيا على كرسيه يضحك من كل قلبه. فدفع تشارلز الباب، واقترب بجرأة من السيد رودز وأشار إليه بإصبعه وقال: "ماذا تفعل هنا بجلوسك مع الأشرار؟ أنت عضو في الكنيسة وقد كسرت قلب راعيك. أنا أخجل منك، فلن أكسر قلب راعيَّ بكل تأكيد".

واستدار تشارلز وأسرع ليخرج من الباب. وعند عودته إلى منزل جدّه أعلن قائلاً: "لقد قتلت رودز العجوز، ولن يحزن قلب جدّي العزيز بعد الآن". فشحب وجه القس سبرجين وجذب تشارلز إليه وسأله: "ماذا فعلت يا بني؟ وأين كنت؟"

فأجابه تشـارلز: "لم أقم بأي شـيء ضـار يا جدّي، ولكنني كنت أقوم بعمل الله، وهذا كل ما في الأمر".

ثم خرج تشـارلز ليلعب تاركًا جدّه قلقًا ومتحيرًا بشـأن ما فعله. ولم يمضِ وقت طويل حتى حضـر السـيد رودز، وقرع باب القس سـبرجين الأمامي وقال وعيناه مثبتتان إلى أسـفل: "أنا آسـف بالفعل يا راعيَّ العزيز، لأني أحزنت قلبك. أنا أعرف أن ما فعلته كان خطية، لكنني طالما أحببتك وما كنت لأفعل ذلك لو أني فكرت قليلاً".

فاحتضـن القس سـبرجين السـيد رودز وأكد له على محبته وغفرانه، ثم أخبر السـيد رودز القس سـبرجين بما فعله تشـارلز وقال: "عندما أفكر بأن رجلا مُسِـنًّا مثلي يجب أن يوبَّخ ويؤدَّب من طفل صـغير مثل تشـارلز أخجل. لقد شـعرت بالغضـب لما قاله، ولكنني أعرف أن كل ما قاله صـحيح وبأنني مذنب. لذا وضـعت غليوني جانبًا ولم ألمس جِعَتي، وأسـرعت خارجًا في موضـع خلاء، وسـكبت نفسـي أمام الله، واعترفت بخطاياي ورجَوْت منه الغفران. وأنا أثق أن الله برحمته قد غفر لي. والآن لقد أتيت لأطلب منك أن تسـامحني، ولن أحزن قلبك مرة أخرى يا راعيَّ الحبيب". وكانت توبة السـيد رودز حقيقية ودائمة، فلقد ترك طرقه الآثمة وظل مسيحيًّا جادًّا أمينًا في العبادة والصلاة".

وبالرغم من ترعرع تشـارلز في كنيسـة وبيت مسـيحيين، حيث تعلم الأخبار السـارة عن المسـيح جيدًا، إلا أنه لم يكن قد حصـل على قلب جديد من الروح القدس. وكتب سبرجين في هذا الشأن: "كان النور موجودًا، ولكنني كنت أعمى". وعندما بلغ الخامسـة عشرة، فإن ضـياعه أمام الله وإحساسـه بذنب خطاياه أثقلته كثيرًا. وفي صـباح أحد أيام الآحاد، في وسـط عاصـفة ثلجية، دخل كنيسـة ميثودسـت (إصـلاح) صـغيرة، ونفض الثلج من على معطفه وحذائه وجلس مع القليلين من المتعبدين. ولكن الراعي لم يحضـر، وأخيرًا تقدم إلى المنبر رجل نحيف كان تاجرا غير متعلم، وقرأ سطرًا من الكتاب المقدس: "التفتوا إليَّ واخلصوا يا جميع أقاصـي الأرض، لأني أنا الله وليس آخر". وقال: "أصـدقائي الأعزاء،

هذا النص في غاية البساطة، فهو يقول التفتوا إليَّ. الكثيرون منكم ينظرون إلى أنفسهم ولكن لا فائدة من هذا، فلن تجدوا الراحة في نفوسكم". وبعد أن تحدث لبضع دقائق، نظر إلى سبرجين وقال: "أيها الشاب، أنت تبدو بائسًا، وستظل بائسًا، بائسًا في حياتك وبعد مماتك، إذا لم تطع هذا النص، ولكن إذا أطعت الآن ستخلُص". وفي الحال نظر سبرجين إلى يسوع المسيح، الذي صنع منه إنسانًا جديدًا. ثم انضم تشارلز إلى كنيسة معمدانية، ولم يمضِ وقت طويل على انضمامه حتى بدأ الوعظ. ولكن كيفية بدئه الوعظ وهو في عمر السادسة عشرة كانت مذهلة.

في صباح أحد أيام السبت، فإن السيد فينتر، مدير إحدى الجمعيات التي ترسل الوعاظ غير المرتسمين إلى القرى البعيدة، قام باستدعاء تشارلز سبرجين وسأله: "هل تذهب إلى تيفرشام مساء يوم الأحد؟ فهناك شاب غير معتاد على قيادة الخدمة سيعظ هناك وسيسعد بصحبتك". فيما بعد أُعجب سبرجين ببراعة طلب فينتر، فالشاب الذي كان سيعظ هو سبرجين نفسه. وحدث الأمر هكذا: عندما لاح مساء يوم الأحد، بدأ رحلته إلى تيفرشام مع الشاب الذي طلب منه فينتر أن يساعده، وفي طريقهما تشاركا سويًّا في بعض الأحاديث اللطيفة، إلى أن قال سبرجين: "أتمنى أن تشعر بحضور الله الليلة أثناء الوعظ". فتوقف الرجل من هول المفاجأة وقال: "لم أعظ قبلاً في حياتي، ولن أستطيع القيام بهذا، فأنت من سيعظ، فلقد طُلِب مني أن أرافقك وأدعمك". فوقف سبرجين لدقيقة عاجزًا عن الكلام، ثم توسل إلى الآخر قائلاً: "أنا لست راعيًا، فأنا أيضًا لم أعظ من قبل كما أني غير مستعد على الإطلاق". فرد عليه الآخر قائلاً: "ولكن يا سيد سبرجين أنا هنا لأشارك في أي جزء آخر من الخدمة، ولكن إذا لم تعظ أنت هذا المساء فلن تكون هناك عظة". فأحنى سبرجين رأسه وهيأ نفسه ليقدم أفضل ما يمكنه، وصلى قائلاً: "إلهي، ساعدني لأخبر هؤلاء القرويين المساكين عن حلاوة يسوع ومحبته". وفي تيفرشام، دخلا غرفة منحدرة قليلاً لكوخ مسقوف بالقش، حيث اجتمعت بعض الأسر الفقيرة للعبادة، وحال البدء في الوعظ، اختفى شعوره

بالارتباك حيث قدم رسالة بسيطة عن محبة المسيح، وانبهر القرويون بكلماته الفصيحة والحماسية واستولى على انتباههم، واغرورقت الكثير من العيون بالدموع.

ومع انتهاء الخدمة، سألته إحدى السيدات قائلة: "نحن ممتنون جدًّا، كم تبلغ من العمر؟، فأجابها سبرجين: "لا عليك من عمري، ولا تفكري غير في يسوع المسيح وما لا يرضيه". وأطلقوا عليه: "الواعظ الصبي" وتوسلوا إليه ليعود إليهم مرة أخرى. وسرعان ما بدأ تشارلز في الوعظ كل مساء، في كافة أنحاء المنطقة الريفية وفي الأجران وبيوت المزرعة وحجرات الاجتماعات. وآمن عدد كبير من الناس بيسوع المسيح، وانتقلت أنباء "الواعظ الصبي" من قرية إلى أخرى.

وسأل أحدهم تشارلز قائلاً: "كيف تفعل ذلك؟" فأجابه: "أبذل قصارى جهدي لأتحدث بلغة إنجليزية بسيطة واضحة يستطيع الطفل فهمها".

وفي عام ١٨٥١ م، عندما بلغ تشارلز سبرجين السابعة عشر من عمره، ورغم عدم حصوله على شهادة جامعية أو تدريب في كلية اللاهوت، استدعته كنيسة قرية ووتربيتش ليكون راعيها. وكان أعضاء الكنيسة الأربعون في كنيسة صغيرة، كانت قبلاً خطيرة للحمام، وكان الفقر والسكر والجريمة يسيطرون على ووتربرج، إلى أن "قلب الله القرية بأكملها رأسًا على عقب"، كما وصفها سبرجين.

وبعد أن بدأ سبرجين في الوعظ بوقت قصير، بدأت الكنيسة في الازدحام وكان المتشردون والمجرمون متصلبو الرقبة، الذين جاءوا ليسخروا من "الواعظ الصبي" ينهمرون في البكاء، وقال سبرجين: "إن المكان الذي كان ممتلئًا بالسرقة، بل وجميع أنواع الجرائم، قد خلا منها، لأن الرجال الذين اعتادوا على ارتكاب هذه الجرائم، كانوا في بيت الله مبتهجين لسماعهم عن يسوع المسيح المصلوب". وكانت التسبيحات المبهجة تدوّي في كل زقاق وممر، تلك الأماكن التي لم يكن يُسمع فيها سوى الصراخ واللعنات.

ولم يمضِ وقت طويل حتى لفت سـبرجين أنظار كنائس لندن. وبالرغم من محبته العميقة لشعب كنيسة ووتربرج، قَبِل دعوة كنيسة شارع نيو بارك في لندن، فلقد كان يتوق أن يوصـل رسـالة الحياة إلى ملايين النفوس الضـائعة التي كانت تعيش في تلك المدينة العظيمة. وكانت كنيسة شارع نيو بارك تتألف من ١٢٠٠ شخص، ولكن عدد من كانوا يحضرون إلى الكنيسة لم يتعدَّ الـــ ٢٠٠. لكن في خلال أسـابيع قليلة من وصـول سـبرجين، بدأ الناس في الازدحام في الكنيسـة. وكان المسـتمعون يزدحمون خارج الشـبابيك المفتوحة ليسـتمعوا إلى العظة. فقرر موظفو الكنيســة بناء كنيســة جديدة كبيرة جدًّا. وأثناء تشــييدها اســتأجروا قاعة موسيقى حد*ائق سوري* حيث كان أكثر من ١٠ آلاف شخص يزدحمون ليستمعوا إلى عظة سـبرجين كل أحد. وقَبِل المسـيح عدد لا يحصـى من جميع الطبقات، من النبلاء الأثرياء إلى الشحاذين.

وحدث ذات مرة، عندما كان مدعوًّا ليعظ في واحدة من أكبر قاعات الاستماع بلندن، أن قرر سبرجين أن يزور القاعة في اليوم السابق للعظة، ليبحث عن أفضـل موقع للمنبر. وحتى يختبر إلى أي مدى سـيُسـمع صـوته، صـاح بصـــوت مرتفع: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم". وكان هناك عامل في موضـــع عالٍ في إحدى الشـــرفات العلوية، وقد اســـتمع إلى تلك الكلمات التي نخست قلبه، وتملَّكه الشعور بالذنب، فألقى بأدواته، وأسرع إلى منزله وسرعان ما وجد الغفران والحياة الجديدة في يسوع المسيح.

وظل تشـارلز سـبرجين راعي كنيسـته حتى وفاته عن عمر يناهز السـابعة والخمسين. وقد استخدم سيف عظاته وكتاباته الكتابية، ضد خدام الفكر الليبرالي الذين رفضـوا عصـمة الكتاب المقدس واسـتخفُّوا بالخطية وأنكروا قيامة المسـيح بالجسد. وقال عنهم سبرجين: "إن أعداء الإيمان هؤلاء، ينتظرون منا أن ندعوهم إخوة وأن نتحالف معهم!"

وقد حثَّه الكثيرون أن يتجنب الجدال وأن يعظ بالإنجيل فقط، ولكن سبرجين شـعر باضـطراره إلى الدفاع عن الإيمان المسـيحي، وعن كلمة الله، وقال: "إن

الجدال ليس أمرًا يسعد أحد أبناء الله، لكنه يفضل أن يكون في شركة مع الرب، عن الانشغال بالدفاع عن الإيمان أو لمهاجمة الضلال. ولكن جندي المسيح لا بد وأن يتبع أوامر سيده".

وعلى مر السنين أصبح سبرجين أشهر واعظ مسيحي في العالم، فكان يعظ لعشرات الآلاف من الناس كل أسبوع. وكتب سبرجين تفاسير لأجزاء من الكتاب المقدس وبعض الكتب التعبُّدية الأخرى، التي بيع منها ملايين النسخ، فمنذ أيام هوايتفيلد وويسلي، لم يبارك الله شعبه بواعظ إنجليزي مثله. وإلى يومنا هذا لا تزال كتاباته وعظاته المكتوبة تجذب الناس إلى يسوع المسيح.

...

مسيحيو الصين

في ثورة الملاكمين

ثورة الملاكمين ١٩٠٠ م – ١٩٠١ م

بدأ القرن العشـرون باضـطهاد عنيف في الصـين، فإن أعضـاء المجتمع السري والذين عُرفوا بالملاكمين وبكراهيتهم للأجانب والمسيحيين، بدأوا في إطلاق الأكاذيب على المسيحيين عبر البلاد، مثل: "المسيحيون الأشرار يسببون الشغب في بلادنا". واندفعوا عام ١٩٠٠ م، عاقدين العزم على قتل كل المرسلين الأجانب والمسـيحيين الصـينيين في البلاد. وهكذا تجمَّعت عصـاباتهم وحطموا الكنائس وأحرقوا المنازل وقتلوا الآلاف من المسيحيين. وقد خاطر الكثيرون من الصينيين المسيحيين بحياتهم، من أجل حماية المرسلين، وواجهوا الموت بإيمان وشجاعة.

وفي أواخر مايو ١٩٠٠ م، كان القس مينج في مؤتمر كنسي ببكين، عندما جاءت الأنباء بأن الملاكمين يحطمون طريق السكة الحديد الذي يصل بين بكين وموطنه، فقرَّر العودة إلى منزله في الحال، في حين أن أصـدقاءه، الذين كانوا قلقين على سـلامته، توسـلوا إليه حتى يبقى بينهم، ولكنه قال لهم: "إن المرسـلين وأعضـاء الكنيسـة بحاجة إليَّ". وعاد إلى بيته. وبالرغم من الخطر المحيط به، استمر في وعظه لشعب كنيسته وفي كنيسة الشارع. وسأله رجل محترم في أحد الأيام قائلاً: "لماذا لا تتوارى لبعض الوقت؟" فأجابه مينج: "أنا راعي القطيع، فهل أتركهم؟" وطلب منه شـخص آخر أن يترك المرسـلين الأجانب، فلكونه رجلاً صـينيًّا، يسـتطيع أن يجد مكانًا آمنًا بسـهولة حتى تمر الأزمة. فرد عليه مينج قائلاً: "إن المرسلين قد وقفوا بجانبنا وسأبقى وأحيا أو أموت معهم". وبنهاية شهر يونيو، كان الملاكمون قد سيطروا على المدينة، وكان الكل يعرف أن هؤلاء الذين يعيشـون في مبنى الإرسـالية في عداد الموتى. وكان لا يزال لدى المسـيحيين الصينيين الوقت ليهربوا من مبنى الإرسالية، أما المرسلون الأجانب الثلاثة، فكان من الصعب خروجهم خفية.

فجذب القس مينج ابنه وقال له: "تي–تو لقد اتفقت مع صديق لي أن يخبئك من الملاكمين، أما أنا فلا أستطيع أن أتخلَّى عن أصدقائي المرسلين والمسيحيين، الذين ليس لهم أحد يعتمدون عليه ســـواي، ولكنني أريدك أن ترحل لتكمل العمل الذي بدأته بعد أن أرحل من هذا العالم". فأجابه ابنه والدموع في عينيه قائلاً: "أبي، أريد أن أمكث هنا معك، فأنا لا أخشـى الموت". فأجابه والده: "لا، إذا قُتِلنا جميعًا فمن سـيبقى ليخبر هؤلاء المسـاكين عن يسـوع المسـيح؟" وتسـلق تي–تو الجدار المرتفع لمبنى الإرسالية في منتصف الليل ونجا بحياته. وفي اليوم التالي، عندما كان القس مينج يعظ في كنيسة المدينة، اقتحم الملاكمون الكنيسة وضربوه على رأسـه وجروه إلى معبد وثني، وأمروه بأن ينكر إيمانه وأن يكشـف عن مكان المسيحيين الذين بالمدينة. وبالرغم من حرقهم لكتفه بشموع مشتعلة، ومن فصلهم إحدى ذراعيه عن المفصـل، لم يخبرهم مينج بشـيء. وعندما اتضـح لهم بأنه لن يتعاون معهم، سحب الملاكمون سكاكينهم وأردوه قتيلاً.

وذهب تي–تو ليدرس في أكاديمية مســـيحية، حيث تم إعداده للخدمة، ثم عاد إلى مدينته ليكتشـف أن جميع أفراد عائلته تقريبًا قد قُتلوا بواسطة الملاكمين، فقال: "لا أشـعر بالحزن أو الوحدة، فكيف كان يمكنني أن أفكر من شـهور قليلة، أثناء الرعب الذي أثاره الاضـطهاد، بأنني سـأكون قريبًا مع أصـدقائنا المسيحيين، وبأنني سـأحظى بفرصـة للدراسـة، وبأنني سـأسـتطيع أن أذهب كل يوم أحد إلى الكنيسة مع مئات من شعب الرب، الذين نجوا من الملاكمين؟ لقد كان الله صالحًا جدًّا معي".

كانت السيدة كاو وابنتها جيسيكا، التي تخرجت حديثًا من مدرسة الإرسالية ببكين، امرأتين جميلتيْن وذكيتيْن وتقيتيْن، وقد قضت السيدة كاو أيامها في تبشير السـيدات بيسـوع المسـيح. وكانت تزور العيادات الطبية والمنازل لتوزع كتبًا ونبذًا مسيحية والكتب المقدسة، وتشارك الناس بإيمانها بالمسيح. وفي أحد الأيام عندما كان زوجها في سـفر بعيد، تجمَّع الملاكمون بغضـب عند بوابة التجمع السـكني حيث كانت تعيش، وصـــاحوا وهم يركلون البوابة قائلين: "اقتلوا اقتلوا!" وأخذوا

يصـيحون قائلين: "أين عائلة الكاو؟" فاجتمع النسـاء والأطفال المرتعدون في أحد أركان الفناء، أما السـيدة كاو فخرجت بهدوء من بابها وقالت: "نحن عائلة الكاو، أما هؤلاء النسـاء والأطفال فهم غير مسـيحيين. نرجوكم أن تسـمحوا لي ولابنتي بأن نضـــع معاطفنا ونذهب معكم". فأمر قائد الملاكمين قائلاً: "خذهم وأوثقهم". فقالت السـيدة كاو بلطف: "نحن نسـاء، لماذا توثقوننا؟ نحن مؤمنون بالرب، وإذا وعدنا بأننا لن نهرب، فبالتأكيد لن نهرب". فزمجر القائد وقال وهو يرمق السـيدة كاو بنظرة غضب: "أوثقهم بإحكام لئلا يهربوا". فربطوا أباهمهما معًا بإحكام خلف ظهريْهما، ودفعوا بالسـيدتين من منزلهما. وفي طريق البوابة، التفتت السـيدة كاو إلى جاراتها المرتعدات والمجتمعات في الفناء وقالت لهن: "أخواتي، لقد كنت اليوم السـبب في هذا الرعب الواقع عليكن. الوداع، إن سُـمح لي أن أراكُن مرة أخرى، فسيسعدني ذلك، أما إذا لم أستطع، فأرجو أن نتقابل في السماء، وسأبتهج جدًّا إذا آمنتن جميعكن بيسـوع المسـيح". ودفعهما الملاكمون إلى الشـارع المليء بالأتربة، وقادوهما عبر جمهور غاضـب. وصـاح أحدهم: "انظروا تابعتيْ الشياطين الأجنبيتين اللتيْن ألقى الملاكمون القبض عليهما. سرعان ما ستنتهيان". وصاح آخر: "أليست هذه السيدة كاو، المرأة الواعظة؟" فأجابه آخر: "أجل، ولا بد أن تكون هذه الفتاة الجميلة ابنتها، تلك التي كانت تدرس لسـنوات مع الشـياطين الأجانب في بكين".

وكان يستحيل على السيدة كاو أن تسير بسرعة، لأن قدميها كانتا متباطئتين مثل الأطفال، بسبب الربط المُحكم. وكان الملاكمون يصيحون بهما "أسرعا!" وهم يضربونهما على ظهريهما بالحد المسطح لسيوفهم.

فاعترضـت جيسـيكا قائلة: "إن قدمَيْ والدتي صـغيرتان، ويصـعب عليها السـير، فلا تسـتعجلونها هكذا". فدفعهما الملاكمون إلى الأمام بعنف إلى سـاحة أحد المعابد الوثنية، حيث أُجبرتا على الوقوف تحت أشـعة الشـمس الحارقة. فنظرت السيدة كاو في عيون جيسيكا وسألتها: "هل تشعرين بالخوف؟" فأجابتها: "أمي، يسـوع معنا، فلا يوجد ما يُخيفُني؟" فطلبت السـيدة كاو من جيسـيكا بأن

تصـليا معًا، فجثتا على ركبهما في التراب، وأيديهما موثقة خلف ظهريهما وصـلَّتا في وسـط الجمهور السـاخر. وعندما انتهتا من الصـلاة، ابتسـمت السـيدة كاو والتفتت إلى ابنتها وقالت: "جيســـيكا، أنا أرى يســـوع قادمًا، فهل ترينه؟" فردت عليها: "أمي، أنا أومن أن يســـوع حاضـــر دائمًا مع من يحبونه". ثم فصـــل الملاكمون الأم عن الابنة، ودفعوا السيدة كاو عبر ممر، وحكموا عليها بالإعدام.

بعد أن أخذها الحراس إلى الموضـع الذي سـتلقى فيه حتفها، قالت السـيدة كاو لقائد الملاكمين: "أنا مجرد مُدانة، ولكنني أطلب منك خدمة واحدة وهي بأن تعطيني القليل من الوقت لأصـلي لأبي السـماوي". فمنحها هذا القائد دقيقة حيث ركعت وصلت قائلة: "يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون". ثم قام منفذ الحكم على الفور بقطع رأسها.

أما جيسيكا فلم تمت بالسيف، ولكنها ماتت بعد بضـعة أشهر إثر إصـابتها بمرض، وقالت لوالدها وهي على فراش الموت: "أبي، سـأسـبقك لأرى وجه أمي، وأهم ما أوصـيك به هو أن تتمسـك بحق الله المقدس، وأن تذهب حيث أنا ذاهبة، إلى بيتي السماوي".

أثناء ثورة الملاكمين عُرفت محافظة شـانسـي بمحافظة الشـهداء، ولم يدَّخِر حاكم شانسي جهدًا في قتل المسيحيين. وفي أحد الأيام، قاد الجنود حوالي ستين مرســلاً وأطفالهم مثل الماشــية إلى ســاحة قصــر الحاكم، الذي مر بعينيه على المرسـلين وأمر بقتلهم. ثم تقدمت إحدى بنات المرسـلين، ذات شـعر ذهبي، تبلغ من العمر الثالثة عشـر عامًا، ووقفت أمام الحاكم، وسـألته بصـوت مرتفع سـمعه الجميع قائلة: "لماذا تخططون لقتلنا؟ ألم يأتِ أطباؤنا من بلاد بعيدة ليهبوا حياتهم لشــعبكم؟ لقد شُــفي الكثيرون وكانوا مصــابين بأمراض خطيرة. لقد جلب أطباؤنا إلى الآلاف من بيوتكم الصـــحة والســـعادة، أمن أجل هذه الأعمال الصـــالحة ستقتلوننا؟" فطأطأ الحاكم رأسه ولم يتفوه بكلمة. فأضـافت الفتاة قائلة: "لقد حضـر مبشـرونا من بلاد أجنبية، وبشـروا بيسـوع المسـيح لمدمني المخدرات وللمقامرين، وخلصـهم يسوع، وأعطاهم القوة ليعيشوا باستقامة، وليحبوا والديهم ويطيعونهم، أمن

أجل هذا العمل الصـــالح تقتلوننا؟" فاحمرَّ وجه الحاكم وتغيَّر، وأشـــار إلى أحد الجنود الذي جذب الفتاة بسرعة من شعرها، وقطع رأسها بضربة خاطفة واحدة من سيفه. وفي لحظات كان كل الرجال والسيدات والأطفال المسيحيين في ساحة القصر قد لقوا حتفهم. إلا أن أحد الأساتذة الصينيين، الذين كانوا في ساحة قصر الحاكم ذلك اليوم، انبهر من شـــجاعة وهدوء المســـيحيين وهم يواجهون الموت، وأخبر هذا الأستاذ أحد المرسلين بعد عدة سنوات قائلاً: "لقد رأيت تسعة وخمسين رجلاً وامرأة وطفلاً يُقتلون في ذلك المســـاء، وحتى في لحظة الموت، كانت وجوههم تشع بابتسامة سلام. إذًا فليس من الغريب أن تقودني هذه الشجاعة العجيبة لأبحث في كتابكم المقدس، وأن تَفرض عليَّ بأن أومن بأن الكتاب المقدس هو حقًا كلمة الله". واستدار إلى المرسل، وعيناه مليئتان بالدموع وقال: "أنا مقتنع بأنه لا يوجد خلاص لنا نحن الخطاة، إلا من خلال المخلص يســـوع المسيح".

وبعد أن ســـحقت القوات الأوروبية والأمريكية الملاكمين، أجبروا الحكومة الصينية بأن تعوِّض المسيحيين، الذين رفعوا الدعاوى عن فقدان ممتلكاتهم أثناء الثورة. أما المرسلون والمسيحيون الصينيون الذين نجوا، فقد خرجوا من مخابئهم وعادوا إلى منازلهم. لقد واجهوا تحديات عظيمة ليغفروا لأعدائهم–أولئك الذين قتلوا أحباءهم ودمروا منازلهم.

أما الســـيد تشـــين، الشـــاب الذي عَملَ واعظًا مثل والده، فعندما عاد إلى مدينته، وجد أن والده ووالدته واثنتين من أخواته قد قُتلوا وأن منزله قد أُحْرق، فسأله أحد المسؤولين: "ما هو التعويض الذي تطلبه مقابل خسارتك؟" فأجابه: "لا أريد تعويضًا ماديًا، ولكنني أريد أن أذهب إلى من قتلوا أهلي وأبشرهم بالإنجيل". وبالفعل ذهب وأخبر القتلة عن محبة يسوع المسيح وغفرانه.

قتل الملاكمون في مدينة شـينمينفو العديد من المسـيحيين، فما من أسـرة مسيحية إلا وفقدت أبًا أو أمًا أو ابنًا أثناء الثورة. وكتب الناجون من المسيحيين قائمة بـــ ٢٥٠ اسما لأشخاص ساهموا في عملية القتل، أملاً في الانتقام. ولكن

بعد مرور ســـنوات قليلة، اجتاحت النهضـــة المســـيحية شـــينمينفو، وفي أحد الاجتماعات الكنسية، وقف أحد الشباب وقال: "عام ١٩٠٠ هجم الملاكمون على منزلي وقتلوا والدي، ومنذ ذلك الوقت شـعرت بأنه عندما أكبر، عليَّ أن أثأر لهذا الجُرم، ولكن خلال الأيام الأخيرة، جعلني الروح القدس أشـــعر بالبؤس حتى لم أكن أستطيع أن آكل أو أنام أو أن أفعل أي شيء. فأنا أعرف بأنه يستحثني بأن أغفر للقتلة، حبًّا في يسوع المسيح". وفي اليوم التالي، أحضروا القائمة التي تضم أسماء الـــ ٢٥٠ قاتلا ومزقوها وسحقوها بأقدامهم، وقال أحد الرجال: "مجدًا لله، لقد منحني نعمة لأغفر لمن قتلوا والدي". وفي السنوات التي تلت ثورة الملاكمين، أسـرع الآلاف من المرسـلين المسـيحيين إلى الصـين ليحلّوا محل هؤلاء الذين لقوا مصـــرعهم. وقد قبلت المســـيح أعداد كبيرة من الصـــينيين، وتأســـســـت الكنائس المزدهرة في كل محافظة، وقد تحقق في الصـــين القول المأثور بأن "دم الشـــهداء هو بذار الكنيسة".

...

أبراهام كويبر

لاهوتي ورجل دولة

أبراهام كويبر ١٨٣٧ م – ١٩٢٠ م

ختم الأستاذ حديثه قائلاً: "وهكذا أيها السادة، وفي ضوء كل ما تعلمته في السنوات الأخيرة من خلال دراسة حديثة للكتاب المقدس، لا أستطيع أن أقبل قيام جسد المسيح من الأموات كحقيقة تاريخية".

فنهض طلبة اللاهوت الهولنديون، الذين كانوا يملأون قاعة المحاضرات، على أقدامهم وصفقوا بشدة. وكان أحد هؤلاء أبراهام كويبر، الذي كان يبلغ من العمر ٢١ عامًا، وكان يتدرب على الرعاية. وبالرغم من نشأته وسط عائلة علمته بأن الكتاب المقدس هو كلمة الله المعصومة من الخطأ، إلا أنه انخرط في الفكر الليبرالي بمجرد أن بدأ الدراسة في جامعة ليدن عام ١٨٥٨م. ولقد كان الليبراليون ينكرون معجزات يسوع المسيح وألوهيته، كما أنهم رفضوا من الكتاب المقدس كل ما يعجز العلم الحديث عن إثباته.

وفي غضون أربعة أعوام، كان كويبر قد حصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت ، وتزوج وقَبِل دعوة رعاية كنيسة قرية بيسد. وعندما وصل إلى تلك الكنيسة، قال له أحد أعضائها: "يا حضرة القس، ستجد في هذه الكنيسة القليلين من الساخطين، فهم غريبو الأطوار، أشخاص ناقدون يؤرقون حياة الرعاة، ولكن بما أنهم من الطبقة الفقيرة اقتصاديًا واجتماعيًا، فلا تبالِ بهم مثلما فعل من سبقوك في الخدمة". ولكن كويبر لم يرغب في تجاهل أي عضو من أعضاء أبرشيته، فتحدث مع العديد ممن يطلق عليهم "الساخطون"، ووجدهم أناسًا مكرسين يأخذون كلمة الله على محمل جدّي. وكانت إحدى هؤلاء تدعى بيترونيللا بالتوس، وكانت تزدري بالعظات التي لا تقدم بقلب كامل، وعندما كان يفشل الراعي في الوعظ بالحق الكتابي كانت تجد عزاءها في قراءة الكتاب المقدس، وبعض الكتب القديمة العظيمة لكنيسة العصور السابقة.

ولم يكن وعظ كويبر يؤثر في بيترونيللا، بل كانت تحتقر أفكاره التحررية، وخشـــيت أن تنجرف الكنيســـة بعيدًا عن الحق الكتابي تأثرًا بعظاته. وعندما بدأ كويبر في زيارة أعضـــاء أبرشـــيته، أخبرها أحد جيرانها قائلاً: "إن الراعي يزور الناس في حيّنا وربما يزورك قريبًا". فأجابت بيترونيللا بحدّة: "لا شـــأن لي بهذا الرجل". ولكن صـــديقتها ذكَّرتها بالقول: "ولكن لا تنســـي يا بيترونيللا أن روح قسـيسـنا خالدة وأنه سـيذهب إلى الأبدية". فأدركت بيترونيللا أن صـديقتها على حق، ورحبت بالقس كويبر عندما جاء ليدعوها إلى الكنيســـة. وتحدثت بيترونيللا معه، وشـــاركته بإيمانها الحي بالمســـيح، وبرجائها الواثق في الســـماء. وقالت له بوقار وهي تنظر إلى عينيه مباشـرة: "أيها القس، وأنت أيضًـا لا بد وأن يكون لك نفس الإيمان والرجاء، وإلا ســـتهلك إلى الأبد". وعاد كويبر مرارًا وتكرارًا ليتحدث مع بيترونيللا وباقي المؤمنين المخلصـين من شـعب كنيسـته. كان يسـتمع إليهم ويجادلهم، وحاول أن يجد أرضًـــا مشـــتركة بينهم ولكنه غالبًا ما كان يمضـــي منزعجًا، من عدم قبولهم لأي حلول وسطية، فلقد أصروا بعناد على قبول الكتاب المقدس كما هو بالكامل، أو عدم قبوله على الإطلاق، وعلى عبادة الله على أنه الرب المسيطر على كل الأشياء، أو عدم عبادته على الإطلاق.

ولســـبب ما، وجد نفســـه ينجذب نحوهم. ولاحظ أن الإعداد للعظة أصـــبح أسـهل بعد قضـاء بعض الوقت معهم. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى وجد نفسـه في مفترق طرق، فقال لنفســـه: "عليَّ إما أن أحاربهم بشـــدة، أو أن أتفق معهم في الإيمان بالكتاب المقدس، والسيادة المطلقة لنعمة الله". وسرعان ما اعتنق أفكارهم بكل قلبه. وكتب فيما بعد قائلاً: "لقد كان إصـرارهم الراسـخ بركة لقلبي، كما كان هو إشـراق كوكب الصـبح في حياتي، فلقد جذبوني بلغتهم البسـيطة، لعبادة الله وتمجيده، الذي يشاء ويعمل كل الأشياء حسب مسرته الصالحة".

ولقد وجد كويبر في كلمات هؤلاء الفلاحين الهولنديين، نفس الحقائق التي كتب عنها جون كالفن مصـلح جينيف، منذ أكثر من ثلاثمائة عامٍ. فدرس كويبر كُتب كالفن بمفهوم جديد وتقدير جديد، وأصـبح شـعار كالفن: "الله له كل السيادة"

هو شـعار كويبر أيضًـا. وإذا بروح جديدة أنعشـت كل ما عمله، وبدأت عظاته تمجّد عدالة الله وقداسته ومحبته، وبدأ يزور رعيته بإخلاص، ويتوسَّع في قراءاته، ويعقد فصـولاً أسبوعية لتعليم الكتاب المقدس، ويكتب المقالات للصـحف والجرائد المسيحية، ويقف إلى جانب الكتاب المقدس ضد المتحررين. وكثيرًا ما كان يعمل حتى السـاعة الرابعة صـباحًا، إلى أن تتوسـل إليه زوجته لينام. وكانت بركة الله تلازم جهوده، حيث قبل الخطاة يسـوع المسـيح، كما سـعى المسـيحيون ليعيشـوا حياة أكثر تقديسًـا وإثمارًا. ولم يمضِ وقت طويل حتى عُرفت عظاته وكتاباته في جميع أنحاء هولندا.

وبعد فترة، قَبِل الدعوة ليخدم في مدينة أوترخت، ثم أمستردام أكبر مدينة في الدولة، حيث تحدَّى المسيحيين لينضموا إلى الحياة السياسية، حتى يعود المجتمع الهولندي إلى جذوره الكتابية. ولكن البعض انتقدوه قائلين بأنه ليس على الرعاة التدخل في شـــئون الحكومة. فرد عليهم كويبر قائلاً: "إن الخوف والخجل من السياسة، لا يمُتُّ للمسيحية ولا الأخلاقية بصِلَة".

لذا بالإضـــافة إلى الوعظ والتعليم والقيام بمهامه الرعوية، ســـاعد في قيادة الحزب المعارض للثورة، وهو حزب مسيحي للإصـلاح. وفي خطابٍ شـهير، ألهم كويبر أعضـاء الحزب للقيام بدورهم بقوله: "نحن مدعوون للتمسك براية الصـليب، ولننخرط بشـجاعة في المعركة، ليس من أجل الحصـول على شـرف أو سـلطة شـخصـية، ولا من أجل مناصـب عليا أو مكاسـب مادية، ولكن من أجل المسـيح ومستقبل شعبه، ومن أجل الخلاص الروحي لبلدنا، حتى عندما يعود المسيح يجد على أرضـنا، التى سـالت عليها قبلاً دماء الشـهداء، شـعبًا لا يقاومه بل يمجده بالتهليل!"

في بادئ الأمر، كان مرشـحو معارضـــي الثورة يخسـرون في الانتخابات، ولكن كويبر لم يفقد الأمل، وكتب قائلاً: "نحن نعمل من أجل المستقبل، فنحن لا نكترث بالنصـر الظاهري الحالي، ولكن بالنصـر النهائي، فالقضـية بالنسـبة لنا ليسـت التأثير الذي نسـتطيع أن نحدثه الآن، ولكنها القوة التي سـنسـتطيع أن

نمارسها في الخمسين سنة القادمة، كما إنها لا تتعلق بالعدد القليل لأعضائنا الآن، ولكن العدد الذي سينشأ من الأجيال الأحدث والذين سيصبحون رجالاً لهم مبادؤنا. فنحن نعلم أن ساعة النصر ستأتي يومًا".

وتنبَّه الشعب الهولندي من خلال كتابات كويبر وأعمال الحزب المعارض للثورة، للحاجة إلى التغيير. وبعد سنوات من المقاومة، تم انتخاب كويبر في البرلمان، ولاحقًا عندما سيطر الحزب المعارض للثورة على البرلمان، أصبح كويبر رئيسًا للوزراء في الدولة. وفي محاولة منه ليجعل نور المسيح يشرق في كل البلاد قال: "في كل الحياة البشرية لا يوجد سنتيمتر مربع لم يُعلِن فيه المسيح عن سيادته المطلقة مصرحًا: "هذا مِلْكي". وعمل كويبر على زيادة حرية الاختيار في التعليم من المرحلة الابتدائية إلى التعليم الجامعي، إيمانًا منه بأن أولياء الأمور الذين يرسلون أبناءهم إلى مدارس مسيحية أو خاصة، لا بد وأن يعوَّضوا بمقدار المال الذي توفره هذه المدارس للدولة. وانتهت خدمته الناجحة كرئيسٍ للوزراء بعد أربعة أعوام.

وبعدما سئم من سيطرة اللاهوتيين الليبراليين على الجامعات والندوات الهولندية، أعلن كويبر بدون تحفظ بما يعتقد أن الليبراليين يقومون به، فقال: "إنهم يدمرون لاهوت الكنيسة، ويسرقون كتاب الكنيسة المقدس ويدمرون حريتها في المسيح". وهكذا أسس أبراهام كويبر - مع بعض من يشاركونه الفكر - "الجامعة الحرة". ولقد أُطلق عليها الحرة، لأنها لم تكن خاضعة للبرلمان أو الكنيسة الليبرالية التابعة للدولة. وبما أنه لم يكن يوجد في هولندا جامعات مستقلة من قبل، قال الناقدون: "لن تستمر هذه الجامعة أكثر من خمس سنوات". أما كويبر، الذي كان يعلِّم اللاهوت في الجامعة الحرة، فقد ألهم الطلاب من البداية قائلاً: "نحن نريد تدريب رجال من الجرانيت والصلب، رجال مثل البيوريتان[1] القدامى، يقفون بثبات. رجال مثل رجال العهد القدامى، لو اضطرهم الأمر، يحاربون الشيطان وجهًا لوجه. رجال لا يتطلعون إلى مكان مريح وهادئ، ولكن يجترئون أن يخوضوا معارك الرب".

وبـالرغم من عمر أبراهـام كويبر، الـذي بلغ الثـالثـة والثمـانين، إلا أنـه لم يتقاعد، بل ظل نشـطًا كرجل كنيسـة وعضـو في الحزب المعارض للثورة، وداعمًا للجامعة الحرة اليانعة، وكاتبا لتأملات كتابية أسـبوعية في الصـحف. وبالرغم من تفوقه كراعٍ وعالمٍ ومؤلف وأســتاذ جامعي ورجل دولة وزوج وأب، فقد تيقن كويبر أن ما يهم في النهاية هو تمسكه بالمسيح.

...

جيه جريشام ماكين

جسور من أجل الحق

جيه جريشام ماكين ١٨٨١ م – ١٩٣٧ م

في العقود الأولى من القرن العشـــرين، اندلعت معركة ضـــارية في كنائس الولايات المتحدة الأمريكية، فكان اللاهوتيون الليبراليون هم هؤلاء من رفضـــوا الكثير من حقائق الكتاب المقدس، مثل معجزات يســـوع المســـيح وقيامته من الأموات. ونشروا نفوذهم باحتلالهم الكثير من كليات اللاهوت والمنابر. وكان من يقاوم هؤلاء، من كانوا يتمســـكون بعصـــمة الكتاب المقدس وبالحقيقة التاريخية للمسيحية. ولقد كانت كلية اللاهوت في برنستون، هي أشهر كلية لاهوت للكنيسة المشيخية بالولايات المتحدة الأمريكية، وكانت تؤيد المسيحية الكتابية، في الوقت الذي اعتنق فيه الكثير من كليات اللاهوت الأمريكية الفكر الليبرالي. وكان أساتذة برنســتون من أقوى المدافعين عن الإيمان المســيحي غير الليبرالي، وكان أكثرهم بروزا جيه جريشام ماكين.

---

[1] جماعة بروتستانتية في إنجلترا ونيو إنجلاند في القرنين ١٦ و١٧.

وبالرغم من اعتناق معظم الطوائف للاهوت الليبرالي في العشـــرينيات من القرن العشرين، إلا أن الكنيسة المشيخية بالولايات المتحدة الأمريكية، تحت قيادة رجال برنســـتون، قاومت هذا الفكر، إلى أن اعتلى هاري فوســـديك في ٢٢ مايو ١٩٢٢ م، منبر الكنيســـة المشـــيخية الأولى في نيويورك، وقدم عظة بعنوان "هل ســينتصـــر الأصـــوليون؟" وأطلق فوســديك على مطالبة الأصـــوليين رجال الدين بالتمسك بالعقائد التاريخية للمسيحية، بالأمر المأساوي، وقال: "إن عقولنا الحديثة لن تســتطيع أن تســتخدم الكثير من التعاليم الكتابية عن يســوع. وأضــاف: "لا بد وأن تتغير المسيحية لتناسب هذا العصر العلمي الحديث". وقُرئت هذه العظة في جميع أنحاء الولايات المتحدة.

وهنا نهض ماكين ليدافع عن الإيمان المســـيحي، فكان يســـافر كل أســـبوع تقريبًا ليتحدث في المؤتمرات الكتابية، وفي الجامعات، أو ليعظ في الكنائس، محذرًا المســـيحيين من الانجراف بعيدًا عن الكتاب المقدس. وكتب كتابا بعنوان " *المسيحية والليبرالية"* أوضـح فيه بأن الليبرالية ليست مسيحية، ولكنها دين مختلف تمامًا. ووضَّـــح ماكين أن المســـيحية كانت ترتكز دائما على عمل المســـيح على الصـــليب، وأن المؤمنين يخلُصـــون من خطاياهم، لأن المســـيح تحمّل عقاب خطاياهم على الصـــليب. أما الليبراليون فلا يبالون كثيرًا بالخطية، وينظرون للمســـيحية على أنها مجموعة من الأفكار يمكن أن نعيش بها. وقال ماكين: "إن المســـيحية لا تعتمد على مجموعة من الأفكار، ولكنها تعتمد على حدث، هذا الحدث هو حياة وموت وقيامة يسوع المسيح".

تسبب الجدّل القوي الذي أثاره ماكين في كتابه *"المسيحية والليبرالية"* في فتح أعين الكثيرين من المســـيحيين، على الطبيعة الحقيقية لليبرالية، وشـــجعهم على مســـاندة الإيمان. لكن الليبرالية كانت قد انتشـرت بسـرعة بالفعل، حتى أن رئيس برنســـتون الجديد، كان يريد أن يُحدث تغييرًا بالكلية لتصـــبح أكثر توافقًا مع الليبراليين. وظل رئيس برنســـتون لعدة ســـنوات يقنع قادة الكنيســـة بأن ماكين والأساتذة الآخرين مخطئون، وأن برنستون ستصبح أفضل إذا انفتحت أكثر على

الآراء الليبرالية للكتاب المقدس. وبالتدريج بُذلت الجهود لتُضعف مساندة الكنيسة المشـــيخية وكلية اللاهوت في برنســـتون، للموقف الكتابي. خلال ذلك الوقت، اكتسب ماكين الكثير من العداوات، لإصراره على حتمية تمسك الكنيسة بالكتاب المقدس، ولمحاربته الليبراليين، فوصف أحد أساتذة برنستون ماكين بأنه "شخص قاسٍ ومتشـكك ولاذع". وأصـبح الهجوم الحاد على شـخصـه أمرًا عاديًّا، ولكن ماكين حارب بجرأة من أجل الحق.

بلغت الأزمة ذروتها في ربيع ١٩٢٩ م، عندما اجتمع أكثر من ثمانمائة راعٍ وشـــيخ في الجمعية العمومية الســـنوية للكنيســـة المشـــيخية بالولايات المتحدة الأمريكية، بمدينة ســـانت بول بمينيســـوتا. وكانت الجمعية قد خططت لتصـــوّت حول السماح لكلية لاهوت برنستون بالبقاء على أفكارها التي اعتنقتها لأكثر من مائة عام، أم إعادة تنظيمها لصـــالح الليبراليين. فطلب ماكين وقتا كافيا لمناقشـــة القضية قبل التصويت، ولكن لم يُسمح سوى بخمس وعشرين دقيقة للنقاش، ولم يزد نصـــيب ماكين منها عن خمس دقائق. فوقف بحلته الســـوداء ورباط عنقه الأسود، وبوجه غاضب تحدث بصوت قوي قائلاً: "نحن في برنستون كنا ننادي بإنجيل غير محبوب ونحن لا نخجل منه. فلقد حصـــلنا على ســـلطتنا لنعظ بهذا الإنجيل، ليس بحكمة منا، ولكن من الصـــفحات المباركة من كلمة الله. إلا أن العالم أخذ ينجرف تدريجيًّا بعيدًا عن الإنجيل، إذ أن عددًا لا حصـــر لـه من الكليات ومعاهد اللاهوت حول العالم، لم يعد يســـاند بشـــارة الكتاب المقدس كما كان يفعل قبلاً. فالكثيرون يتطلعون إلى برنستون لتقول شـيئًا ضـد عدم الإيمان الحديث، وفي صـــالح الحق الكامل لكلمة الله، فإذا دمرتم برنستون القديمة اليوم، ســـيفرح الكثيرون، لأنهم يعتقدون أن البشـــارة القديمة والكتاب المقدس القديم، لا يصـلحان لهذا الزمان، ولكن إذا كان هناك عدد كبير سـيفرح، فهناك أيضًـا عدد كبير سيحزن".

وبالرغم من كلمات ماكين، إلا أن الجمعية صـوتت لتغيير برنسـتون، وَربِح الليبراليون حتى في برنستون. وسرعان ما انزوت تعاليم برنستون الكتابية القوية.

وبالرغم من عدم رغبة ماكين وثلاثة أســاتذة آخرين في ترك برنســتون، إلا أنهم قدموا استقالتهم وأسسوا كلية لاهوت ويستمينستر بفيلاديلفيا، وقد عقدوا العزم على جعلها مخلصة للكتاب المقدس في كل شيء.

وبعد سنوات قليلة، اندلع نزاع شديد جديد في الكنيسة المشيخية، كان ماكين طرفًا فيه. فلقد أرســل مجلس الإرســاليات الأجنبية بعض المرســلين الذين كانوا ينكرون بعض أســاســيات الإيمان المســيحي. على ســبيل المثال، كانت إحدى السـيدات التي أُرسـلت إلى الصـين، متشـككة في أن يكون المسـيح قد جاء إلى الأرض، فكانت تقول: "إن الوعظ عن المســيح أمر لا قيمة له". فاشــتكى ماكين وآخرون إلى المجلس وقالوا: "لا بد وأن نعود إلى ســلطان كلمة الله، فليُنهض الله رجالاً ونســاءً، يمضــون قُدمًا حاملين الإنجيل إلى أقصــى الأرض بدون خجل". وحاول ماكين وزملاؤه بأن يحملوا الجمعية العمومية على تصـويت، يطالب جميع المرسلين بالتمسك بالحق الكتابي، إلا إنهم مُنعوا من ذلك.

وعندما رفض مجلس الإرسـاليات الأجنبية التمسـك برسـالة مسـيحية حقيقية في مجال الإرســاليات، قام عدد من الشــيوخ والرعاة بتشــكيل الهيئة المســتقلة للإرساليات الأجنبية، وعيّنوا ماكين رئيسًا لها. ولم يرسلوا سوى مسيحيين مؤمنين بالكتاب المقدس ليخبروا الناس عن يســوع المســيح. فأمرت الجمعية العمومية ماكين والآخرين بإغلاق الهيئة المســتقلة، وهددوهم إذا لم ينفذوا هذا الأمر، أنه ســيتم اعتبارهم خارجين عن القانون وغير أوفياء للكنيســة. فكتب ماكين ردًّا من ثمانين صــفحة يرد فيه على الجمعية العمومية، موضــحًا أن أمر الجمعية العمومية ينتهك الدستور الكنسي؛ فقال ماكين: "لن أستطيع أن أطيع أمركم لأُنهي علاقتي بالهيئة المســتقلة للإرســاليات الأجنبية، فهذا الأمر يتعارض مع إنجيل المسيح، وقد يتضمن استبدالاً للسلطة الإلهية بالسلطة البشرية".

وبالرغم من كون جريشــام ماكين راعيًا تقيًّا ومخلصًــا للكتاب المقدس ولدستور الكنيسة المشيخية، فقد تم استدعاؤه ليمثُل أمام محكمة الكنيسة. وتناولت صحف الولايات المتحدة هذه القصة، ونشرت النيويورك تايمز قصة في صفحتها

الأولى تحت عنوان: "ماكين يحاكَم كعاصٍ". وقد بنى ماكين دفاعه على حقيقة أن أمر الجمعية العمومية غير قانوني. ولكن محكمة الكنيسة رفضت إعطاءه الفرصة ليتحدث أثناء المحاكمة. وفي ٢٩ مارس ١٩٣٦ م، أدانته المحكمة وجردته من رسامته كراعٍ.

وأغضب الظلم الذي وقع على ماكين الكثيرين، فكتب أحد محرري الصحف:"أغرب محاكمة كنسية أدانت الأستاذ جريشام ماكين بالعصيان على الكنيسة المشيخية، برغم أنه عالم عظيم وإخلاصه غير مشكوك فيه. هذا الرجل الذي ظل يحذّر الكنيسة لعشرين عامًا من انجرافها وراء الفكر الليبرالي، بعيدًا عن بشارة الكتاب المقدس". وقال أحد الرعاة: "لن تتحمل أية كنيسة في هذه الأيام فقدان مؤمنين بالإنجيل، على شاكلة جريشام ماكين".

وهكذا شكّل ماكين - مع بعض ممن اتفقوا معه في أفكاره - طائفة جديدة وأطلقوا عليها الكنيسة المشيخية الأرثوذوكسية، وحرصت هذه الطائفة على إعلان كل الحقائق الكتابية. ولكن ماكين لم يعش طويلاً ليساعد في بناء وتوجيه هذه الطائفة الجديدة، فبعد تأسيسها بشهور قليلة، سافر إلى شمال داكوتا في الشتاء القارس في رحلة تبشيرية، حيث كانت درجة الحرارة تصل إلى عشرين تحت الصفر. وبالرغم من شعوره بالألم، وبعجزه عن التقاط أنفاسه، إلا أنه وعظ عدة مرات حتى نُقل إلى المستشفى، بعد أن أصيب بالتهاب رئوي. ولم يستطع الأطباء السيطرة على الإصابة أو الحمى، ومات جيه جريشام ماكين عن عمر يناهز الخامسة والخمسين، وكانت من بين كلماته الأخيرة: "أنا ممتن جدًّا لطاعة المسيح الفعالة، فبدونها لا أمل".

...

سي إس لويس

مؤلف نارنيا

سي إس "جاك" لويس ١٨٩٨ م – ١٩٦٣ م

منذ ما يقرب من مئة عام مضت، كان هناك صبيان يتنزهان في عصر أحد الأيام، وقد كان الصبيان أخوْين وصديقيْن أيضًا. وعندما اقتربا من منزلهما، رأيا قوس قزح لامعًا، وبدا كما لو كان القوس ينتهي في الفناء الأمامي لمنزلهما. فقال جاك لأخيه الأكبر وارين: "انظر، قوس قزح ينتهي بين البوابة والباب الأمامي. تعال ولنحضر مجرفة ونبحث عن قِدر الذهب. فحفر الصبيان بكل قوتهما حفرة كبيرة. وعندما حل الظلام، أصبحا منهكيْن ومُحبطَيْن، فدخلا المنزل عاقديْن العزم على استكمال الحفر في الصباح. ولكن في المساء، بمجرد عودة والدهما من مكتبه، سقط في الحفرة وطارت قبعته وتناثرت أوراقه القانونية في الفناء، فدخل إلى المنزل وحُلته مغطاة بالوحل. فامتلأ غيظًا إذ كان يعتقد أن الأولاد قد حفروا هذا فخًّا له. لقد كان يحب أبناءه، ولكن خيالهما القوي وروحهما المغامرة، كثيرًا ما أصابت صبره.

لقد كان جاك ووارين يعيشان مع والديهما، في بيلفاست شمال أيرلندا، في منزل كبير مبني من الطوب، مكوّن من ثلاثة طوابق، يطل على البحر والتلال المحيطة. وكان الصبيان يحبان الأروقة الطويلة والحجرات المشمسة، ولكنهما كانا يفضلان العلِّية التي كانت بنفس طول المنزل كله، وكان يرن بها صدى صوت جريان المياه في المواسير، وصفير الرياح خلال قراميد (طوب) السطح. وكانا يستلقيان في هدوء في إحدى غرف العلِّية، حيث لا يستطيع أحد أن يزعجهما. كانت هذه الغرفة ممتلئة بالأوراق والألوان والطباشير والأقلام؛ فكانا يرسمان الصور ويكتبان القصص، ففي هذا المكان خلقا عالمهما الخيالي. وبالرغم من صغر جاك عن أخيه لكنه كان الأكثر إبداعًا، وكان اسم جاك

الحقيقي هو كليف، ولكن عندما بلغ الرابعة من عمره، أطلق على نفسه اسم جاكسي، ومنذ ذلك اليوم أصبحت أسرته وأصدقاؤه ينادونه بجاك.

كان جاك يسعد بقصص الفرسان في المعركة وقصص الحيوانات الخيالية، مثل تلك الموجودة في كتب بيتريكس بوتَر، لذا أنشأ مدينة الحيوانات حيث حَكَم الملك أرنب بمساعدة السيد "بيتر" الفأر والسيد "بين" الضفدع وآخرين كثيرين. ولم يكتفِ جاك بوصف وتوضيح مدينة الحيوانات وشخصياتها، بل ألَّف تاريخًا كاملاً للحيوانات، فرجع إلى الوراء لآلاف السنين. أما وارين فألَّف عالمه الخيالي، وأطلق عليه الهند؛ فصمم خرائط تفصيلية ورسومات للأرض، تشتمل على جداول مواعيد القطارات والسفن الذاهبة والعائدة. ودمج الصبيان العالمَيْن معًا، وأطلقا عليها "بوكسين". ونمت بوكسين وتطورت لعدة سنوات. وعندما سافر وارين إلى إنجلترا ليدرس، كان جاك يكتب له كثيرًا عن آخر أحداث "بوكسين"، فكتب له في إحدى المرات قائلاً: "إن بوكسين في الوقت الحالي تمر باضطراب، فلقد وصلت أنباء تفيد بأن الملك أرنب سجين، فالبروسيلون والبوكسونيون على خلاف شديد، والجنرال كويكستيب يرسم الخطط لإنقاذ الملك أرنب".

وكان السيد لويس وزوجته يحبان القراءة، وكان بيتهما مليئًا بالكتب. وبدا لعيني جاك الصغيرتان، كما لو كانت الكتب في كل مكان، عدد لا حصر له من الكتب - "فالكتب في حجرة المكتبة وحجرة الرسم وفي حجرة تعليق المعاطف، وكتب لا تستطيع الوصول إليها في قاع صندوق الكتب، وكتب في حجرات النوم وكتب تصل إلى الأكتاف في حجرة العلّية". وقد قرأ جاك ووارين الكثير من تلك الكتب. وفي البيت علَّمت السيدة لويس ابنها جاك، الفرنسية واللاتينية والأدب. ولكن قبل عيد ميلاده العاشر ماتت بمرض السرطان، وبموتها اختفى من حياته قدر كبير من السعادة والأمان. وبعد موتها بفترة وجيزة أرسله والده بعيدًا إلى مدرسة إنجليزية داخلية. وهكذا بدأت أعوام طويلة من الوحدة والمشقة، تتخللها فترات قصيرة من العطلات السعيدة التى كان يقضيها بالمنزل مع والده ووارين شقيقه.

وعندما بلغ جاك الثامنة عشـرة من عمره، حصـل على منحة دراسـية في جامعة أُكسـفورد، أقدم وأشـهر جامعة بإنجلترا. وتفوَّق جاك في دراسـته وأصـبح مدرسًـا للغة الإنجليزية هناك. وخلال أيامه الدراسـية بالمدرسـة والجامعة، أصـبح لويس ملحدًا - شخصًا ينكر وجود الله، شخصًا متكبرًا أنانيًّا، يؤمن بأن تفكيره أكثر تعقيدا من أن يؤمن بالله. كما كان ينظر إلى الله كمتداخل في شـؤونه، فكان يريد أن يتركه الجميع وشـأنه. وكمدرس له احترامه بجامعة أكسـفورد، كان يتطلع إلى حياة مكرسة لذاته، يفعل بها ما يشاء. ولكنه كتب فيما بعد قائلاً: "إن الله، الصياد العظيم، فاز بسمكته ولم أكن أتخيَّل أن الشَّص كانت في فمي".

إن رجوعه ليسـوع المسـيح بدأ ببطء، حين بدأ يكتشـف أن كُتَّابه المفضـلين مسـيحيون، وقد كتبوا عن حياة مليئة بالعجائب والفرح، فالمسـيحية، للبعض على الأقـل، لم تكن مجرد مجموعـة من القوانين. ثم رافق بعض رجـال أكسـفورد البـارزين، الـذين كـانوا يؤمنون بـالكتـاب المقدس، والـذين أرَوْه بـأن هنـاك حقـائق تاريخية قوية تدعم المسيحية. ولسنوات عدة قرأ المزيد عن المسيحية واستمر في مناقشة أصدقائه حول إيمانهم بالمسيح. ثم جاء التجديد في صباح يوم مشرق.

كان لويس (جاك) يجلس مسـتغرقًا في التفكير العميق في العربة المجاورة لدراجة أخيه البخارية، حين كانا في طريقهما إلى حديقة الحيوانات. وكتب لويس عن تلك اللحظة قائلاً: "عندما انطلقنا، لم أكن أومن أن يسـوع المسـيح هو ابن الله، ولكن عندما وصلنا إلى حديقة الحيوانات آمنت".

وبالرغم من استمرار لويس في تدريسه بجامعة أُكسفورد، إلا أن عمل حياته تغيّر جذريًّا، فشـكَّل مع بعض الطلبة المؤمنين، النادي السـقراطي الذي كان يسـتضـيف المناقشـات بين المسـيحيين وغيرالمسـيحيين. وبعد أن عُرف لويس بذكائه ورجاحة عقله، أصـبح من الصـعب إيجاد شـخص معارض للمسـيحية مسـتعدًّا للنقاش معه، وكان الطلاب يملأون الكراسـي، ومن لا يجد مكانًا يجلس على الأرض ليسمع ردّ لويس على آراء غير المؤمنين.

وفي إحدى المناقشات، فإن أحد الفلاسفة الذين ينتمون إلى المذهب النسبي، أنهى خطابه قائلاً: "العالَم غير موجود، وإنجلترا غير موجودة، وأُكسفورد غير موجودة وأنا واثق بأني غير موجود". وعندما نهض لويس ليردّ قال: "كيف لي أن أتحدث مع رجل غير موجود؟" واستخدم لويس مواهبه الفكرية والكتابية بقوة، فكتب كتبًا أوضحت كيف أن المسيحية وحدها التي تعطي معنى للحياة، فكتب يقول: "أنا أومن بالمسيحية، كما أومن بأن الشمس أشرقت، ليس فقط لأني أراها، ولكن لأنني أرى كل شيء بواسطتها". وقد تجدّد الكثيرون ممن لم يجُل بخاطرهم قبلاً قراءة الكتاب المقدس أو الاقتراب من باب الكنيسة. قرأوا كتبه وقبلوا المسيح.

وفي أوائل الأيام السوداء للحرب العالمية الثانية، ضربت الطائرات الألمانية لندن ودمّرت المنازل وقتلت الآلاف. وأرادت الحكومة أن ترحِّل أكبر عدد من الأطفال لحمايتهم من الخطر الموجود بالمدينة، لذا تم توجيه نداء استغاثة للقرى الإنجليزية. وفتح سي إس لويس، منزله - القديم المصنوع من الطوب بالقرب من بِركة - مثل الكثيرين للأطفال المحتاجين. وبمَ أنه لم يكن قد تزوج ولم يكن لديه أطفال، استطاع إيواء عدد كبير من الأولاد والبنات.

وبعدما تعرف لويس بالأطفال، اندهش بسبب قلة ما قرأوا، وبمحدودية خيالهم، وتذكر الكتب والعالم الخيالي الذي صنعه في طفولته. وكان يقدّر كم يفتقر إليه هؤلاء الأطفال. وفي أحد الأيام جاءته فتاة كانت منشغلة باستكشاف المنزل، وثار فضولها حول خزانة الملابس الكبيرة في غرفة بالطابق العلوي، وطلبت من لويس أن تدخلها، ففتح لها لويس الباب، وبدأت الفتاة تتجول في الغرفة حول المعاطف الثقيلة المعلقة بالداخل، وتساءلت إذا كان يوجد أى شيء خلفها. وتركت الفتاة الغرفة وأسرعت إلى الخارج لتلعب، ولكن سؤالها حفز عقله، فقرر أن يكتب قصة للأطفال ليحفز خيالهم ويرشدهم ليسوع المسيح. وأطلق لويس على القصة *الأسد والساحرة وخزانة الملابس*. وتبدأ القصة هكذا: "كان هناك أربعة أطفال أسماؤهم بيتر وسوزان وإدموند ولوسي، وكانت أحداث هذه القصة تدور حول ما حدث لهم عندما أُرسِلوا بعيدًا عن لندن، أثناء الحرب

لحمايتهم من الغارات الجوية، حيث تم إرســـال هؤلاء الأطفال إلى منزل أســـتاذ جامعي متقدم في العمر، كان يعيش في وســـط المنطقة الريفية. وتبدأ المغامرات عندما تنسحب لوسي إلى حجرة الملابس وتجد أنها تؤدي إلى عالم سحري يُدعى نارنيا، مليء بحيوانات نصـــفها آدمي والنصـــف الآخر ماعز، وأقزام وحيوانات ناطقة. وكانت هناك ساحرة بيضاء قد ألقت بتعويذتها الشريرة على نارنيا فجعلتها شتاءً دائمًا. ولم يكن عيد الميلاد (الكريسماس) يأتي إليها أبدًا. ولكن يأتي أسلان الأســـد والملك الحقيقي لنارنيا ليبطل هذه التعويذة، حيث ضـــحى بحياته لينقذ الآخرين. ويقوم أسلان من الموت ويهزم الساحرة ويحل السلام في الأرض". أراد لويس أن يرى الأطفال الصلة بين انتصار أسلان، وانتصار موت وقيامة يسوع المسيح. وبعد هذه القصة الأولى، كتب لويس سلسلة من الكتب عن عالم أسلان، وأطلق عليها "سجلات نارنيا".

وفي أغسطس ١٩٤١ م، عندما بدا أنه لا يمكن قهر النازيين، وملأ الخوف من المستقبل عقول الرجال والنساء الإنجليز، قدّم لويس سلسلة من الأحاديث الإذاعية حول الإيمان المســـيحي، وقال أحد الرجال عن هذه الأحاديث: "أتذكر وجودي في حانة مليئة بالجنود في أحد أيام الأربعاء، في الساعة الثامنة إلا ربعًا، عندما فتح ســـاقي الخمر الراديو ليســـتمع إلى لويس، فصـــاح به أحد الجنود: "أتســـتمع إلى هذا الرجل؟" فأجابه الســـاقي: "أجل فهو يســـتحق الاســـتماع إليه". وأنصت الجندي وتابع الحديث بأكمله، فبصوته الدفيء وسرعة بديهته، دافع عن المســـيحية بمنطق وحجة، وشـــجع الناس على اتباع المســـيح. فكان لويس يقول لمســـتمعيه في الراديو: "إذا نظرتم لأنفســـكم، على المدى البعيد لن تجدوا إلا الكراهية والوحدة واليأس والغضـب والدمار والفسـاد. لكن انظروا ليسـوع المسـيح، فســتجدونه وســتجدون معه أن كل شـــيء آخر قد زال". وقال أحد الرجال الذين تأثروا بلويس: "لقد بدت الحرب والحياة بأكملها بل وكل شيء بلا معنى. لقد أردنا مفتاحا لمعنى الكون، ولويس قدم لنا هذا المفتاح، بل وأفضـــل من ذلك فلقد أعاد إلينا إيماننا المسيحي القديم، حتى نقبله بثقة جديدة".

وقد دعا رئيس قساوسة القوات الجوية الملكية لويس، ليتحدث للضباط. فكان يسافر في عطلة نهاية كل أسبوع، ليتحدث إليهم في كل أنحاء البلاد، محاولاً أن يقنعهم ليؤمنوا بالمسيح. وبعد انتهاء الحرب، امتدح رئيس الوزراء البريطاني "ونستون تشرشل" لويس، لمجهوداته التي بذلها أثناء الحرب. ولقد كتب لويس العديد من الكتب، وأصبحت جميعها الكتب الأكثر مبيعًا، لكنه لم يكن رجلاً غنيًا، لأنه تبرع بالأموال التي ربحها، للخدمة وللأعمال الخيرية.

وبالرغم من وفاة لويس عام ١٩٦٣ م، إلا أن كتبه استمرت في إرشاد الناس إلى يسوع المسيح. ويوجد تقريبًا خمسون مليون نسخة من كتبه مطبوعة اليوم بلغات مختلفة.

...

ريتشارد ورمبراند

عُذِّب من أجل المسيح

ريتشارد ورمبراند ١٩٠٨ م – ٢٠٠١ م

في أغسطس ١٩٤٤ م، هزم أكثر من مليون جندي روسي رومانيا، وأنشأوا حكومة شيوعية، مثل تلك التي كانت بالاتحاد السوفيتي. وكانت هذه الحكومة حكومة دكتاتورية متوحشة، تسجن وتقتل عشرات الآلاف من الأبرياء. وأملاً في السيطرة على المسيحية وإبادتها إلى الأبد، صادر الشيوعيون ممتلكات الكنيسة، ومنعوا الرعاة من العمل إلا بترخيص حكومي. وبعد أن تسلموا السلطة، جمعوا كل الهيئات المسيحية في مؤتمر برومانيا، بلغ عددهم أربعة آلاف، ما بين قساوسة وأساقفة ورعاة، في البهو الكبير لمبنى البرلمان، أمام صورة كبيرة للدكتاتور الروسي ستالين. وخوفًا من السجن والتعذيب والموت، بدأ القادة المسيحيون واحدًا بعد الآخر يمتدحون الحكومة الشيوعية الجديدة، معلنين أن الشيوعية والمسيحية لهما نفس الأهداف، ومن الممكن أن ينجحا معًا.

كان من بين الجالسين في هذا الاجتماع ريتشارد ورمبراند، قسٌ لوثريٌّ متعلمٌ تعليمًا رفيعًا، وزوجته سابينا. فنظرت سابينا إلى زوجها بعيون متَّقدة بالغضب وقالت له: "ريتشارد، قف واغسل هذا العار عن وجه المسيح، فهؤلاء الرجال يبصقون في وجهه". فهمس لها ريتشارد قائلاً: "إذا قمتُ بهذا العمل ستخسرين زوجك". فأجابته سابينا: "لا أريد أن أكون مع زوجٍ جبانٍ".

وهكذا نهض ريتشارد وطلب الإذن للتحدث، وسار إلى المنبر ونظر في وجوه الجالسين، وتحدث في مكبر الصوت، الذي نقل رسالته على الهواء للدولة بأكملها. وذكَّر ورمبراند المستمعين بقوله: "من واجبي كراعٍ، أن أمجد المسيح، فولاؤنا لا بد وأن يكون له في البداية وليس للسلطات الأرضية". وعندما تحدث ورمبراند انفجر التصفيق من كل أرجاء القاعة، وقفز الكثيرون على أقدامهم هاتفين. فاحمرّ وجه أحد المسؤولين الشيوعيين وصاح به قائلاً: "لقد تم سحب الإذن بالتحدث منك". فأجابه ورمبراند: "أنا آخذ الإذن في التحدث من الله". فقطع

عنه المسؤولون مكبر الصوت وانتهى الاجتماع في حالة من الاضطراب. وكان كلا من ورمبراند وسابينا، يعلمان بأن ورمبراند سيدفع ثمن جراءته، ولكنهما كانا يؤمنان بأن الأمر يستحق ما فعله.

لاحقًا في صباح أحد أيام الآحاد المشرقة عام ١٩٤٨ م، وبينما كان ورمبراند يسير بمفرده إلى الكنيسة، اقتربت منه سيارة سوداء مُصدرة صوتا منذرًا بالتوقف، وقفز منها عملاء من البوليس السرّي الشيوعي وقبضوا على ورمبراند ودفعوه إلى المقعد الخلفي وانطلقوا إلى السجن. ومنذ تلك اللحظة لم تكن زوجته أو ابنه ميهاي يعرفان ما إذا كان حيًّا أو ميتًا.

وبدأ المحققون يستجوبون ورمبراند لساعات تحت الأضواء المثبَّتة على عينيه، وقالوا له: "اكتب أسماء كل الأشخاص الذين تعرفهم، وأين تقابلهم وعلاقتك بهم". وكان الشيوعيون يريدون معرفة من ساعدوه على طباعة ونشر الكتب المقدسة، وعلى أماكن الاجتماعات المسيحية السرية. ولكن ورمبراند رفض أن يبوح بأي شيء يتعلق بأنشطة الآخرين.

وهكذا بدأت رحلة تعذيبه، فأجبره الحراس على الوقوف لعدة ساعات في صندوق ضيّق ذي أشواك معدنية حادة خارجة من جميع الجدران، فتورّمت قدماه وارتعشت رجلاه. وعندما كان ينهار، كانت الأشواك الحادة تمزق جسده. كما كانوا يضربون قدميه إلى أن تسيل منها الدماء. وكان معذّبوه يجلدونه ويطعنونه بالسكاكين ويصيحون به قائلين: "لماذا لا تستسلم؟ أنت مجرد جسد ودم وستنهار في النهاية". فسأل ورمبراند معذِّبيه قائلاً: "ألا توجدّ شفقة في قلوبكم؟" فأجابوه: "بالنسبة لنا، الله غير موجود ولا توجد حياة بعد الآن، ولن نُعاقَب على الشر الذي نقترفه، فبإمكاننا أن نفعل ما يحلو لنا".

فأخذ ورمبراند يقول لنفسه: "لقد جُلد يسوع وصُلب، ومن دواعي سروري أن أشاركه آلامه". وعندما فشل معه الاستجواب والتعذيب، حاولوا غسل مخه، فسمحوا له بتناول قسط قليل من غذاء الخنازير القذر، وكسرات من الخبز، وعلّقوا مكبرات صوت لتكرر رسالة لمدة سبعة عشر ساعة في اليوم، لشهور وسنوات.

وكان فحوى هذه الرسالة هو: "الشيوعية صالحة أما المسيحية فهي حماقة، استسلم. الشيوعية صالحة أما المسيحية فهي حماقة، استسلم". و"المسيحية ميّتة، لا يوجد من يحبك الآن". وتسبب غسيل المخ في إصابة السجناء بالجنون، ولكن ورمبراند تعلق بإيمانه بالمسيح.

وفي أحد الأيام، استدعى أحد المسؤولين الكبار ورمبراند، وعرض عليه الحرية والعودة إلى عائلته وحياة رغدة وقيادة كنيسة لوثرية للرومانيين، وقال له: "نحن بحاجة إلى رجل مثلك، فإذا كنت على استعداد لمساعدتنا في محاربة الخرافات، يمكنك أن تبدأ حياة جديدة في الحال، فما قولك؟" فأجابه ورمبراند: "أحتاج إلى بعض الوقت لأفكِّر في الأمر"، وكان ورمبراند يفتقد زوجته وابنه بشدة، فكان الإغراء لقبول عرض المسؤول قوي. فعاد إلى زنزانته، وألقى بنفسه ووجهه إلى أسفل وصرخ لله حتى يساعده. وبللت دموعه الأرض الأسمنتية. وفي اليوم التالي استدعاه المسؤول مرة أخرى، فقال ورمبراند لهم: "لا أشعر بأنني مستحق أن أصبح أسقفًا، فأنا لم أكن مستحقًا بأن أكون راعيًا بل ولا حتى أن أكون مسيحيًّا، فالمسيحيون الأوائل ذهبوا إلى الموت وهم يقولون ببساطة - أنا مسيحي - ولكنني لم أفعل ذلك. لقد كنت أفكر في قبول عرضك المخجل، ولكنني لا أستطيع قبوله". فسأله المسؤول: "هل تعرف معنى ذلك لمستقبلك؟" فأجابه: "لقد فكرت جيدًا، وأشعر بالسعادة إن كنت أعاني من أجل ما أومن أنه حقيقة محققة".

ولاحقا بدأ شاب شيوعي، يدعى الملازم جريك، في تعذيب ورمبراند. وقد أمره هذا الشاب بكتابة اعتراف يسرد فيه جرائمه التي ارتكبها ضد الحكومة الشيوعية. واعترف ورمبراند بأنه وصَّل آيات من الكتاب المقدس للسجناء في الزنزانات المجاورة له، مستخدما شفرة "مورس"، ولكنه كتب: "لم أتحدث أبدًا ضد الشيوعية، فأنا أحد تلامذة يسوع المسيح، الذي وهبنا محبة لأعدائنا. أنا أشفق عليهم وأصلي من أجل تغييرهم، حتى يصبحوا إخوتي في الإيمان".

فلوَّح جريك بهراوة التعذيب، والتقط كتيب اعتراف إيمان ورمبراند وبدأ في قراءته. وما أن بدأ في القراءة، حتى لانت تعبيراته الصارمة، ووضع هراوته جانبا وفغر فاه وبدا على وجهه الاضطراب، وسأله: "لماذا تقول بأنك تحبني؟ أنا أعرف أن هذه إحدى الوصـــايا المســـيحية، ولكنني لا أومن بأنه يوجد من يســـتطيع أن يطبِّقها، فأنا لا أستطيع أن أحب شخصًا سجنني لسنوات، وقد حرمني من الطعام وعذَّبني".

فابتســـم ورمبراند وقال: "الأمر لا يتعلق بتطبيق وصـــية، فعندما أصـــبحت مســـيحيًا، كان الأمر كما لو كنت قد وُلدت من جديد بشـــخصـــية جديدة، مليئة بالمحبة". وظلا يناقشان المسيحية والشيوعية لمدة ساعتين. وبحجة التحقيق، أخذ جريك يستدعي ورمبراند كل يوم لمدة أسبوعين تقريبًا، ليستمع عن محبة المسيح وغفرانه؛ فتنهَّد جريك بعمق وقال: "لقد نشأت كملحد، ولن أكون أي شيء آخر"، ولكنه بدأ في الإنصات الجيد إلى ورمبراند وفي دراسة الكتاب المقدس، وسرعان ما وضع ثقته في يسوع المسيح. وفي اليوم التالي، وقف الضابط الشيوعي في زيّه الرســـمي واعترف بخطاياه لورمبراند. ومنذ ذلك الوقت، كان جريك يتظاهر بأنه ضابط مُخلِص للشيوعية، ولكنه كان يساعد السجناء سرًّا بأقصى ما لديه من قوة. لكن لم يمضِ وقت طويل حتى اكتُشِـفَ أمره، وأصـبح هو الآخر واحدًا من الذين سُجنوا من أجل المسيح.

وبعد مُضـي ثماني سـنوات ونصـف، تم إطلاق سـراح ورمبراند فجأة، وذلك بعد إصـــدار قرار بعفو جماعي، ودفع به الحراس إلى خارج بوابات الســـجن وهو يرتدي ثيابًا رثَّة قذرة، فشـقَّ طريقه إلى بوخارسـت، حتى وصـل إلى باب منزله الأمامي، ولم يكن يدري إذا ما كانت زوجته وابنه حُرَّيْن أم ســـجينَيْن، حيَّيْن أم ميِّتَيْن. وعندما فُتح الباب، وجد شـــابًا طويلاً، حدق به لدقيقة ثم صـــرخ "أبي!" وكان هذا الشـــاب ابنه ميهاي، يبلغ من العمر ثمانية عشـــر عامًا، ولم يكن ورمبراند قد رآه منذ أن كان في التاسعة من عمره. وجرت سابينا إليه من المطبخ وتعانقوا جميعًا.

وقال لهما ورمبراند، وهو يحاول إخفاء دموعه: "أريد أن أخبركما بشـيء. لا تفتكرا بـأنني جئتكم من البؤس إلى البهجـة، فلقد جئـت من بهجـة التواجد مع المسـيح بالسـجن، إلى بهجة التواجد معه في أسـرتي". وقال له ميهاي: "أبي، لقد واجهتَ الكثير، وأريد أن أعرف ما تعلمته من آلامك". فاحتضـــن ورمبراند ابنه وأجابه قائلاً: "كان هناك أربعة أشـياء في ذهني؛ أولاً: هناك إله، ثانيًا: المسـيح هو مخلصـنا، ثالثًا: هناك حياة أبدية، وأخيرًا: المحبة هي أفضـل الطرق". فأومأ ميهاي برأسه وأخبر والده بأنه قد عقد العزم مؤخرًا على أن يصبح راعيًا".

يلاحظ أن السـلطات منعت ورمبراند من الوعظ أو الانضـمام إلى أي عمل ديني، ولكنه بذل نفســه مع زوجته ســابينا في خدمة الكنائس الســرية. وكان ورمبراند يعظ لمجموعات مسيحية مختبئة في الأدوار التحتية والعلّيات وأيضًـا فى الميادين المفتوحة. وإذا ســألهم أحد عن تجمعهم وترنيمهم كانوا يجيبون: "نحن نحتفل بعيد ميلاد". وكان العديد من الأسـر المسـيحية الصـغيرة تحتفل بأكثر من ثلاثين أو أربعين عيد ميلاد في السنة الواحدة! وكان ورمبراند يعرف بأن نشاطاته لا بد وأن تُكتَشف من البوليس السرّي، فكان كثيرًا ما يصلي قائلاً: "ربي إذا كنت تعلم أن هناك أشـخاصًـا بالسـجن أستطيع مسـاعدتهم وإنقاذ أرواحهم، فردَّني إليه وأنا سأحتمل ذلك بكل سرور".

وبعد أن قضـى ورمبراند سنتين حرًّا، هجمت الشرطة السرية على منزله في وسـط الليل واعتقلوه مرة أخرى، حيث قضـى خمس سـنوات أُخَر من التعذيب. ولكن عندما أُطلق ســراحه مرة أخرى، عاد إلى عمله مباشــرة ليخدم الكنائس السـرية. وكان مسـيحيو العالم الحر، يقدمون المسـاعدة بتهريب الكتب المقدسـة والكتب المسيحية والأموال للأسر المسيحية المنكوبة. وكانت رغبة ورمبراند البقاء في رومانيا، ولكن قادة الكنائس استحثوه ليرحل وقالوا له: "كن صوت المسيحيين المضطَهَدين إلى العالم الحر".

وهكذا دفعت مجموعتان مسـيحيتان فدية قيمتها ١٠ آلاف دولار للحكومة الشـيوعية، حتى يطلقوا سـراح ورمبراند وأسـرته ليخرجوا من رومانيا. وقبل رحيله

أخبرته الشرطة السرية، أن يذهب إلى الغرب ويتكلم عن المسيح مثلما شاء، وألا يتحدث بشيء ضد الشيوعية حتى لا يخطفه عملاؤهم ويقتلونه". وقبل رحيله من رومانيا، وضع ورمبراند وردة على قبر أول مسؤول شيوعي أمر باعتقاله وتعذيبه، وقال ورمبراند: "أكره النظام الشيوعي ولكني أحب الناس، فبإمكان الشيوعيين قتل المسيحيين، ولكنهم لن يستطيعوا قتل محبتهم تجاه أولئك الذين قتلوهم".

ووصل ورمبراند وسابينا إلى أمريكا، وأسسا هيئة للمسيحيين المضطَهَدين حول العالم، وأطلقا عليها *"صوت الشهداء"*. وكانت هذه الهيئة ترسل الكتب المقدسة لأسر المسيحيين الشهداء، وتشجعهم وترسل لهم إعانات، وكانت تُخبر العالم عن الأعمال الوحشية التي تُرتكب ضد المسيحيين.

وبعد انهيار الحكومة الشيوعية برومانيا عام ١٩٨٩ م، عاد ورمبراند وزوجته سابينا إلى أرض الوطن، حاملين رسالة يسوع المسيح إلى الكنائس المزدحمة، وأيضًا التلفزيون القومي. وقد أسسا مكتبة مسيحية ومطبعة لنشر وتوزيع الكتب المسيحية ومستلزمات مدارس الأحد. وقد عرضت عليهم الحكومة الجديدة مكانا ليخزنا به الكتب، واتضح لهم أن هذا المكان كان فيما سبق زنزانة حُبس بها ورمبراند لمدة ثلاث سنوات؛ فقال ورمبراند وهو يكتم دموعه، التي سالت عندما رأى الزنزانة مليئة بالكتب المسيحية: "لقد فعل الله أفضل ما يمكن عمله، وابتسم مبتهجًا".

وبشَّر كل من ورمبراند وسابينا بغفران يسوع المسيح مستحثَّيْن الرومانيين أن يغفروا للشيوعيين، ويصلّوا من أجل رجوعهم إلى الله. وكانت رسالته التي كتبها منذ عشرين عامًا هي نفسها: "أحبوا مضطهديكم، أحبوا نفوسهم وحاولوا أن تربحوهم ليسوع المسيح".

...

وهم يترنمون ترنيمة جديدة قائلين: "مســـتحق أنت أن تأخذ الســـفر وتفتح ختومه، لأنك ذُبحت واشـــتريتنا لله بدمك، من كل قبيلة ولســـان وشـــعب وأمة، وجعلتنا لإلهنا ملوكا وكهنة، فسنملك على الأرض". (رؤيا ٥: ٩-١٠)

ولما فُتح الختم الخامس، رأيت تحت المذبح نفوس الذين قُتلوا من أجل كلمة الله ومن أجل الشهادة التي كانت عندهم. وصرخوا بصوت عظيم قائلين: "حتى متى أيها السيد القدوس والحق، لا تقضي وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض"، فأُعطوا كل واحد ثيابا بيضا، وقيل لهم أن يستريحوا زمانا يسيرا أيضا حتى يكمل العبيد رفقاؤهم وإخوتهم أيضا، العتيدون أن يُقتَلوا مثلهم. (رؤيا ٦: ٩-١١)

وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة، نازلة من السماء من عند الله، مُهيأة كعروس مُزينة لرجلها. وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا: "هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعبا، والله نفسه يكون معهم إلها لهم. وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم، والموت لا يكون فيما بعد، ولا يكون حزن ولا صـــراخ ولا وجع فيما بعد، لأن الأمور الأولى قد مضـــت". (رؤيا ٢١:٢-٤)

ثم جاء إليَّ واحد من السبعة الملائكة، الذين معهم السبعة الجامات المملوَّة من السبع الضربات الأخيرة، وتكلم معي قائلا: "هلم فأريك العروس امرأة الخروف. وذهب بي بالروح إلى جبل عظيم عال، وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة، نازلة من السماء من عند الله لها مجد الله، ولمعانها شبه أكرم حجر، كحجر يشب بلوري. (رؤيا ٢١:٩-١١)